حاضر
العالم الإسلامي

الدكتور
تاج السر أحمد حران

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

بسم الله الرحمن الرحيم

حاضر
العالم الإسلامي

© تاج السر احمد حران ، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حران ، تاج السر احمد
حاضر العالم الاسلامي .- الرياض.
٢٩٦ ص ، ١٧ × ٢٤
ردمك : ٧ - ٥٢٢ - ٣٩ - ٩٩٦٠
١- العالم الإسلامي - تاريخ - العصر الحديث ٢- المسلمون في العالم
أ- العنوان
ديوي ٩٥٣ ٢٢/٢٧٩٧

رقم الإيداع : ٢٢/٢٧٩٧
ردمك : ٧ - ٥٢٢ - ٣٩ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

إشبيليا
للنشر والتوزيع
والدعاية والإعلان

التوزيع لجميع أنحاء المملكة : إشبيليا
للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية
الرياض : ١١٤٩٣ - ص.ب : ١٣٣٧١
هاتف : ٢٩١٠٧٠٤ - ٢٩١٣٦٨٥ - ٤٧٤٢٤٥٨
فاكس : ٤٧٨٧١٤٠

مقدمة

الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام ، وجعلنا من خير أمةٍ أُخرجت للناس ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين ، والمبعوث رحمةً للعالمين وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

هذه دراسة لحاضر العالم الإسلامي ، تحاول في فصولها الثمانية معالجة مجموعة منتخبة ومترابطة من جوانبه الحيوية ، ومشاكله المعاصرة ، أكثر مما تحاول مسحاً جامعاً مفصلاً لأحوال العالم الإسلامي ، سواء في ماضيه أو حاضره ، فهي ترمي إلى التعريف بالعالم الإسلامي من حيث أهميته الاستراتيجية ، والاقتصادية ، والبشرية ، والسياسية ، والثقافية ، وتحاول أيضاً التبصير بواقعه الأليم ، كما تحاول تحليل العوامل الداخلية والخارجية التي أدت إلى ذلك الواقع ، والفصول من الأول إلى الثالث يفصلون القول في كل هذه الجوانب .

فالفصلان الأول والثاني يتعرضان لتعريف مدلول العالم الإسلامي ، وأهميته الاستراتيجية من كل نواحيها ، ثم لعوامل ضعف ذلك العالم ـ الداخلية والخارجية ـ من عوامل الضعف الثقافي الحضاري ، وإلى ما تعرض له عالم الإسلام من غزوات خارجية ، تتارية كانت أم صليبية ، أم استعمارية إمبريالية ، والنتائج المترتبة على تلك العوامل .

وفي الفصل الثالث نفصل الوسائل التي اتبعها الاستعمار على وجه الخصوص الإضعاف العالم الإسلامي ، من مخططات سياسية واقتصادية وفكرية ، واستشراقية وتنصيرية وغيرها ، وكلها محاولات ترمي لطمس هوية ذلك العالم ، ولفك عرى وحدته ، وإحداث الفرقة والشتات بين سكانه ، وبلدانه ، وذلك بما خلفه الاستعمار وراءه من مشكلات عديدة ،

مثل مشاكل الحدود ، ومشكلة جنوب السودان ، ثم مشكلة الأكراد ، وغيرها من المشاكل العرقية والسياسية والاقتصادية ، وكلها مشكلات وتحديات لازالت تواجه المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، ولازالت تشغل أذهان المفكرين والمثقفين الذين يحاولون إيجاد الحلول المناسبة لها .

وهذا ما نحاول التعرض له في الفصلين الرابع والخامس ، إذ إنهما يحاولان رصد حركات مقاومة الاستعمار ، سواء كانت حركات صحوات إسلامية ، مثل حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية في نجد ، أو الحركة السنوسية في ليبيا ، أو الحركة المهدية في السودان . . أو حركات فكرية سياسية أخرىٰ مثل حركة الجامعة الإسلامية (الأفغاني وصحبه) ، أو كان ذلك دور للمؤسسات الدينية التعليمية كالأزهر الشريف ، وجامع القرويين ، وجامع الزيتونة . . . إلخ ، أضف إلىٰ ذلك ما قامت به حركات الصحوة الإسلامية المعاصرة من دعوات للتضامن الإسلامي ، ولم شمل المسلمين ، ومثال ذلك منظمة المؤتمر الإسلامي ، ورابطة العالم الإسلامي ، والمؤسسات الثقافية ، والإعلامية ، والتعليمية الإسلامية المختلفة .

أما الفصلان السادس والسابع فيعرضان لبعض قضايا العالم الإسلامي المعاصرة ، مثل قضية فلسطين ، وقضية كشمير ، وقضية المسلمين في الفلبين ، وقضايا المسلمين في الدول الشيوعية : الاتحاد السوفيتي (السابق) وبعض دول شرق أوروبا .

وفي الفصل الثامن والأخير نحاول توضيح بعض المشكلات والتحديات التي تواجه عالم الإسلام ، وبعض المقترحات لمواجهتها وحلها . .

المؤلف

الفصل الأول
أهمية العالم الإسلامي
ومقوماته الأساسية

مدلول العلم الإسلامي :

نعني بالعالم الإسلامي في هذا الؤلف الشعوب والدول ذات العقيدة الإسلامية على اختلاف بيئاتها ، ومناطقها ، وتباين ثقافاتها ، وتعدد سلالاتها البشرية .

ويندرج تحت مفهوم العالم الإسلامي أيضاً الأقليات المسلمة التي تعيش في دولٍ غير إسلامية .

والدول الإسلامية هي الدول التي يغلب على سكانها الإسلام كعقيدة ، كأن يزيد عدد المسلمين فيها عن ٥٠٪ من مجموع السكان ، ويتفاوت عدد الدول الإسلامية من وقت لآخر تبعاً للظروف فمثلاً بعد تفكك الإتحاد السوفيتي زاد عدد الدول الإسلامية خمس دول ، ومن ذلك أيضاً ظهور جمهورية البوسنة والهرسك في أوربا ، بعد تفكك يوغسلافيا الإتحادية .

والعالم الإسلامي ـ فقهياً ـ هو دار الإسلام ، ذلك أن فقهاء المسلمين كانوا قد قسموا العالم إلى قسمين : دار الإسلام ، ودار الحرب فدار الإسلام هي الأرض التي تسودها شريعة الإسلام ، وتقام فيها حدوده ، وإن كان جل أهلها من غير المسلمين ودار الحرب هي الأرض التي تسود فيها شرائع غير شريعة الله وإن كان جل أهلها من المسلمين . . ولما كانت شريعة الله تطبق إلا في ديار قليلة ، فإننا مضطرون إلى استعمال مصطلح العالم الإسلامي في معناه الجغرافي .

وتشغل أرض العالم الإسلامي مساحة تزيد عن ٢٥٪ من مساحة اليابسة في العالم ، وتجعل بعض المراجع تلك المساحة بحوالي ٣١ مليون كم٢ . وتمتد من الشرق إلى الغرب بطول حوالي (١٧,٠٠٠) كيلو متراً من أدريان الغربية في اندونيسيا إلى الرأس الأخضر مقابل السنغال في المحيط الأطلسي

كما تمتد من الشمال إلى الجنوب حوالي (٧٠٠٠) كم ، أي من تركستان الغربية وجنوب الأورال شمالاً إلى موزمبيق جنوباً[١] فهو على ذلك مفهوم جغرافي يشمل الدول التي تسكنها أكثرية مسلمة أو كانت تخضع للمسلمين سابقاً أو كانت ذات أغلبية مسلمة ، والقائمة الموجودة في الملحق (١) توضح أسماء بلدان العالم الإسلامي ، ومساحة كل بلد ، وعدد سكانها بما فيهم غير المسلمين ، ونسبة المسلمين حسب أحدث التقديرات .

ونخلص من تلك القائمة إلى أن الدول الإسلامية على الصعيد الآسيوي تتمثل في :

(١) المملكة العربية السعودية .
(٢) الكويت .
(٣) قطر .
(٤) البحرين .
(٥) الإمارات العربية المتحدة .
(٦) اليمن .
(٧) إندونيسيا .
(٨) العراق .
(٩) سوريا .
(١٠) لبنان .
(١١) فلسطين .
(١٢) الأردن .
(١٣) إيران .
(١٤) تركيا .
(١٥) أفغانستان .
(١٦) باكستان .
(١٧) بنجلاديش .
(١٨) ماليزيا .
(١٩) بورناي .
(٢٠) سلطنة عُمان .

والدول الإسلامية على الصعيد الأفريقي تتمثل في :

(١) مصر .
(٢) تشاد .
(٣) السودان .
(٤) النيجر .
(٥) ليبيا .
(٦) مالي .
(٧) تونس .
(٨) غينيا .
(٩) الجزائر .
(١٠) غامبيا .
(١١) المغرب .
(١٢) السنغال .
(١٣) موريتانيا .
(١٤) جيبوتي .
(١٥) الصومال .

(١٦) الجابون . (١٧) الكاميرون . (١٨) جزر القمر .
(١٩) توغو . (٢٠) نيجيريا . (٢١) غينيا بياد .
(٢٢) سيراليون . (٢٣) أوغندا . (٢٤) فولتا العليا .
(٢٥) ساحل العاج . (٢٦) أفريقيا الوسطى . (٢٧) جمهورية الصحراء .

وإلى جانب هذه الدول في آسيا وأفريقيا هناك الأقليات المسلمة في أوروبا وفي آسيا وأفريقيا ، وفي العالم الجديد .

حاضر العالم الإسلامي :

يمر العالم الإسلامي اليوم بظروف عصيبة ، ويقف أمام تحديات وأحداث عظيمة . وقد تكاثرت عليه الأعداء من داخله وخارجه ، وتتابعت النكبات والمآسي . ولا يمكن للمسلم المخلص حيالها إلا أن يهتم بأمته ، وبأمرها ، ومن لايهتم بأمر المسلمين فليس منهم ، ونحن إذ نتعرض في هذا الكتاب إلى أحوال العالم الإسلامي الحاضرة ، وإلى واقعه السياسي ، والاقتصادي ، والاجتماعي ، وإلى بعض قضاياه المعاصرة ، فإنما نرمي إلى تعريف المسلم بعالمه الإسلامي الكبير ، وبقضاياه ، وبالتحديات التي تواجه المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، وكيفية تذليلها ، والتعرف على إخوانه في أقطار الأرض ، وعلى مواطن قوة عالمه الإسلامي ، للعمل على المحافظة عليها ، ومعرفة أماكن الضعف والتغلب عليها .

ولقد مرت الأمة المسلمة في أحقاب تاريخها المختلفة بظروف عصيبة تفوق ظروفها الحاضرة حين أغار عليها المغول والتتار ، ثم جاءها الصليبيون في حملاتهم المعروفة ، وتكالب عليه الإستعمار الأوروبي بعد ذلك ، وقد تجاوزت الأمة كل ذلك ، وكانت تتغلب عليها دائماً حين تعود إلى أصالتها وهويتها ، وتتحصن بعقيدتها ودينها .

والحديث في موضوع حاضر العالم الإسلامي ليست بالأمر السهل ، فالمصادر متباينة في أخبارها ، ومختلفة في تقديرها ووجهات نظرها ، وكثير

منها كتب بأيدٍ لا تضمر الخير للإسلام وأهله ، وليس هناك مصادر أصيلة موثوق بها في هذا الميدان . كما هو حال من يكتب في السيرة النبوية مثلاً . . ، وعلى الكاتب أن يستعين بمصادر ومراجع مختلفة ومتباينة ، ويحاول أن يأخذ منها ما تطمئن إليه النفس ، ويقبله منطق الأحداث .

ولابد ـ عند الكتابة في هذا الموضوع ـ من التعريف بالعالم الإسلامي ، ثم بجغرافيته ، وأهميته السياسية ، والأستراتيجية ، والاقتصادية ، والثقافية ، ثم بأسباب ضعفه ، خاصة ما قام به الإستعمار الغربي من تشجيع للدعوات الإسلامية الهدامة والإلحادية ، وما بثته أجهزته الأستشراقية والتنصرية من أفكار وسموم أسهمت إلى حد بعيد في إضعاف العالم الإسلامي ، فهناك تشجيعه للنزعات القومية والعنصرية ، وتقسيمه للعالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة ذات حدود مصطنعة . وبذره لبذور الخلاف بين تلك الدويلات ، ثم إسقاطه للخلافة الإسلامية

ثم تأتي بعد ذلك أهيمة التعرض لحركات الصحوة الإسلامية ، حديثها ، ومعاصرها مثل الحركات السلفية التي قامت في نجد ، وغيرها من بلدان العالم الإسلامي ، فهناك الحركة السندسية في ليبيا ، والحركة المهدية في السودان ، ثم حركة الجامعة الإسلامية وجمال الدين الأفغاني وتلامذته ، وفي مجال الصحوة الإسلامية المعاصرة ، نتحدث في دور المملكة العربية السعودية ، المتمثل في قيام بعض المؤسسات الإسلامية الداعية لتضامن العالم الإسلامي وتنميته ، مثل رابطة العالم الإسلامي والمؤسسات الثقافية والتعليمية الإسلامية .

وقبل أن نختم حديثنا ببعض الحلول المقترحة لمشاكل العالم الإسلامي في الوقت الحاضر ، نعرض للجانب الآخر والمهم من أحوال العالم الإسلامي ، ألا وهو الأقليات المسلمة ومشاكلها ، سواء كان ذلك في الفلبين ، أو كشمير ، أو كانت تلك قضية المسلمين في فلسطين .

وعدد الدول الإسلامية (٥٦) دولة ، تشكل الدول العربية منها (٢١)دولة ، وبها أهم التجمعات الإسلامية ، والدول الإسلامية الأخرىٰ (٣٥) دولة ، وفي الواقع أن مفهوم العالم الإسلامي أكثر اتساعاً من مجموع الدول الإسلامية المعروفة لدينا ، سواء كانت منضمة إلىٰ منظمة المؤتمر الإسلامي ، أو علىٰ طريق الإنضمام بعد تفكك الإتحاد السوفيتي ، أو اليوغسلافي ، فمثلاً هناك دول لم تشترك بعد في منظمة المؤتمر الإسلامي ، ومنها أرتيريا ، أذربيجان ، ألبانيا ، أُزبكستان ، تركمانستان ، طاجيكستان، قرغيزستان ، كازاخستان ، والبوسنة والهرسك[٢] .

كما أن هناك أقليات إسلامية في أماكن متعددة من العالم ، وتقدر نسبة تلك الأقليات المسلمة بحوالي ٢٣٪ من المسلمين في العالم ، أي ما يزيد عن ٢٠٤مليون مسلم ، وغالبيتهم يعيشون في قارة آسيا حيث يوجد المسلمون في الهند والصين والإتحاد السوفيتي السابق .

السكان وعوامل اللقاء بين المسلمين :

من الصعب إعطاء أرقام دقيقة عن عدد سكان العالم الإسلامي ، والأعداد الموجودة لدينا أعداد تقريبية ، وهذا يعود للأسباب الآتية :

١ ـ غياب الإحصاءات السكانية الدقيقة التي تشمل الانتماء الديني .

٢ ـ عدم افصاح الدول عن نتائج التعدادات السكانية خاصة انتماءات السكان الدينية ، لكون ذلك يمس التوازنات السياسية بها .

٣ ـ عدم توافر الوعي الاحصائي لدىٰ السكان ، فكثيراً ما يتهرب الناس من قيد أنفسهم في بيئات التعداد خوفاً من هذا الأمر أو ذاك مثل خوفهم من التجنيد ، أو من الضرائب ، أو غير ذلك من الأسباب ، وهذه كلها تؤثر علىٰ مصداقية التعداد .

٤ ـ عدم توافر الإمكانيات اللازمة للقيام بالتعداد السكاني ، كما هو الحال في بعض الدول الإسلامية ، التي تعتمد في تعدادها على التقديرات .

٥ ـ اعتماد بعض التعدادات السكانية على أساس العينة ، وقد يتم استبعاد المسلمين من العينة ، خاصة إذا كانت الدولة تريد إخفاء أعداد المسلمين الحقيقية ، كما حصل في أثيوبياً عام ١٩٧٠م .

٦ ـ وجود المشكلات العرقية والدينية في عدد من البلاد الإسلامية ، مما تؤثر على نتيجة التعداد وقيمته الفعلية ، إذ إن المجموعات الدينية والعرقية تضخم حجمها في التعداد ، وهذا ما حصل فعلاً في نيجيريا بعد الاستقلال عام ١٩٦٣م ، وفي لبنان عام ١٩٣٢م عندما أجري التعداد السكاني الذي على أساسه سيحدد توزيع الوظائف الدستورية وغيرها .

٧ ـ عدم توفر إحصاءات دقيقة للأقليات المسلمة لأسباب عديدة ، كما أن عملية التحول إلى الإسلام عملية مستمرة .

ولذ أصبح من العسير التوصل إلى تعداد دقيق لسكان العالم الإسلامي ، كما أننا نجد أن نسبة السكان المسلمين في مختلف دول العالم تتفاوت تفاوتاً كبيراً تبعاً لنوعية المصادر ، فالمصادر الأجنبية تقلل من أعدادهم ، في حين أن بعض المصادر الإسلامية تضخم في أعدادهم[٣] ، فعلى سبيل المثال قدرت المصادر الأجنبية أن نسبة المسلمين في الغابون (١٠٪) ، في حين قدرتها المصادر الإسلامية بـ (٤٠٪) ، وعليه فالاعتماد على الإحصاءات الرسمية والتقديرات للسكان عملية لا تخلو من بعض المخاطر .

ورغم هذه المصاعب فيمكن القول أن عدد المسلمين في العالم اليوم يزيد على ألف ومائتي مليون نسمة ، أي أنهم يزيدون عن ٢٥٪ من سكان العالم ، ويتركزون في آسيا وأفريقيا ، ففي آسيا يوجد حوالي ٧٠٪ من مجموع المسلمين في العالم ، وفي أفريقيا ٢٦٪ ، وفي بقية القارات ٤٪ ،

وعدد المسلمين في الدول العربية يمثلون نحو ٢ , ١٦٪ من إجمالي عدد المسلمين ، وجل المسلمين من أهل السنة ويؤلفون حوالي ٩٣٪ ، بينما يبلغ الشيعة ٦٪ ، وهم بهذا العدد طاقة بشرية هائلة ، لو فطنت لذاتها ، وأحسن الاستفادة منها .

الانتماء العرقي والعقائدي :

على الرغم من أن المسلمين ينتمون إلى عدد من المجموعات العرقية والقومية ، كالمجموعة العربية ، والمجموعة الإيرانية ، والمجموعة الأفغانية ، مثلاً ، إلا أن العالم الإسلامي الذي يعيشون فيه يشكل وحدة متماسكة ، وكتلاً متقاربة يمكن أن تتحقق فيها عوامل الوحدة الإسلامية بدايةً لقيام الوحدة الكبرى ، وأشهر هذه المجموعات هي :

١ ـ مجموعة الدول العربية أو الكتلة العربية ، ويبلغ عدد المسلمين فيها حوالي «١٤٧» مليون نسمة ، أي بنسبة ٢ , ١٦٪ من مجموع سكان العالم الإسلامي .

٢ ـ الكتلة الإيرانية ، الأفغانية ، الباكستانية الكشميرية البنغالية ، وسكانها حوالي مئتي مليون نسمة ، أي بنسبة ٢٢٪ من المسلمين في العالم .

٣ ـ الكتلة الإندونيسية الماليزية ، وتضم دولتي إندونيسيا ، واتحاد ماليزيا ، والمسلمون فيها حوالي ١٢٣ مليون نسمة ، أي بنسبة ٥ , ١٣٪ من مجموع سكان العالم الإسلامي .

٤ ـ الكتلة الأفريقية ، وتشمل دول النطاق الصحراوي ، ودول شرق أفريقيا ، والمسلمون فيها حوالي ١٧٨ مليون نسمة ، أي بنسبة ٦ , ١٩٪ من مسلمي العالم .

٥ ـ الكتلة التركية القوقازية ، وتشمل تركيا ، والجمهوريات والولايات في مرتفعات القوقاز ، وهي : أذربيجان ، داغستان ، شاشان ، أنجوشيا ،

أوستينا ، قرنشاي ، الأوديجا ، والمسلمون فيها حوالي ١١٠ مليون نسمة ، أي بنسبة ١٢٪ من مسلمي العالم .

٦ ـ الكتلة التركستانية ، وتسكنها العناصر المغولية التركية ، وهي مقسمة إلى :

أ ـ الأقاليم التابعة للصين ، وعدد المسلمين فيها حوالي ١٨ مليون مسلم .

ب ـ الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي (السابق) ، وهي : أوزبكستان ، طاجكستان ، تركمانيا ، قزقستان ، قرغيزيا ، نتاريا ، الجوفاش ، وعدد المسلمين فيها حوالي ٣٩ مليون مسلم .

والمسلمون في هذه الكتلة التركستانية حوالي ٥٧ مليون مسلم ، أي حوالي ٥ , ٦٪ من مجموع السكان المسلمين في العالم(٤) .

عوامل الوحدة الإسلامية :

يفصل بين المسلمون اليوم الحدود السياسية ، والفروق الاجتماعية والاقتصادية ، بسبب التخلف ، والاستعمار الذي أصاب العديد من دول العالم الإسلامي ، ومع ذلك فهناك عوامل كثيرة لا تزال ـ إلى حد كبير ـ تؤلف بينهم ، وتربط بين أقطارهم ، ومن أهمها :

١ ـ الدين الإسلامي .

٢ ـ اللغة العربية لغة القرآن .

٣ ـ التاريخ الإسلامي المشترك .

فقد جعل الإسلام من المسلمين أمةً واحدةً من دون الناس ، تجتمع على كتاب الله العزيز ، وسنة رسوله الكريم ﷺ ، وعلى ثوابت عقدية لا تتغير ولا تتبدل ، كانت هي أساس المجتمع الإسلامي الذي ضم شعوباً وأمماً

مختلفة ، انصهرت في بوتقته الإسلامية ، وأقامت وحدتها على أساس عقيدتها الإسلامية الواحدة .

وكذلك تجمع بين المسلمين لغة واحدة ، هي العربية ، لغة القرآن الكريم ، فهي لغة الإسلام التي تدعوهم عقيدتهم إلى حبها ، وتعلمها رغبة في فهم شرائع دينهم الحنيف ، الواردة في كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيهم ﷺ ، فكانت لغة العلم والثقافة والتأليف ، تعلمها وكتب بها علماء المسلمين ، عربيهم ، وعجميهم ، كما كانت لغة الحديث والتعامل ، وبذلك صارت العربية لغة المسلمين في شتى أقطارهم ، وذلك على الرغم من أن بعض المسلمين انصرفوا إلى لغاتهم القومية والمحلية عندما خبت نخوتهم الإسلامية ، وأصابهم الوهن والضعف والجمود .

كما يجمع بين المسلمين تاريخ مشترك ، هو التاريخ الإسلامي ، أساس هويتهم وذاتيتهم الإسلامية ، فالمسلمون جميعاً يرون في ذلك التاريخ بداية وولادة لتاريخهم الذي يعتزون به ، ويستلهمونه في ظروفهم العصيبة ، ومعرفته ضرورية لمعرفة الإسلام ذاته ، ففيه تتجلى الوحدة الإسلامية في أزهى صورها ، وتقف إنجازات الحضارة الإسلامية شاهدة على عظمته وتفرده ، فقد جمعت دولة الخلافة بين معظم أقطار المسلمين ردحاً طويلاً من الزمن ، ووحدت بينها وحدةً لم تعرفها من بعد ذلك ، خاصة عندما فرقتها أيدي الأعداء من الاستعماريين والصليبيين الذين كادوا لأمة الإسلام ، ولازالوا يكيدون لها .

ويجمع بين المسلمين بالإضافة إلى ذلك مشاعر وأهداف واحدة ، إذ أنهم تعرضوا جميعاً لأوضاع متشابهة ، وتحديات تكاد تكون واحدة ، فهم يشتركون في كثير من الآمال والآلام ، وهم كما قال الرسول ﷺ : «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» .

أما ملايين المسلمين الذين يعيشون أقليات خارج حدود العالم الإسلامي فيعانون من مشاكل عدة ، ولكنهم ظلوا دائماً يشعرون بانتمائهم إلى أمة الإسلام وبهويتهم الإسلامية ، وأنهم جزءٌ لا يتجزأ من الكيان الإسلامي ، وتلوح في الأفق الآن تباشير تضامن بعض الدول والمنظمات الإسلامية معهم ، حيث بدأت تهتم بأمورهم ، وتعقد المؤتمرات والندوات لمناقشة ، ومحاولة إيجاد الحلول لمشاكلهم ، ومن تلك الجهود جهود منظمة المؤتمر الإسلامي ، ورابطة العالم الإسلامي ، والندوة العالمية للشباب الإسلامي ، وجهود بعض الجامعات والمؤسسات الأكاديمية ، مثل معهد شئون الأقليات المسلمة الذي أنشأته جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، والذي تحول حديثاً إلى العاصمة البريطانية .

أهمية العالم الإسلامي :

يتمتع العالم الإسلامي بمميزات متعددة أكسبته أهمية كبيرة كما جعلته موطناً للصراع بين القوى العالمية المختلفة ، وأشهر هذه المميزات :

أولاً ـ الموقع الاستراتيجي :

يحتل العالم الإسلامي قلب العالم القديم (آسيا ، وأفريقيا ، وأوروبا) ، ويكون جسراً أرضياً يربط هذه القارات الثلاث ، ويشغل مساحات واسعة فيها ، فهو يمتد من ملقا بالملايو شرقاً إلى ملقة بالأندلس غرباً ، ومن تنزانيا جنوب خط الاستواء حتى جمهورية كازاكستان في الشمال ، وبهذا يشكل المسلمون محيطاً اجتماعياً عظيم الامتداد ، وليس العالم الإسلامي كما يصوره الجغرافيون الأوربيون قطاعاً صحراوياً فقيراً في موارده ، متخلفاً في سكانه ، فهو ـ يقع كما يقال ـ في «صرة العالم» ممسكاً بأطرافه ، متحكماً في محيطاته ، وبحاره ، وخطوط ملاحته ، زاخراً بأهم الأنهار ، وأخصب الأراضي ، وأعظم الثروات[٥] .

فالعالم الإسلامي بامتداده الجغرافي هذا يشرف على أهم الأذرع المائية، من وجهة نظر الملاحة والتجارة الدولية ، فالبحار الهامة التي يشرف عليها العالم الإسلامي هي : البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأحمر ، والخليج العربي ، وبحر العرب ، والبحر الأسود ، وبحر الصين الجنوبي ، وهذه الأذرع المائية تتصل بالمسطحات المائية العالمية الكبرى كالمحيط الأطلسي ، حيث تعيش مجموعات إسلامية كبيرة على سواحل أفريقيا الغربية ـ أي من طنجة شمالاً حتى خليج بيافرا جنوباً ، وعلى ساحل المحيط الهندي يعيش المسلمون على بلدان القطاع الساحلي من شرق أفريقيا ، مثل الصومال ، وتنزانيا وأثيوبيا ، كما أن العالم الإسلامي يطل على المحيط الهادي من خلال بعض جزر إندونيسيا والفلبين .

إن هذه الإطلالة المائية جعلت العالم الإسلامي يشرف على عدة منافذ بحرية عظيمة الأهمية هي :

مضيق جبل طارق الذي يتحكم في اتصال المحيط الأطلسي بالبحر الأبيض المتوسط ، ومضيق الدردنيل والبوسفور ، ويتحكمان في اتصال البحر الأسود بالبحر الأبيض المتوسط ، وقناة السويس الاستراتيجية التي تربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ، ومضيق باب المندب ، وخليج عدن اللذان يتحكمان في اتصال البحر الأحمر ببحر العرب ، ومضيق هرمز وخليج عُمان ، ويتحكمان في اتصال المحيط الهندي بالخليج العربي ، ثم هناك مضيق ملقا وسنغافورة ، ويتحكمان في اتصال المحيط الهندي ببحر الصين الجنوبي ، والمحيط الهادي .

كل ذلك أكسب العالم الإسلامي أهمية استراتيجية وعسكرية لها خطورتها في ميزان القوى العالمية ، وهذا يفسر لنا تكالب الدول ذات النفوذ على العالم الإسلامي ، ورغبتها في السيطرة عليه بالعمل على إثارة المشاكل فيه حتى يبقى ممزقاً ، فيسهل عليها التحكم فيه ، ومن تلك المشاكل زرع اليهود الصهيونيين في فلسطين ، وغزو أفغانستان ثم إثارة الفتحة فيها ،

والعمل على انفصال بنجلاديش عن باكستان ، وقضية جنوب السودان ، وقضايا المسلمين في كشمير والفلبين وفي أثيوبيا والصومال وأرتيريا ، إلى آخر تلك المشاكل التي تقف عقبةً في وحدة وتعاون أجزاء العالم الإسلامي ، وتبقيه تحت دائرة نفوذ تلك القوى الإستعمارية .

ثانياً ـ الموارد الطبيعية :

يمتاز العالم الإسلامي بأهمية اقتصادية هائلة بما حباه الله من ثروات طبيعية متنوعة : زراعية ، وحيوانية ، ومعدنية .

الثروات الزراعية :

يحوي العالم الإسلامي أراضي زراعية واسعة ، وتجري فيه كثير من الأنهار الهامة ، منها : نهر النيل ، ونهر الكونغو (زائير) ، ونهر النيجر في أفريقيا ، ودجلة والفرات ، والسند ، والفنج ، وسر داريا «سيحون» ، وأمو داريا «جيحون» ، والعاصي ، والليطاني ، والأردن في آسيا ، هذا بالإضافة إلى المياه الجوفية التي يحظى بها العالم الإسلامي .

ولاتساع العالم الإسلامي فإن مناخه متعدد متنوع ، الأمر الذي يؤدي إلى تنوع ثرواته الزراعية ، وتعدد محاصيله ، ويؤدي هذا بدوره إلى التكامل الزراعي الذي لا يتوافر لأي عالم غير العالم الإسلامي ، كما أنه يحقق مبدأ الاكتفاء الذاتي .

ومناخ العالم الإسلامي متنوع ، حيث تسود هذا العالم مختلف المناخات الاستوائية ، والمدارية ، والموسمية ، والمناخات المعتدلة ، فالمناخ الاستوائي الحار الماطر طوال العام ، ذو الغابات الكثيفة يسود في الملايو ، وأكثر الجزر الإندونيسية وجنوب السودان ، أما المناخ الموسمي الحار الماطر صيفاً فيسود مناطق بنغلاديش ، واليمن ، وعمان ، ونيجيريا ، وساحل غينيا ، وهضبة الحبشة ، وهناك المناخ القاري بقسميه : الصحراوي الحار

الذي يسود الصحراء الأفريقية الكبرىٰ ، وشبه جزيرة العرب ، وجنوب إيران ، وجنوب باكستان ، وصحراء ثار في الهند ، أما المناخ الصحراوي البارد فيسود هضبة إيران ، وهضبة الأناضول ، وتركستان . . كما أن المناخ الدافئ المعتدل (مناخ البحر الأبيض المتوسط) ، فيسود علىٰ شواطئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبية ، والشرقية ، والشمالية ، ومن أهم الغلات الزراعية في العالم الإسلامي ما يأتي :

١ ـ الأرز : ويتوافر في ماليزيا ، وبنغلاديش ، وباكستان ، ومصر ، وإندونيسيا .

٢ ـ القمح : في إيران ، وأفغانستان ، وتركيا ، وباكستان ، والشام ، ومصر ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، وبلدان المغرب العربي .

٣ ـ الخضروات والفواكه : وتتوافر في إقليم البحر الأبيض المتوسط ، والموز في الصومال وأفريقيا الغربية ، والحمضيات في تركيا ، وشمال أفريقيا ، وبلاد الشام وبخاصة في فلسطين ، والتمر في المناطق الصحراوية .

٤ ـ القطن : ويتوافر طويل التيلة منه في السودان ومصر ، ومتوسط التيلة في تركيا ، وباكستان ، وأفغانستان ، وإيران ، وقصير التيلة في المغرب العربي ، وباكستان ، كما إن القطن يزرع في الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي السابق ، في تركستان ، وفي أذربيجان ، وداغستان غربي بحر قزوين ، وتنتج هذه المنطقة وحدها أكثر من إنتاج دول العالم الإسلامي مجتمعة .

ويصل إنتاج العالم الإسلامي إلىٰ حوالي ٤٠٪ من الإنتاج العالمي للقطن .

٥ ـ الحبوب الزيتية : ومنها السمسم في السودان ومصر ، وإندونيسيا ، والفول السوداني في السودان ونيجيريا .

٦ ـ قصب السكر : في باكستان ، بنجلاديش ، إندونيسيا ، والسودان ومصر .

٧ ـ المطاط : من غابات الإقليم المداري ، وتنتج نيجيريا وحدها ٧٢٪ من إنتاج المطاط العالمي ، كما تنتجه كل من إندونيسيا والملايو .

الثروات الحيوانية :

تنوع مناخ العالم الإسلامي أدىٰ إلىٰ وجود المراعي الطبيعية الواسعة ، مثل حشائش السافانا وغيرها ، وتلك المراعي والأعشاب هيأت لنشأة ثروة حيوانية متنوعة داخل قطاعات العالم الإسلامي المختلفة ، من ماعز ، وضأن ، وإبل ، وخيل ، وبقر .

الثروة المائية :

إن إطلالة العالم الإسلامي علىٰ البحار والمحيطات والمنافذ المائية ، واحتوائه علىٰ أنهار كبيرة ، وبحيرات ، وبحار داخلية كبحر قزوين ، هيأ الأسباب لتوفر ثروات مائية كبيرة ، مثل الأسماك ، والأسفنج واللؤلؤ ، فهناك الأسماك في إندونيسيا ، وباكستان ، وتركيا ، وماليزيا ، ومصر ، والمملكة العربية السعودية ، والمغرب . . وهناك أيضاً الأسفنج الذي يكثر بالقرب من سواحل الأبيض المتوسط الجنوبية ، وسواحل البحر الأحمر ، أما اللؤلؤ ذو الشهرة الواسعة فيكثر في مياه الخليج العربي ، وبعض مناطق البحر الأحمر ، ويجد اللؤلؤ الآن منافسة شديدة من اللؤلؤ الصناعي[٦] .

الثروة المعدنية :

تحتوي أراضي العالم الإسلامي علىٰ معادن تعتبر ثروات طبيعية هامة ، وموارد اقتصادية تقوم عليها الكثير من الأنشطة والفعاليات البشرية ، وبعض هذه الثروات مستغل ، وبعضها غير مستغل ، ومن أهمها :

البترول والغاز الطبيعي : وتحتل دول العالم الإسلامي مركزاً متفوقاً في مجال إنتاجه واحتياطيه الذي يقدر بأكثر من حوالي ٧٥٪ من احتياطي العالم البترولي ، وأكثر من ٣٥٪ من احتياطي الغاز الطبيعي ، وينتج العالم الإسلامي اليوم نحو ثلث الإنتاج العالمي من النفط ، ويساهم بأكثر من نصف النفط المعروض في الأسواق العالمية ، وأهم المناطق الإسلامية لإنتاجه هي :

١ ـ منطقة الخليج العربي : المملكة العربية السعودية ، الكويت ، العراق ، إيران ، قطر ، عمان ، والإمارات العربية المتحدة .

٢ ـ منطقة جنوب شرق آسيا : وهي ماليزيا ، إندونيسيا ، سلطنة بروني .

٣ ـ منطقة قفقاسيا بين بحر قزوين والبحر الأسود ـ وتستغله روسيا .

٤ ـ منطقة شمال أفريقيا : ليبيا والجزائر .

٥ ـ غرب أفريقيا ، نيجيريا ، والكاميرون ، وتوجو .

٦ ـ وهناك بعض البترول في مصر ، والسودان ، واليمن .

والدول العشرة الأوائل في العالم في احتياطي البترول حسب ترتيبها هي : السعودية ، الكويت ، روسيا ، المكسيك ، إيران ، العراق ، أبو ظبي ، الولايات المتحدة ، فنزويلا ، وليبيا ، ويلاحظ أن من بين هذه الدول العشرة هناك ست دول إسلامية ، وهذه دلالة على ما يتمتع به العالم الإسلامي من أهمية بوجود هذه المادة في أراضيه(٧) .

وأهمية البترول كمصدر من أهم مصادر الطاقة لا تحتاج إلى كثير بيان ، فبدونها لا يمكن قيام أي نوع من أنواع النشاط الاقتصادي ، سواء كان زراعياً أو صناعياً أو تجارياً ، وبدون الطاقة تتوقف وسائل النقل والمواصلات في العالم ، والبترول مادة خام لكثير من الصناعات الكيماوية والبترولية وهو

فوق هذا وذاك يشكل المورد المالي الأساسي لمعظم الدول المنتجة له ، وكما قدمنا فإن العالم الإسلامي ينتج نحو ثلث الإنتاج العالمي النفطي .

معادن أخرى :

وفي العالم الإسلامي ثروات معدنية أخرىٰ كالفوسفات الذي تصنع منه الأسمدة الزراعية ، ويوجد الفوسفات في المملكة العربية السعودية ، وتونس ، والأردن ، والسنغال ، والجزائر ، ومصر ، وسوريا ، وينتج العالم الإسلامي حوالي ٢١٪ من إنتاج الفوسفات في العالم .

وهناك الكروم، والحديد ، والقصدير ، والمنغنيز ، والرصاص ، وأملاح الصوديوم ، والبوتاسيوم ، والأملاح المعدنية الموجودة في العالم الإسلامي .

فالكروم الذي يستعمل في صناعة الصلب ، والسبائك الحديدية يوجد في إيران ، وتركيا ، وباكستان ، والسودان ، والبانيا ، وأكثر الأقطار الإسلامية إنتاجاً للكروم هي تركيا والتي تنتج حوالي ٤١٪ من جملة إنتاج العالم الإسلامي ، وتليها البانيا ، ثم إيران وباكستان ، ويبلغ إنتاج العالم الإسلامي من الكروم حوالي ١٩٪ من إنتاجه العالمي .

أما الحديد فموجود في ماليزيا ، وتركيا ، وإيران ، والمغرب ، الجزائر ، وباكستان ، ومصر ، وغينيا ، وموريتانيا ، وتونس .

وإنتاج العالم الإسلامي من القصدير (من ماليزيا ، وأندونيسيا ، وإيران، والمغرب العربي ، وتركيا ، ونيجيريا) فيبلغ أكثر من نصف الإنتاج العالمي .

وعلىٰ هذه الثروات المعدنية يقوم العديد من الصناعات المهمة التي تسهم في بناء ونمو اقتصاد البلاد الإسلامية ، وتساعد علىٰ رفع مستوىٰ دخل

الأفراد ، والنهوض بمستويات المعيشة ، خاصة وأن رؤوس االأموال متوفرة في العالم الإسلامي ، وبخاصة في البلدان المنتجة للبترول ، وكذلك تتوفر الأيدي العاملة وبخاصة في البلدان المكتظة بالسكان مثل أندونسيا ، وبنغلاديش ، وباكستان ، ومصر ، ونيجيريا وغيرها .

وأخيراً ومن خلال ما سبق يتضح لنا الأهمية الاستراتيجية للعالم الإسلامي ، والتي تفوق أهمية غيره من المناطق ، نتيجة لما يتمتع به من خصائص هي باختصار :

١ ـ موقعه في قلب العالم القديم (آسيا ، وأفريقيا ، وأوروبا) ، وتوسطه بين ذلك العالم والعالم الجديد (أمريكا الشمالية والجنوبية ، وأستراليا) .

٢ ـ إشرافه على البحار والمحيطات العالمية الهامة .

٣ ـ توافر مواد الوقود ، وكذلك الموانى البحرية والجوية ، وصفاء أجوائه معظم أيام السنة مما جعله مركزاً مهما للمواصلات العالمية .

٤ ـ توافر وتنوع محاصيله ومنتجاته الزراعية .

٥ ـ توافر المعادن المتنوعة والضرورية كمواد خام لكافة الصناعات الخفيفة والثقيلة ، أضف إلى ذلك ازدياد أهمية هذا العالم بشق قناة السويس التي سهلت اتصال الشرق بالغرب بحراً ، وقلصت المسافات إلى حد بعيد(٨) .

وعلى الرغم من هذه الأهمية فقد ظل العالم الإسلامي «عملاقاً مقيداً» كما قيل ، إذ لم يكتشف نفسه حتى الأن اكتشافاً تاماً ، ومن ثم ارتياد مكانه الطبيعي والطليعي في قيادة العالم ، ويوم يتمكن من ذلك فستزول تلك القيادة عن العالم الغربي ، ولذا فلا عجب في هذه المحاولات المتكررة

للعالم الغربي للوقوف أمام نهضة العالم الإسلامي ، والعمل دوماً على استمرار تخلفه وانحطاطه .

ثالثاً ـ أهمية العالم الإسلامي البشرية :

سكان العالم الإسلامي مجملهم ومعظمهم مسلمون يكونون أمة الإسلام ، أو الأمة الإسلامية ، وهي أمة فريدة من حيث ماهيتها ، ومن حيث مقوماتها ، وترابطها ووحدتها ، فوحدتها ثابتة ومظاهرها كثيرة ، ومتشابهة ، ومتشعبة لا مثيل لها ، وهي قائمة على أسس راسخة أهم مظاهرها :

١ ـ **وحدة العقيدة** : فالتوحيد ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هي أصل وحدة المسلمين على كافة اختلافاتهم العرقية ، واللغوية ، والسياسية وغيرها .

٢ ـ **وحدة العبادة** : فالهدف الأسمى بالنسبة للأمة الإسلامية هو عبادة الله الخالق القهار ، ووحدانية هذه العبادة تتجلى في الممارسة والسلوك ، فوحدة القبلة في الصلاة مظهر له وقعة في الأمة الإسلامية ، وكذلك صوم شهر معين في السنة ، وكذلك الحج في شهر معلوم ، ويوم معلوم ، بلباس واحد ومناسك واحدة ، ووقفتهم في عرفة في يوم واحد .

٣ ـ **وحدة التشريع** : وذلك إن مصدر التشريع في الإسلام هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ـ والشريعة هي قانون المسلمين الأوحد .

٤ ـ **وحدة السلوك في العادات والتقاليد** : وتتجلى في الأفراح والأتراح ، وفي آداب المسلمين في السلام ، وفي عونهم للمحتاج وإغاثتهم للمصابين من المسلمين وغيرهم في الكوارث والنوازل منطلقين من مبدأ «وتعاونوا على البر والتقوى» .

٥ ـ وحدة اللغة : فاللغة العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ هي لغة مشتركة بين جميع المسلمين ، فتعلمها واجب من أجل معرفة قواعد الإسلام ، وأداء عباداته .

٦ ـ وحدة التاريخ ووحدة الأمال والهدف : فتاريخ المسلم أياً كان موقعه هو تاريخ الأمة الإسلامية . . فالتاريخ الإسلامي إلى جانب وحدة التطلع أمران رابطان بين أفراد أمة الإسلام .

وفي ضوء ما سبق يعرف البعض الأمة الإسلامية بأنها :

«مجموعة من الناس يعيشون على رقعة جغرافية واحدة ، متشابهة التضاريس ، تجمع بينهم عوامل مشتركة مثل العرق والدين ، واللغة ، والتاريخ ، والثقافة ، والعادات والأخلاق والمصالح المشتركة والأماني السياسية الواحدة ، وبمعنى آخر فإنها وحدة اجتماعية متماسكة لديها الإنسجام والرغبة العامة في الحياة المشتركة»(٩) .

والواقع إن مثل هذا التعريف لا ينطبق تماماً على الأمة الإسلامية ، لكون تلك الأمة لا تعيش على رقعة جغرافية واحدة ، وليس العرق (الجنس) عاملاً مشتركاً ، لكون الإسلام لكل الأجناس ، وعليه يمكن تعريف الأمة الإسلامية ، والتي تعتبر أكثر شمولاً من مفهوم العالم الإسلامي بأنها : «قطاع كبير من البشرية آمن بالله رباً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، وأتبع ما أنزل عليه وما جاء به»(١٠) .

وهي أمة باقية ما بقي الإسلام ، فدعوته دعوة علمية لا تقتصر على أمة دون أمة ، أو بلاد معينة ، فالإسلام لكل الناس ، وهو يرعى مصالح أهله وغيرهم من أهل الذمة . . والمسلمون الذي يزيد عددهم عن المليار نسمة يعيشون على أرض العالم الإسلامي التي تصل مساحتها إلى ما يقرب من ربع مساحة العالم ، ويضاف إلى أولئك المسلمين ما يقرب من ربع عددهم يعيشون كأقليات مسلمة في وسط مجتمعات أخرى .

هوامش الفصل الأول

(١) محمود شاكر ـ سكان العالم الإسلامي ـ ص٩ .

داود علي الفاعوري ـ محاضرات في حاضر العالم الإسلامي ـ عمان (الأردن) سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م ص٥ .

(٢) مشهور حسن حمودة وآخرون ـ موسوعة العالم الإسلامي ، عمان سنة ١٩٩٣م ـ ص٤٤٢ ـ ٤٤٤ .

(٣) إسماعيل العربي ـ حاضر الدول الإسلامية في قارة أفريقيا ـ الجزائر سنة ١٩٨٤م ص٦ ـ ١٠ .

(٤) داود الفاعوري ـ محاضرات في حاضر العالم الإسلامي ـ ص٦ ـ ٨ .

(٥) علي جريشة ـ حاضر العالم الإسلامي ـ القاهرة سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ص١٦ ـ ١٧ .

(٦) لتفاصيل أكثر ـ أنظر ـ جميل عبد الله المصري ـ حاضر العالم الإسلامي ، وقضاياه المعاصرة ، ج١ ـ الطبعة الثامنة ـ المدينة المنورة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م ـ ص٢٩ وما بعدها .

(٧) أنظر : محمد عوض الهزايمة : حاضر العالم الإسلامي وقضاياه السياسية المعاصرة ـ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م ـ هامش (١) في ص٧١ ـ ٧٢ .

(٨) المرجع السابق ـ ٧٢ ـ ٧٤ ـ أيضاً ـ جميل عبد الله المصري ـ حاضر العالم الإسلامي ، ج١ ـ ص٣٣ ـ ٣٧ .

(٩) محمد عوض الهزايمة : حاضر العالم الإسلامي ـ ص٧٧ ـ ٧٨ .

(١٠) نفس المرجع ص٧٨ .

الفصل الثاني
ضعف العالم الإسلامي

واجه الإسلام التحديات من أول ظهوره ، وتعرض لكثير منها ـ داخلية وخارجية ـ أثناء مسيرته ، ولكنه بقىٰ واستمر وانتشر ، وظل ينتشر حتىٰ يومنا هذا ، فالإسلام اليوم جبهة عريضة زاحفة ، وما استطاعت الأزمات والمصاعب أن تقضي عليه ، وإنما تغلب عليها كلها رغم ما أصابه وأصاب أهله من جراح ، واستمر الحال كذلك إلىٰ أن دخل الوهن والزيغ إلىٰ قلوب المسلمين ، فتغيرت أحوالهم وأصابهم الضعف ، وانتقل الإسلام وأهله من موقع القيادة والريادة إلىٰ موضع التبعية والهوان والتخلف ، وكان وراء ذلك كله عوامل داخلية وخارجية ، أثرت علىٰ نقل العالم الإسلامي من ماضيه التليد إلىٰ حاضره الأليم .

عوامل ضعف العالم الإسلامي :

هناك خلاف وجدل بين المفكرين المسلمين ، والمهتمين بأمر الأمة الإسلامية ، حول تحديد الأسباب التي أدت إلىٰ تأخر المسلمين وضعفهم ، فقد رد أصحاب الدعوات والحركات الإصلاحية السلفية سبب تخلف المسلمين إلىٰ ابتعادهم عن تعاليم دينهم الصحيحة ، وشيوع البدع والضلالات بينهم ، ثم إلىٰ تشتتهم إلىٰ فرق تصارع وتنازع بعضها بعضاً ، فتبددت طاقاتهم المادية والفكرية ، وتمكن منهم عدوهم . . . ويرىٰ أصحاب هذا الرأي أن الرجوع بالإسلام إلىٰ ماضيه التليد لن يكون إلا بالرجوع إلىٰ صفاء الإسلام الأول ، وذلك لن يكون إلا بتنقية الدين من البدع والشوائب التي ألمت به ، وباعدت بين المسلمين وبين جوهر الدين الصحيح .

أما من أصحاب الاتجاهات الحديثة في التجديد الإسلامي ، فقد أشار جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده أن سبب تخلف المسلمين يرجع

إلى عزوفهم عن الأخذ بالمفيد من أساليب الحضارة الغربية ، وبالذات بالجانب التقني منها مع النهي والبعد في نفس الوقت عن التقليد الأعمى للغرب وحضارته ، خاصة في جوانبها الفكرية والثقافية .

أما الرأي الآخر الذي لا يمثل وجهة النظر الإسلامية الصحيحة فهو ماقال به بعض العلمانيين ممن يزعمون أنهم مسلمون[1] ، ونصارى العرب أن سبب تأخر المسلمين راجع إلى التعصب الديني ، وإلى عدم مواكبة الإسلام لروح العصر ، وغير ذلك من الترهات والأباطيل التي لا يرضاها مسلم غيور على دينه .

أما الأمير شكيب أرسلان ، الذي يمثل رأي الحادبين على مصلحة الإسلام والمسلمين فيُرجع تخلف المسلمين إلى أسباب عدة ، مثل الجهل والعلم الناقص ، وعدم الفهم الصحيح لمبادئ الإسلام ، والتخلق بأخلاقه السمحة ، ثم كذلك ضياع الإسلام بين الجامدين من علمائه ، والجاحدين عليه . . . وهناك آخرون يعددون أسباباً أخرى بعضها سياسي ، مثل الانقسام السياسي لدولة الإسلام ، وبعضها أخلاقي تربوي ، مثل غياب حرية الفكر ، وتعميم المعرفة .

وكل هذه العوامل التي عددها أولئك الباحثون هي في الواقع عوامل داخلية ، ولعل معظمها ينحصر في ضعف التمسك بالعقيدة الإسلامية ، الأمر الذي أفقد المسلمين أهم عناصر وحدتهم وريادتهم ، وجعلهم يجهلون ثوابت عقيدتهم الإسلامية ، التي بها ساد المسلمون الأولون ، فتخلى بعض المسلمون اليوم عن الحكم بما أنزل الله ، وطبقوا الشرائع المدنية الوضعية بدلاً عن شرعهم الإسلامي ، فساد الاضطراب ، وفسدت الحياة ، كما تخلى بعض المسلمون عن مبدأ الجهاد وعطلوه ، فوقعت المجتمعات الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها تحت سيطرة أعداء الإسلام ، الذين

(١) الإسلام والعلمانية لا يجتمعان ، فصفة الإسلام تنتفي عن العلمانيين .

عملوا على زيادة تشتت المسلمين وبث الأفكار الباطلة والهدامة بينهم ، فتصدع البنيان الإسلامي ، وتفرق المسلمون طوائف ونحلاً متفرقة متنافرة متحاربة ، وحل الشتات محل الوحدة وأصبح المسلمون كماً لا قيمة له ، وغثاءً مثل غثاء السيل .

ويمكن حصر عوامل ضعف العالم الإسلامي فيما يلي :

١ ـ الغزو المغولي (التتري) ، وما أدىٰ إليه من تفكك الدولة الإسلامية ، خاصة وأن تلك الدولة كانت قد شهدت انقساماً سياسياً حاداً ، فقد شهد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ظهور ثلاثة خلفاء في العالم الإسلامي : الخليفة العباسي في بغداد ، والخليفة الفاطمي في مصر ، والخليفة الأموي في الأندلس ، فكان أن تصدعت الوحدة الإسلامية ، فضعف العالم الإسلامي في مواجهة أعدائه ، ومن أولئك المغول والصليبيين . . وكانت أحوال الخلافة العباسية من الضعف بمكان بحيث استطاع هولاكو بتشجيع من النصارىٰ والشيعة الوصول إلىٰ بغداد عاصمة دار الإسلام ، فأحدث فيها الخراب والدمار ، منهياً بذلك الخلافة العباسية في بغداد ، ثم تقدم نحو الشام ، فأحدث فيها ما فعله في العراق ، فسقطت له دمشق في عام ٦٥٧هـ ، واشتركت معه فرق نصرانية أرمنية ، وأفرنجية حباً في التشفي والانتقام من المسلمين ، فنظموا مواكب عامة ، وحملوا الصلبان ، وأخذوا يذمون الإسلام وأهله ، وأجبروا المسلمين علىٰ أن يقفوا احتراماً لمواكبهم ، وبلغ بهم الحد أن شربوا الخمر في رمضان ، ورشوه علىٰ ثياب المسلمين في الطرقات[١] وهكذا ذُل الإسلام وأهله علىٰ أيدي المغول وحلفائهم النصارىٰ حتىٰ قيض الله للمسلمين المماليك في مصر الذين استطاعوا الوقوف أمام هذا الخطر ، وردوا المغول علىٰ أعقابهم ، فهزموا جحافلهم في معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م ، بعد أن كان المغول قد أسهموا في ضعف العالم الإسلامي وفي إنهاكه .

٢ ـ موقف اليهود من الأسلام ، فهناك عوامل تعود في أصلها إلىٰ اليهود وموقفهم العدائي من الإسلام منذ ظهوره وحتىٰ يومنا هذا ، وعدائهم للإسلام ونبيه ﷺ في المدينة ، بل في الجزيرة العربية كلها ، أمر تزخر به كتب السيرة والتاريخ ، فهناك مؤامراتهم ضد الرسول ﷺ ، ومحاولاتهم وقف الدعوة الإسلامية ، ببث الفرقة والخلاف بين المسلمين من جهة ، وبينه وبين أهل المدينة من جهة أخرىٰ ، ثم نقضهم للعهود المبرمة معهم ، والصد عن الإسلام بشتىٰ الوسائل . . بل إن عداءهم للإسلام وأهله استمر حتىٰ عصرنا هذا ، وتمثل في موقفهم ودورهم في إسقاط الخلافة العثمانية (كما يرىٰ البعض)[٢] ، وكذلك في الحركة الصهيونية ، وما قامت به من استلاب لأراضي فلسطين ، وتشريد أهلها ، ثم ما تقوم به من اعتداءات علىٰ الدول العربية والإسلامية المجاورة، وعلىٰ الحركات الإسلامية في تلك البلاد .

٣ ـ الحركة الصهيونية ، وتشكل هذه الحركة التي تهدف إلىٰ تجميع يهود العالم في كيان صهيوني في فلسطين استناداً علىٰ مزاعم دينية وتاريخية باطلة ـ وعلي استلاب الأراضي العربية لإقامة دولتها الكبرىٰ التي تمتد من الفرات إلىٰ النيل ـ تشكل تحدياً رئيسياً للإسلام والمسلمين ، لا يقل عن التحدي الصليبي الذي واجهه المسلمون ، ولا يزالوا يواجهونه حتىٰ اليوم .

ويتمثل الخطر الصهيوني في ارتباط الصهيونية بالإستعمار . وتعاونها معهم بغرض تمزيق وحدة العرب والمسلمين ، والحيلولة دون وحدة العالم الإسلامي بالفصل بين قارتي آسيا وأفريقيا . . وكذلك محاولة إتمام الغزو الثقافي للعالم الإسلامي بتدمير كل قيمه وأنظمته وأخلاقه ، وإحلال أسلوب الإلحاد والإباحية والتسلط ، ثم بثها للفكر الماسوني المرتبط بها ، وذلك في محاولة لتدمير الدين وتنفيذ ما جاء في التوراة المحرفة من إقامة مملكة إسرائيل الكبرىٰ ، وفرض الهيمنة اليهودية ، والماسونية من أشد الأخطار التي يواجهها العالم الإسلامي اليوم ، إذ إنها تعمل في الخفاء ،

وتبث سمومها بين أبناء المسلمين بأساليب ماكرة ملتوية قد لا يدركها الكثير من شباب المسلمين المثقف .

٤ ـ الحروب الصليبية ، وهي إحدىٰ مظاهر عداء الغرب الصليبي للإسلام وأهله ، ولعلها التحدي الأكبر والذي واجهه العالم الإسلامي في القرون الوسطىٰ ، والذي استغل ظروف الانقسام التي كان يمر بها ، فحاولت زرع كيان صليبي غريب في قلب ذلك العالم ، فكانت أول تجربة للاستعمار الغربي الحديث في الأراضي الإسلامية المقدسة ، فانتزعت بعض أراضيه وأقامت فيه ممالكها وإماراتها الصليبية ، وأدخلت ذلك الجزء من عالم الإسلام في دوامة حروب وصراع استنفذ جهوده ، وموارده الاقتصادية والبشرية ، مما أدىٰ إلىٰ الانهيار الذي تعرض له في أواخر القرون الوسطىٰ .

وكانت الحروب الصليبية (سنة ١٠٩٩م ـ سنة ١٢٥٤م) في حقيقتها وسيلة لاستعمار الشرق الإسلامي والقضاء علىٰ الإسلام تحت شعار الدين ، وقد سبقها تمزق الوجود الإسلامي في الأندلس ، وتفرق حكامه ، ورجحان كافة الحكام النصاري عليهم ، وبدأت حرب الإسلام وأهله في حروب صليبية لا تقل شراسة عن الحملات الصليبية التي ستتوجه إلىٰ الأراضي المقدسة في فلسطين ، وبدأت عملية تفتيت المسلمين مادياً ومعنوياً بصورة بطيئة ، مع تجريدهم بصورة مستمرة من مصادر قوتهم . . وتم عزل الأندلس عن قاعدته في المغرب الإسلامي ، ولكنه وبالرغم من ذلك بقي يقاوم علىٰ مدىٰ قرون عديدة ، إلىٰ أن سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م بيد فرديناند وإيزابيلا ، فاغتصبت أرض الأندلس الإسلامية وأزيل الوجود الإسلامي منها تماماً وبشتىٰ السبل ، وقد عانىٰ المسلمون فيها معاناة قاسية . . كما عانىٰ إخوانهم في المشرق عندما تدفقت

عليه جموع الصليبيين ، فاستولوا على عاصمة الأتراك السلاجقة المسلمين في نيقية سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م وكونوا في بلاد الشام ، وآسيا الصغرى ، إمارة الرها ، إمارة إنطاكية وإمارة طرابلس ، ومملكة بيت المقدس اللاتينية عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م ، وضرب الصليبيون آنذاك مثالاً للحقد على الإسلام والمسلمين ، فاتسم الغزو بروح التعصب ، والانتقام ، فقد سفكوا دماء المسلمين في الرها ، وأنطاكية ، وطرابلس ، وبيت المقدس ، ومن ذلك سفك دماء حوالي سبعين ألف مسلم أو يزيد في ساحة المسجد الأقصى من العلماء ، والطلاب والعباد ، والزهاد ، وما أقرب البارحة باليوم ، وعملوا مثل ذلك في مدن المسلمين التي اجتاحوها ، ففي «المعرة» قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع ، فأهلكوا ما يزيد عن مائة ألف إنسان في أكثر الروايات(٣) .

وهكذا استطاعت الحروب الصليبية التي استمرت قرنين في المشرق ، استنزاف جميع القوى البشرية ، والمادية في منطقة الشام ومصر ، فضعفت أوضاع المسلمين الاقتصادية ، وتناقصت الثروة ، بالإضافة إلى الخراب والدمار الذي حل بالمسلمين وبخاصة في الشام ، ومصر ، وآسيا الصغرى ، وتونس ، والأندلس ، كما أن تلك الحروب كانت مقدمةً للاستعمار الأوربي الحديث ، ولكل ما نتج عن ذلك الاستعمار من آثار سلبية في كل أنحاء العالم الإسلامي ثقافياً ، وسياسياً ، واقتصادياً ، واجتماعياً .

٥ ـ الاستعمار الأوروبي ، فقد بدأت حركة التوسع الأوروبي أول ما بدأت كنتيجة لحركة الكشوف الجغرافية التي بدأت في القرن الخامس عشر الميلادي ، والتي كانت ترمي إلى تطويق العالم الإسلامي اقتصادياً وعسكرياً بهدف إضعافه والسيطرة عليه ، وذلك عن طريق محاولة اكتشاف طريق تجاري جديد ، تستطيع به أوروبا السيطرة على تجارة الشرق التي كان

المسلمون هم القائمون بأمرها ، وتحويل تلك التجارة ـ عن هذا الطريق الجديد ـ إلى أيدي البرتغاليين وغيرهم من الأوروبيين حرماناً للتجار المسلمين منها ، وللدول الإسلامية المستفيدة ـ كمصر مثلاً ـ من ريعها وفوائدها الاقتصادية ، بل إننا نذهب أبعد من ذلك ، فنقول إن الروح الصليبية الرامية إلى ضرب المسلمين ضربة أخيرة ، والقضاء على الإسلام قضاءً مبرماً كانت بادية وواضحة في حركة الكشوف الجغرافية ، فقد كان قادة البرتغال مدفوعين بتلك الروح الصليبية ، حيث إنهم اعتبروا أنفسهم مكلفين بالثأر للحملات الصليبية الفاشلة ، فكان هدفهم مزدوجاً : انتزاع تجارة التوابل والبهارات من أيدي المسلمين ، وتطويق العالم الإسلامي استراتيجياً واقتصادياً كخطوة أولى نحو إضعافه ، وإحلال النصرانية محل الإسلام فيه ، وقد تمكنوا بالفعل من تحويل طريق التجارة عن بلاد الشام والبحر الأبيض المتوسط ، إلى المحيطات الكبرى : الأطلسي والهندي والهادي ، فأدى ذلك إلى إضعاف تجارة المسلمين ، وصناعتهم ، وزراعتهم ، وأخيراً إلى ضعفهم الاقتصادي والعسكري والسياسي ، الأمر الذي مهد إلى فرض الهيمنة الأوروبية عليهم ، والتي أدت في نهاية الأمر إلى مرحلة الاستعمار الأوروبي الحديث على معظم بلدان العالم الإسلامي .

وقد اتخذ هذا الاستعمار الحديث أشكالاً عدة ، منها الاحتلال العسكري ، والهيمنة الاقتصادية عن طريق الشركات ، والقروض والاحتكار . . إلخ ، واتخذ كذلك شكل الحماية ، والانتداب والوصاية ، ولعل أهم أنواع هذا الاستعمار الحديث والمعاصر وأدومها ، وأكثرها خطراً فهو الاستعمار الفكري الذي لا يزال العالم الإسلامي يعاني من ويلاته .

وقد تنافست الدول الأوروبية في استعمار العالم الإسلامي ، فمثلاً استعمرت بريطانيا ماليزيا ، وشبه القارة الهندية ، وسواحل الخليج العربي ،

وجنوب الجزيرة العربية ، ومصر ، والسودان ، ثم العراق ، وشرقي الأردن وفلسطين ، وبعض البلدان الأفريقية التي تضم أكثريات إسلامية مثل نيجيريا، وتنزانيا ، ودول أخرىٰ مثل غانا ، وأوغندة . . إلخ ، واستعمرت فرنسا العديد من بلدان العالم الإسلامي مثل المغرب ، والجزائر ، وتونس ، ثم سوريا ولبنان ، وموريتانيا وتشاد ، ومالي ، والسنغال ، وغيرها ، واستعمرت إيطاليا ليبيا ، وجزءاً من الصومال وأرتيريا . . واستعمرت أسبانيا الريف المراكشي ، والصحراء المغربية ، وإقليم مورو الإسلامي في الفلبين ، وأما هولنده فاستعمرت إندونيسيا وسيطرت روسيا علىٰ تركستان الغربية ، والأراضي الإسلامية في آرال ، وشبه جزيرة القرم ، وبلاد القفقاس (القوقاز) ، وامتد نفوذها حتىٰ شمالي إيران ، وهكذا وقعت معظم بلاد العالم الإسلامي تحت سيطرة الاستعمار الأوروبي الإمبريالي العسكرية والسياسية ، والاقتصادية ، والثقافية ، وكان لهذه السيطرة نتائج مدمرة أثرها باقٍ معنا حتىٰ الآن ، كما أن لها دوراً أساسياً وفاعلاً في إضعاف الإسلام والمسلمين .

٦ ـ حركتي الاستشراق والتنصير ، وما تقومان به من هدم فكري ثقافي في أوساط المسلمين ، بهدف طمس هويتهم ، وإحداث أزمة ثقة بالنفس في أوساطهم . (وسيأتي الحديث لاحقاً عن كلا الحركتين) .

٧ ـ دعوات الإلحاد الآتية من خارج العالم الإسلامي ، كالشيوعية مثلاً، والمنتشرة بين أبناء المسلمين في بلدان إسلامية متعددة ، وكذلك الدعوات الهدامة والخارجة عن الدين، والتي تبث سمومها بين أفراد الأمة الإسلامية ، كالقاديانية ، والبهائية وغيرهما ، وكلها ترمي إلىٰ هدم العقيدة الإسلامية ، ومن ثم إلىٰ فك عرىٰ وحدة المسلمين ، بغرض إضعافهم ، وتمهيد السبيل لسيطرة المستعمرين عليهم .

نتائج ضعف العالم الإسلامي :

لقد تكالبت كل هذه العوامل على تنوعها في إضعاف العالم الإسلامي، واتخذ هذا الضعف عدة مظاهر ، منها :

أولاً ـ الابتعاد عن تطبيق الشريعة الإسلامية :

بضعف العالم الإسلامي تخلى المسلمون عن دورهم الريادي في قيادة البشرية ، وتخلوا عن واجباتهم وتبعاتهم الإسلامية ، وقعدوا عن إعمال العقل ، ففترت فيهم روح الاجتهاد ، وركنوا إلى التبعية والتقليد ، وانقطعت صلتهم بماضيهم وإرثهم الإسلامي ، وشملهم الجمود ، وقلت فيه روح التجديد والإبداع ، وانطووا على ذواتهم في مواجهة التحديات ، وأصبح الماضي إرثاً في بطون الكتب القديمة ، يحنون إليه ، ولا يتعلمونه ليجدوا فيه الرغبة في العمل والإبداع ، بل دار علماؤهم حول ذلك الماضي، وعكفوا على نصوص الماضين ، وعلى كتبهم يعجبون بها ، ولا يتعلمون منها ، ويقفون عاجزين أمامها ، ينزلونها أحياناً منزلة العصمة والقداسة ، فماتت في الأمة روح الإبداع والابتكار ، ومواكبة العصر ، ومواجهة تحدياته .

وعندما بدأ العالم الإسلامي يفيق من غفوته ، وينفض عنه غبار الجمود منذ أواخر القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ، نتيجة للحركات السلفية الإصلاحية ، كحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد ، والحركة السنوسية في ليبيا ، والحركة المهدية في السودان ، والحركات السلفية في الهند ، وحركة عثمان دان فوديو في غرب أفريقيا ـ في ذلك الوقت كان الاستعمار الغربي قد بدأ يمد سيطرته على عالم الإسلام ، مستعيناً بحركات التنصير ، فاشتد التحدي ، ولم تتمكن تلك الحركات

الإسلامية الإصلاحية من لم شعث المسلمين ، وبث الحياة من جديد في أوساطهم ، وإعادة الثقة إلىٰ نفوسهم ، وكان نجاحها محدوداً وفي مناطق محدودة .

وقد بدأ الاستعمار حربه ضد الإسلام والمسلمين بإبعادهم عن تراثهم الفكري الإسلامي ، فبدأ بالشريعة الإسلامية ، فأبعدها عن كافة مناحي الحياة الفعلية ، وأخذ يشوه معالمها فكرياً ليصرف المسلمين عنها ، وقد عمل فعلاً علىٰ إلغائها تدريجياً ، واستبدالها بالقوانين الوضعية ، باستثناء قانون الأحوال الشخصية ، فعل ذلك في الهند عندما تمت له السيطرة علىٰ تلك البلاد ، وألغاها في السودان حينما قضىٰ علىٰ الثورة المهدية في عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م ، وكذلك فعلوا في كل مستعمراتهم الإسلامية ـ الآسيوية منها والأفريقية ـ ، ولم يقف الحال عند هذا الحد بل امتد تآمر الاستعمار الغربي إلىٰ طمس معالم الحكم الإسلامي في الدولة العثمانية ، فتغولوا علىٰ الأحكام الشرعية فيها بدعوىٰ إصلاح القوانين العثمانية ، وإصلاح أمر الدولة ذاتها ، وامتدت حركة استبدال الشريعة الإسلامية بقوانين وضعية أخرىٰ إلىٰ مصر ، وذلك منذ أن دخلها نابليون غازياً ومستعمراً في عام ١٧٩٨م ، واستمرت حركة التبديل والتحديث ـ كما أسموها ـ علىٰ عهد محمد علي وأبنائه ، واكتملت حلقات التآمر علىٰ الشريعة عندما احتل البريطانيون مصر عام ١٨٨٢م ، وكذلك كان حال بلاد الشمال الأفريقي تحت حكم الاستعمار الفرنسي ، ففي تونس طبق القانون الوضعي المقتبس من القوانين الفرنسية عام ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م ، ولم يكن الحال في المغرب والجزائر بأسعد منه في تونس ، حيث بدأت فرنسا في تعطيل أحكام الشريعة في كلا البلدين ، وإحلال الأعراف البربرية ، والقبلية محل القوانين الشرعية الإسلامية ، كوسيلة للقضاء علىٰ الكيان المغربي ، والهوية الإسلامية في المغرب والجزائر ، وربما أخرج القبائل

البربرية من الإسلام ، لأن الفرنسيين كانوا موقنين أن التخلي عن التحاكم لغير الشريعة الإسلامية هو في الواقع تخلٍ نهائي عن الإسلام .

وهكذا أبطل العمل بالشريعة الإسلامية في معظم البلاد الإسلامية التي وقعت فريسة للهيمنة الاستعمارية ، وزج العمل بها في زاوية ضيقة هي زاوية الأحوال الشخصية ، والتي يحاول العلمانيون والمتغربون من أبناء الأمة الإسلامية إبطال العمل بها ، وقد نجحوا في ذلك في بعض البلدان الإسلامية .

ثانياً ـ إلغاء الخلافة العثمانية وانحلال الوحدة الإسلامية :

الدولة العثمانية هي آخر دول الإسلام الكبرىٰ التي عرفها العالم في عصوره المتأخرة ، امتدت علىٰ ثلاث قارات : آسيا ، وأوروبا ، وأفريقيا ، وحمت الإسلام في وقت كان فيه الصليبيون البرتغاليون يهددونه من جهة الجنوب الشرقي ، والروس من جهة الشمال ، كما أن الدولة العثمانية حملت راية الإسلامي إلىٰ منطقة البلقان ، وأزالت الدولة البيزنطية من الوجود حين فتحت عاصمتها القسطنطينية في عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م والتي استعصت علي المسلمين ما يربو علىٰ الثمانية قرون ، وهكذا جُعلت القسطنطينية عاصمةً لدار الإسلام ، وحمل سلاطينها العظام الإسلام حتىٰ أبواب فينا عاصمة إمبراطورية الهابسبرج آنذاك ، وحملوه أيضاً إلىٰ جنوب روسيا ، وساحل بحر الأدرياتيك ، وبجهودهم عم الإسلام ما يعرف اليوم بدول أوروبا الشرقية ، بل إنهم هددوا أوروبا الغربية ذاتها حينما حاصروا فينا مرتين ، وفينا كانت هي بوابة أوروبا الغربية من ناحية الشرق ، ولو سقطت لهم لانفتح الباب أمام الإسلام ، فعم معظم أجزاء أوروبا الغربية وربما وصل حتىٰ أصقاع اسكتلندا الشمالية كما توقع أحد المستشرقين .

ظلت الدولة العثمانية هي القوة الحارسة للعالم الإسلامي لفترة أربعة قرون كاملة ، فقد حفظت للشمال الأفريقي إسلامه عندما وقفت ضد أطماع الصليبيين الأسبان ، الذين حاولوا استعماره بعد أن قضوا على الدولة الإسلامية في الأندلس . . كما أن السلاطين العثمانيين جعلوا من البحر الأحمر بحراً إسلامياً ، وحرموا على السفن النصرانية الملاحة فيه ، وذلك لإطلالته على الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز ، كما أنهم حاولوا ـ مع الدولة المملوكية ـ صد الخطر البرتغالي عن ذلك البحر ، عندما بدأ البرتغاليون يبسطون نفوذهم على بعض سواحله ، في محاولاتهم الهيمنة على تجارة الشرق (تجارة التوابل إلخ) التي كانت في أيدي التجار المسلمين ، ولقد كان لجهود الدولة العثمانية تلك وغيرها من الجهود الفضل الأكبر في حفظ قلب العالم الإسلامي من الزحف الاستعماري الصليبي الأوروبي لمدة ثلاثة قرون ، ظلت خلالها دعوة الإسلام تواصل انتشارها في أنحاء العالم وبخاصة في جنوبي آسياً ، وجزر الهند الشرقية ، والشرق الأقصى . . . ويجب أن لا ننسى هنا مواقف وجهود السلطان عبد الحميد الثاني ـ ذلك السلطان العظيم المفترى عليه ـ من المطامع الصهيونية في فلسطين ، ورفضه السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين رغماً عن إغرائاتهم المالية له في وقت كانت الدولة العثمانية تعاني من ضائقة اقتصادية خانقة .

ومهما قيل عن الدولة العثمانية من جانب بعض الكتاب القوميين ـ العرب ، والعلمانيين ، السائرين في ركاب المفاهيم الغربية ، من أنها دولة استعمارية أخضعت الشعوب بالقسر والقوة ، وكبتت الحريات إلى غير ذلك من المساوئ التي يعددها أولئك المنساقون وراء كتاب الغرب ، إلا أن الثابت تاريخياً الآن هو أن تلك الدولة العثمانية ذادت عن حمى الإسلام وأسست خدمات جليلة له وللمسلمين على امتداد تاريخها ، وتكفي الإشارة إلى أنه في كنفها تحقق لجزء كبير من العالم الإسلامي وحدة إسلامية لم يشهدها في

عصوره الحديثة ، فقد ظلت المنطقة من العراق شرقاً إلىٰ مراكش غرباً تنعم بالوحدة ، والهدوء والاستقرار ، وظل المسلمون أعزاء في ديارهم تلك ، وظلت الخلافة العثمانية قوة يهابها أعداء الإسلام ، ويحسبون لها ألف حساب ، ولقد حاولت أوروبا إيقاف الخطر العثماني ، ووضع حد للفتوحات العثمانية ، بعقد تحالفات بين بعض دولها ، بل ومحاربة العثمانيين مرات عديدة ، إذ كانت أوروبا تخشىٰ أن تتكرر أحداث التاريخ فيعود للمسلمين مجدهم وعزهم في ظل الخلافة العثمانية التي تجسدت فيها وحدتهم ، فظلت تعمل من أجل القضاء علىٰ الخلافة بسبلٍ دبلوماسية أحياناً ، وحربية أحياناً أخرىٰ .

وقد أدىٰ هذا الصراع المستمر بين الدولة العثمانية وأعدائها الأوروبيين ـ إلىٰ جانب عوامل اقتصادية وسياسية داخلية وخارجية ـ إلىٰ ضعفها ، وبداية تدهورها ، الأمر الذي أدىٰ إلىٰ ظهور ما عرف «بالمسألة الشرقية» ، والتي كانت تعني ببساطة طرد العثمانيين من ولاياتهم الأوربية ، كخطوة أولىٰ في عملية تحجيم الخطر الإسلامي ، والقضاء قضاءً مبرماً علىٰ الخلافة العثمانية ، والتي ما فتئت دول أوروبا تتكالب عليها ، وتعمل علىٰ إضعافها حتىٰ جعلت منها ما أسميته في النهاية «برجل أوروبا المريض» والذي كانت تسعىٰ جاهدة إلىٰ قتله ، والاستيلاء علىٰ أراضيه كلها .

ويمكن القول بأن الفترة التي أعقبت خلع السلطان عبد الحميد وتولي الاتحاديين للحكم هي الفترة التي تمكن فيها الاستعمار ورجال الحكم العثماني (الاتحاديين) علىٰ العمل التدريجي لتصفية الدولة العثمانية ، فقام الاتحاديون باتباع سياسات قومية طورانية باعدت بينهم وبين عناصر الدولة من المسلمين ، من عرب وألبان وغيرهم ، وحلت عرىٰ الوحدة الإسلامية التي كانت تجمع شتىٰ رعايا الدولة ، كما أنهم قاموا بإضعاف الخليفة ، فجعلوه رمزاً أشبه بأسيرٍ في أيديهم ، وكذلك مكنوا للقوىٰ الأوروبية

الطامعة في دولتهم ، وانساقوا وراء مخططاتها الرامية إلى إزالة الخلافة العثمانية مصدر وحدة المسلمين وقوتهم ، ومصدر خوف أوروبا وقلقها .

وكان بداية التآمر على الخلافة يوم أن أعلنت الجمعية الوطنية التركية في عام ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م قيام الجمهورية في تركيا ، وانتخبت مصطفى كمال أول رئيس لها ، ففصلت بذلك بين السياسية وبين الخلافة ، وجعلتها رمزاً دينياً لا غير ، الأمر الذي مكن مصطفى كمال ـ بمساندة بعض القيادات التركية العلمانية ، وبعض الدول الأوربية ، وقوى الصهيونية من إلغاء الخلافة العثمانية نهائياً في ٢مارس ١٩٢٤م/ ١٣٤٢هـ ، مقدماً بذلك أعظم هدية للغرب الأوروبي النصراني ، وقد أثار ذلك الإلغاء موجة من الاستياء الشديد عمت العالم الإسلامي كله ، في الهند ، ومصر وغيرهما ، وقد جرت بعض المحاولات لإحياء الخلافة من جديد ، ولكن الأحوال لم تكن ملائمة لإحيائها .

والمعروف الآن أن مصطفى كمال عندما ألغى الخلافة كان ينفذ مخططاً غربياً مرسوماً له ، نصت عليه اتفاقية لوزان ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٣م التي فرضت على تركيا شروطاً للصلح معروفة بشروط لوزان الأربع وهي :

١ ـ قطع كل صلة لتركيا بالإسلام .

٢ ـ إلغاء الخلافة الإسلامية .

٣ ـ إخراج الخليفة العثماني من البلاد ، ومصادرة أملاكه ، وإخراج أنصار الخلافة من المسلمين المتحمسين لها ، والتعهد بإخماد كل حركة موالية للخلافة .

٤ ـ اتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم القائم على الشريعة الإسلامية .

وقد قبل مصطفىٰ كمال هذه الشروط ، ليس مجبراً وإنما عن اعتقاد تام منه ، ونفذ بنودها تنفيذاً حرفياً وبكل إخلاص ، فعمل من بعد إلغاء الخلافة علىٰ إبعاد تركيا ـ بإصلاحاته المزعومة ـ عن العالم الإسلامي ، وعن ماضيها الإسلامي ، بل إنه حارب الإسلام ذاته في تركيا ، وحارب المسلمين الحاديين علىٰ دينهم هناك ، فألغىٰ التعليم الديني ، وحارب وقتل رجاله ، وألغىٰ وزارة المحاكم الشرعية ، وغير المناهج التعليمية إلىٰ مناهج مناهضة للدين ، وباختصار قام بعمل كل ما يجعل تركيا بلداً علمانياً محضاً ، بعد أن كانت مقراً وكياناً للخلافة الإسلامية ، فكانت تلك إحدىٰ الضربات القاسية التي وجهت للإسلام ، والتي لا يزال العالم الإسلامي يعاني من آثارها ، وما يجري في تركيا الآن من أحداث خير شاهد علىٰ ما نقول .

وظلت حكومة مصطفىٰ كمال (غير اسمه لكمال أتاتورك) تنفذ مخططها الرامي إلىٰ محو الإسلام من تركيا كخطوة أولىٰ نحو إلحاقها بالغرب الأوربي ـ دولة تابعة له ، سائرة في ركابه ، ومن ذلك قمعه لكل حركة دينية حاولت الوقوف أمام مخططه العلماني ، أو حاولت إعادة الخلافة من جديد ، فقد فعل ذلك بوحشية بالغة في حركة الشيخ سعيد التي قامت في تركيا لتنادي بإعادة الخلافة ، وسقوط الجمهورية ـ ولقد تهيأ لحركة فرص النجاح حتىٰ أنها سيطرت علىٰ معظم الأراضي التركية ، وكادت العاصمة أنقرة ذاتها أن تسقط في يدها ، ولكن مصطفىٰ كمال حاربها حرباً لا هوادة فيها ، فأعلن أنها حركة كردية تهدف إلىٰ إقامة دولة كردية ، فجرد عليها الحملات طيلة عام ١٩٢٥م ، واستطاع بعد جهد القضاء عليها ، ولكن بعد مذابح رهيبة ، استشهد خلالها أكثر من نصف مليون مسلم سقطوا دفاعاً عن الخلافة العثمانية .

وتمادىٰ بعد ذلك مصطفىٰ كمال في حربه للإسلام ، فحدد عدد المساجد وعدد الوعاظ فيها ، وحتىٰ خطبة الجمعة حدد لها موضوعاتها ، كأن

تتعرض بالمدح والإطناب لسياسات الحكومة الزراعية والاقتصادية وغيرها ، ثم ألغىٰ الشريعة الإسلامية وأحل محلها القانون المدني الوضعي ، واستبدل التقويم الهجري بالتقويم الميلادي ، وحتىٰ العطلة الرسمية غيرها من يوم الجمعة إلىٰ يوم الأحد ، وتدخل في زي الناس ولباسهم ، فأمر بلبس القبعة تشبهاً بالأوربيين ، بدلاً عن زي الرأس العثماني ، ومضىٰ ليستبدل أحرف اللغة العثمانية العربية بالأحرف اللاتينية ، محاولاً في كل ذلك قطع صلة تركيا بماضيها ، وبتراثها الإسلامي ، إلىٰ الحد الذي ألغىٰ فيه الحجاب الإسلامي ، وأمر المرأة المسلمة التركية بالسفور ، وهكذا كانت بداية انقطاع تركيا عن عالمها الإسلامي ، واتجاهها نحو أوروبا ، ونحو علمانية مطلقة ، وهو أمر قائم نشهد أحداثه وتداعياته في يومنا هذا .

ولعل أخطر آثار ما جرىٰ في تركيا علىٰ عهد مصطفىٰ كمال «أتاتورك» أنها أتاحت الفرصة لدعاة حركة «التغريب» ، وحماة الثقافة الاستعمارية الغربية أن ينفذوا إلىٰ مواقع الصدارة في العديد من بلدان العالم الإسلامي ، مثل مصر ، وإيران ، وأفغانستان ، والهند الإسلامية ، وأن ينفتح باب «التغريب» ـ المسمىٰ بالتحديث ـ في كل تلك البلاد ، إلىٰ الحد الذي جعل إيران الشاه تعترف بدولة الكيان الصهيوني في عام ١٩٤٨م ، عام إعلانها ، كما أن الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي وجدت نفسها أمام تحديات التيار العلماني ، والذي وقف الاستعمار من خلفه يشد من أزره ، ومن أزر القائمين علىٰ أمره(٤) .

وبذلك بدأت الأمة الإسلامية دوراً جديداً من أدوار الجهاد ضد تلك التحديات ، والبحث عن الذات ، وأخذ العالم الإسلامي يشهد تغيرات فكرية ، واجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية هامة ، سنعرض لها في موضع لاحق .

أثر غيبة الخلافة :

كان لغياب الخلافة أثر بالغ في واقع الأمة السياسي ويمكن حصره فيما يلي :

أولاً : غياب دولة الإسلام الكبرىٰ .

ثانياً : غياب الدولة التي كانت تظلل المسلمين وتجمع شملهم ، وتدفع عنهم ، وتحمل دينهم إلىٰ أراضٍ جديدة .

ثالثاً : غياب الدولة التي كانت ترهب عدو الله وعدوهم ، إذ إن القوىٰ العالمية كانت تحسب لها ألف حساب ، حتىٰ بعد ضعفها وتدهورها .

رابعاً : غياب الدولة التي عرف اليهود وتأكدوا أنه لا سبيل لهم إلىٰ فلسطين إلا بتحطيمها ، وذلك واضح من تصريح أحد قادتهم حين قال : «إن الأفعىٰ اليهودية لابد أن تمر بالأستانة في طريقها إلىٰ فلسطين»(٥) .

أضف إلىٰ ذلك أنه ـ وكما أسلفنا ـ انفتح الباب أمام حركة «التغريب» ، وأمام إشاعة التقاليد والثقافة الغربية بغرض تحطيم الإسلام وقيمه ، والتمكين للاستعمار في شتىٰ صوره ، وبدأت الحركات الإسلامية الإصلاحية داخل العالم الإسلامي تتعرض لضغوط وتحديات جديدة لا قِبَل لها بمواجهتها ، كلها ترمي إلىٰ إضعافها ، والفت في عضدها ، ثم القضاء عليها كليةً ، ذلك أن الغرب الصليبي ما كان يسمح مرةً أخرىٰ بقيام دولة الإسلام ، بل كان يخطط دائماً وبكل السبل لمحاربة كل خطوة قد تؤدي إلىٰ ذلك ، سواء كانت تلك الخطوة في صورة دعوات إلىٰ تضامن إسلامي ، أو إلىٰ جامعة إسلامية ، أو حتىٰ إلىٰ دعوة تدعو إلىٰ تطبيق جدي للشريعة الإسلامية ، وقيام دولة إسلامية .

وبسقوط الخلافة واجه الغرب الصليبي الأمة الإسلامية بالتحدي الكبير ، فنشط الاستشراق ، والتنصير ، وبدأت المحاولات الجادة لإبعاد

المسلمين عن دينهم ، وعن قيمه ، وبدأت الحركات والدعوات الرامية إلى التشكيك في مقدرة ذلك الدين على التكيف مع ظروف الحياة العصرية ، وغيرها من الدعوات الباطلة والتي كانت تهدف أساساً إلى هز ثقة المسلمين في أنفسهم ، وفي دينهم ، وفي هويتهم الحضارية الإسلامية حتى تسهل السيطرة عليهم فكرياً ، وسياسياً ، واقتصادياً ، فيتمكن الاستعمار من الهيمنة على بلادهم ، واستلاب خيراتها ، وإبقائهم شتاتاً ـ ضعيفاً ممزقاً ـ لا حول ولا قوة لهم . . اقناناً ، وعبيداً له ، لا يجرؤون ـ حتى على التفكير ـ من الانفكاك من قبضته .

وبانهيار الخلافة والتي هي من أعظم واجبات الدين ، انحل أمر الجماعة الإسلامية ، وأصابتها الخطوب والمصائب ، فقد عاش المسلمون في ظل الخلافة ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، ورأوا فيها حامياً لعقيدتهم ، ورمزاً لوحدتهم ، وظل الخليفة في نظر المسلمين قائماً برعاية شئونهم ، ومسئولاً عن الدفاع عن ثغورهم ، وحامياً لأحكام الدين ، ومنفذاً لشرائعه ، ولذلك جاء إلغاء الخلافة العثمانية حدثاً زلزل القلوب ، وهز وجدان المسلمين ، وكان له آثار مفجعة في حياة المسلمين ، منها غياب الدولة التي حمتهم وربطت برباط الإسلام بين الترك والعرب ، ليقفوا في وجه أوروبا الصليبية المتطلعة إلى استعمار بلادهم ، وفي وجه مطامع الصهيونية التي كانت تخطط لاحتلال الأرض المقدسة فلسطين .

ومن آثار سقوط الخلافة العثمانية ـ كما أسلفنا ـ إلحاق تركيا رسمياً بدول المعسكر الأوروبي الغربي ، وقطع كل صلة لها بماضيها التاريخي ، وبعالمها الإسلامي .

ومنها قيام دويلات مدنية جديدة ذات دساتير وضعية وعلمانية في شتى أنحاء العالم الإسلامي ، تقوم على أساس قومي ، وتسعى إلى تنظيم روابطها مع جاراتها على أساس قومي متخلية تماماً عن رابطها الإسلامي .

ومنها تسلط المستعمرين المتربصين على ما تبقى من أملاك الخلافة العثمانية ، واقتسامها فيما بينهم ، فاحتل الفرنسيون سوريا ولبنان ، كما احتل البريطانيون العراق وفلسطين والأردن ، هذا في عالم العرب ، ناهيك عن السيطرة الاستعمارية على أجزاء واسعة أخرى من عالم الإسلام(٦) .

ولعل المأساة الكبرى التي عانى منها العالم الإسلامي ، ولا يزال يعاني منها حتى الآن ـ وكانت ثمرةً مرةً لسقوط الخلافة العثمانية هي مأساة فلسطين والتي لم تستطع الصهيونية العالمية استلابها إلا بعد التآمر على السلطان العثماني ، والعمل على إسقاط الخلافة ، والخلاص من الرابطة الإسلامية ، فانفك عقد الأمة الإسلامية ، ووقعت فريسة للغزو الاستعماري السياسي والعسكري والاقتصادي والفكري ، والذي كان يخشى اتحاد المسلمين من جديد ، تحت راية الخلافة ، أو رايات التضامن الإسلامي ، أو رايات الصحوة الإسلامية التي كانت تنادي بإعادة الإسلام من جديد في حياة الأمة الإسلامية ، ومن ثم عمد الاستعمار على إبقاء المسلمين وحدات متفككة متنازعة ، لا يجمعها رابط ، ولا تجمعها هوية إسلامية مشتركة .

ولولا هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ، لما تحقق للدول الأوربية المتحالفة «دول الحلفاء» ، مآربها في تقسيمها الأملاك العثمانية في أوروبا وآسيا فيما بينها ، تم فرض هيمنتها الاستعمارية عليها ، ومن بعد ذلك استعمار بلاد أخرى من بلدان العالم الإسلامي ، وكان ذلك الاستعمار هو الطاقة الكبرى التي نزلت ببلاد المسلمين ، فقد كان همه الأول هو حرب الإسلام وأهله ، في دينهم ، وفكرهم ، وهويتهم ، بغرض القضاء على الإسلام قضاءً تاماً ، فهو في نظر المستعمرين العدو الأول الذي لو عاد من جديد ، فاستعاد قوته وحيويته ، فلن تقوم للاستعمار قائمة ، ولم يكن

غريباً أن يعمل الاستعمار على إقصائه عن الساحة إقصاءً تاماً ، وأن يجتهد في إضعاف المسلمين بشتى الوسائل ـ فيبث بينهم الأفكار الهدامة ، والدعوات التي تدعي الإسلام وهي في الواقع تعمل على هدمه من الداخل ، وينشر بينهم فكره العلماني ، فيحاول أنصاره وأعوانه من المستشرقين والمنصرين والمتغربين ـ التشكيك في الإسلام وفكره ، في محاولةٍ لإضعاف العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين ، فتهتز ثقتهم في دينهم ، وفي ذاتيتهم . . فيسقطون فريسة وغنيمة سهلة للسيطرة الاستعمارية .

هوامش الفصل الثاني

(١) جميل عبد الله المصري ـ حاضر العالم الإسلامي ـ ص ٦٠ ـ ٦٢ .

(٢) داود علي الفاضل الفاعوري ـ محاضرات في حاضر العالم الإسلامي ـ ص ٦٩ .

(٣) جميل عبد الله المصري ـ نفس المرجع ـ ص ٦٥ .

(٤) نفس المرجع ـ ص ١٢٦ ـ ١٤١ .

(٥) علي جريشة ـ حاضر العالم الإسلامي ـ ص ٦١ ـ ٦٢ .

(٦) محيي الدين حسن القضماني ـ قضايا هامة في حاضر العالم الإسلامي ـ ص ٥٦ ـ ٥٩ .

الفصل الثالث
وسائل الاستعمار
في إضعاف العالم الإسلامي

عاشت غالبية الدول الإسلامية فترات متفاوتة في القصر والطول تحت هيمنة الاستعمار الغربي الذي استغل ثرواتها ، وسخرها لخدمة مصالحه الاقتصادية والسياسية ، بل ربطها اقتصادياً باقتصاده ، وعلى الرغم من أن هذه المرحلة ـ مرحلة الاستعمار التقليدي ـ قد انتهت ، إلا أن العالم الإسلامي يعيش اليوم مرحلة الاستعمار الحديث ، وهو استعمار أخطر وأدهى من الاستعمار الأول ، لأنه يريد تحطيم عقيدة وهوية الأمة الإسلامية بكافة الوسائل والسبل ، ونتناول في هذا الفصل أبرز تلك الوسائل :

المخطط السياسي والاقتصادي :

ويرمي إلى السيطرة على الشعوب الإسلامية عن طريق الهيمنة السياسية والاقتصادية المباشرة وغير المباشرة ، فالاستعمار الحديث مثلاً يريد فرض سيطرته ـ عن بعد ـ على اقتصاد الدول الإسلامية ، بإبقائها فقيرة ، معتمدةً عليه دائماً ، فيسهل استعبادها ، وهو يرمي أيضاً إلى تعزيز سيطرته عن طريق إيقاع الفتنة والشقاق بين دول العالم الإسلامي ، باصطناع عملاء له من المسلمين لتنفيذ أغراضه ، مثل زرع التمرد على السلطة ، وعلى العادات والتقاليد ، وبإحداث الفتنة والبلبلة في صفوف المسلمين ، وأخيراً ـ وهذا هو الأهم ـ بربط دار الإسلام اقتصادياً بالدول الاستعمارية عن طريق التكتلات الاقتصادية ، واحتكار المال ، وإدخال البلاد في نطاق عملة البلد المستعمر ، ثم بتقديم المعونات الاقتصادية المشروطة للبلاد لتبقى مكبلة دائماً تحت سيطرته .

أما سياسياً فقد أعطى المستعمرون للبلاد التي استعمروها بعد أن خرجوا منها ما سمي «بالاستقلال المزيف» ، وذلك أنهم سلموا الحكم لفئات

تعلمت في مدارس إرسالياته ، وتشربت حضارته ومبادئها الغربية المادية ، فنشأت غريبة عن وسطها الإسلامي ، وبعيدة عن إرثها الحضاري الإسلامي ، علمانيين في أفكارهم ، غربيين في توجهاتهم ، محاربين لعقيدة أمتهم الإسلامية بشتى السبل ، وعندما سلم المستعمرون أولئك مراكز القيادة والتوجيه ، لم تتغير المحال كثيراً بعد هذا الاستقلال المزيف ، بل ظلت البلاد تعاني آثار الغزو الفكري ، والتسلط السياسي والاقتصادي ، وتتخبط في مسيرتها ـ في معظم الأقطار الإسلامية ـ بعيداً عن هدي دينها ، وشريعتها السمحة .

ووقع الصراع في كثير من البلدان الإسلامية نتيجة التبعية السياسية ، والمحاور المتنافرة التي ترتبط بها هذه البلاد ، ونتيجةً للمشاكل التي زرعها المستعمرون في كل بلد من البلاد التي سيطروا عليها ، فهناك مشاكل الحدود المصطنعة والتي صارت مشاكل مزمنة بين الأقطار الإسلامية المتجاورة ، وحالت بين التعاون فيما بين تلك الأقطار ، والأمثلة لذلك كثيرة ، الصومال مع جيرانه ، العراق وإيران ، سوريا وتركيا ، الهند وباكستان ، بنغلاديش والهند ، وكشمير ، اليمن وعُمان وغيرها من الأمثلة .

كما كان لهذه الأقطار أن تكتوي بنار الصراع العالمي لحساب غيرها من الدول الكبرى التي تتسابق إلى الثروات والمصالح في العالم الإسلامي ، وتعمل على أن يبقى هذا العالم مسلوب الإرادة ، مستنزف الموارد ، موزع الولاءات ، بعيداً عن عقيدته الصحيحة ، ومثله القويمة التي ترسم له طريق الخلاص من كل ألوان التبعية ، وتدفعه نحو بناء الأمة القوية التي تحمي استقلالها وثرواتها من كل طامع أثيم .

وكما اقتسم المستعمرون العالم الإسلامي ، ومزقوا أوصاله ، فقد شجعوا الأحزاب القومية ، والطائفية والإلحادية التي عملت على تمزيق البلاد بتناحرها وولائها للأجنبي خدمةً لمصالحه ، كما أبعدوا مفهوم الجهاد وحاربوه بكل الوسائل ، وجاءت الولايات المتحدة الأمريكية لترث الاستعمار ، فمارست كل الممارسات الاستعمارية السابقة ، ولكن عند بعد، وبذكاء ، وبأساليب حديثة ، كالدعوة إلى «العولمة» ، وإلى بسط سلطان المؤسسات المالية التي ترعاها وتهيمن عليها ، كالبنك الدولي ، وكمؤسسة النقد العالمية ، وما شاكلها من مؤسسات عالمية أمريكية ، وكانت أمريكا ـ المستعمر الخفي الجديد ـ كما كانت الدول الاستعمارية القديمة تدرك أن الخطر الأعظم عليها وعلى مخططاتها هي الوحدة الإسلامية ، ومن ثم كان همها الأول أن تعمل لمنع تلك الوحدة ، أو التضامن الإسلامي ، وتشجيع كل ما يساعد على ذلك المنع ففرزت ما من شأنه ترسيخ التبعية السياسية في مجال الحكم ، والاقتصاد والفكر[1] .

المخطط الفكري ـ الغزو الثقافي :

يرتكز هذا المخطط على نشر الأفكار التالية بين المسلمين في محاولةٍ لزرع الشك في دينهم الإسلامي ، ثم في النهاية التخلي عنه كنظام متكامل للحياة ، وهذه الأفكار هي :

١ ـ الفكر العلماني .

٢ ـ حركة التنصير .

٣ ـ حركة الاستشراق .

٤ ـ بث الدعوات الدينية الهدامة وتشجيعها .

٥ ـ بث الفكر السياسي الغربي ـ كالفكرة القومية ، والاشتراكية ، والشيوعية ، وما شابه ذلك من أفكار .

وهدف الاستعمار الغربي من وراء كل هذه المخططات سياسية كانت أم اقتصادية ، أو فكرية ، هو تأكيد قبضته ، وهيمته على أرض المسلمين ، وعلى عقولهم وقلوبهم ، ومحاولة إضعاف دينهم ، وفكرهم الإسلامي ، وتشكيكهم فيه ، حتى يبقى العالم الإسلامي خلواً من أي توجيه أو فكر أصيل ، وليبقى الباب مفتوحاً أمام الفكر الغربي العلماني ، فيتسنى للمستعمرين السيطرة على ذلك العالم وعلى أهله .

وهذا الأسلوب هو ما عرف بالغزو الفكري ، والذي يعتمد الوسائل غير العسكرية ، وغير المباشرة لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية ، وصرف المسلمين عن التمسك بدينهم . . . وسلاح هذا الغزو هو : الفكرة ، والحيلة ، والرأي ، والنظريات ، والشبهات ـ ثم حرب شاملة ممتدة إلى شُعب حياة المسلمين كلها .

وقد أدرك الاستعمار أن هزيمة المسلمين لن تكون بالسلاح ، ولكن تكون بحربهم في عقيدتهم التي هي مكمن القوة فيهم ، وبإحداث فراغ فكري بين أبناء الأمة الإسلامية ، وباقتلاع الأمة ذاتها من جذورها الحضارية ، وذلك عن طريق إظهار تهافت ، وعدم جدوى كل ما تملكه من مقومات أمام متطلبات عصر الذرة ، وغزو الفضاء ـ وهذا الأسلوب هو ما يعرف اليوم بالغزو الثقافي ، والغزو الفكري ، وهو أكثر خطراً من الغزو العسكري ، إذ إنه لا يعتمد على استخدام القوة ، والمواجهة المسلحة ، ولكنه يلجأ إلى أساليب أخرى ماكرة ، وخادعة ، وناعمة ، ولكنها شديدة الأثر والخطر ، إذ إنها غزو للعقول والقلوب ، يعمل في هدوء تام ، غالباً عن طريق بعض أبناء الأمة ممن تربوا في معاهده ، وجامعاته الاستعمارية ، فأصبحوا خداماً لفكره ، وأداةً طيعة في يده يوجهها ضد أعدائه من دعاة الفكر الإسلامي الأصيل ، محدثاً بذلك صراعاً داخلياً بين أبناء الأمة الواحدة ، وفوضى

فكرية يستطيع من خلالها زرع بذور أفكاره الهدامة الرامية إلى صرف المسلمين عن التمسك بعقيدتهم ، بل والقضاء على ذاتيتهم الإسلامية المتميزة ، والتي يرى في تمسك المسلمين بها خطراً داهماً عليه .

فالقائمون على الغزو الثقافي ـ من مستعمرين وأتباعهم ـ يهدفون إلى ضرب الإسلام من الداخل عن طريق إضعاف فاعليته وعزله عن التأثير في حياة المسلمين ـ فهم يريدون تحييد الإسلام ، بتشويه عقائده ومثله ، ويريدون كذلك إظهار اتباعه في أبشع صور التخلف ، والهمجية ، والتطرف ـ وقد تعددت أساليب ذلك الغزو الثقافي ، نسوق من أبرزها مايلي :

١ـ العلمانية :

ماذا تعني كلمة «علمانية» ؟ قد يظن البعض أنها كلمة مشتقة من «العلم» ، وأنها منسوبة إلى العلم ـ وليس هذا بصحيح ، فلا صلة للعلمانية بالعلم ، وهي كلمة نقلت من الغرب الأوروبي ـ موطن نشأتها ـ إلى البلاد الإسلامية والعربية على الأخص ، والعلمانية هي الترجمة العربية للكلمة الإنجليزية «Secularism» ، والتي يشرحها القاموس الإنجليزي بقوله : العلمانية هي النظرية التي تقول إن الأخلاق والتعليم يجب ألا يكونا مبنيين على أسس دينية ، أما دائرة المعارف البريطانية فتقول عن «العلمانية» : إنها حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالدنيا وحدها ، وذلك لأنه كان لدى الناس في العصور الأوربية الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا ، والتأمل في الآخرة ، فجاءت الدعوة إلى «العلمانية» لمقاومة هذا الاتجاه ، وظلت تلك الدعوة تتطور باستمرار خلال التاريخ الأوربي الحديث باعتبارها حركة مضادة للدين ، ومضادة للنصرانية ، وقد جعلت دائرة المعارف البريطانية في حديثها عن الإلحاد الفلسفة العلمانية نوعاً من الإلحاد ، سمته الإلحاد العلمي[٢] .

والعلمانية تعني في لغة الغربيين وعرفهم «اللادينية» ، وهي حركة اجتماعية ذات فلسفة معينة هدفها إبعاد الدين عن الحياة كلها ـ الحياة الاجتماعية ، والأخلاقية ، والتعليمية ، والسياسية ـ ، والشائع بين الناس أنها تعني فصل الدين عن الدولة ، وهذا خطأ ، فهي ـ كما رأينا ـ تعني إبعاد الدين عن الحياة كلها ، والعلماني هو الشخص الذي لا يطبق الدين في السياسة ، ولا في شئون الحياة كافة .

وقد كان ظهور العلمانية في أوروبا في بداية القرن التاسع عشر الميلادي/ الثالث عشر الهجري ـ أو قبل ذلك بقليل ـ ابتداءً من ظهور «الهرطقة» والخروج على سلطان الكنيسة ، ورجال الدين النصراني ، «فالعلمانية» إذاً نبتت خارج العالم الإسلامي ، وتسربت إليه من خلال مناهج التعليم ، ومن خلال المبعوثين الذاهبين من بلدان العالم الإسلامي إلى معاهد أوروبا لتلقي العلم فيها ، وكذلك من خلال ضلالات المستشرقين ، وتضليل سبل الإعلام الغربي(٣) .

وقد حرص الاستعمار على نشر الفكر العلماني بين أبناء المسلمين عن طريق فرض نظامه التربوي الغريب عن المعتقدات والقيم الإسلامية ، وكذلك عن طريق حصر التعليم الديني وعزله عن التعليم العام ، وعن محاصرة وتمييع المناهج الإسلامية باسم التطوير والتحديث ، وهو إذ يفعل ذلك إنما يرمي إلى خلق أجيال من المتعلمين تجهل تراثها الإسلامي ، فتتنكر لشخصيتها وذاتيتها الإسلامية ، وترى أن الحضارة الأوروبية ، والعلم الأوروبي هو أساس الرقي والتطور ، وأن كل شيء دون ذلك عتيق ، قديم ولا يساير التحضر والتطور ، وهكذا استطاع الاستعمار ببثه لمثل هذا الفكر العلماني أن يبعد بعض الفئات المتعلمة ـ والتي كانت قد برزت إلى مواقع الصدارة في بلدانها ـ عن دينها ، وعن مثلها وقيمها وحضارتها الإسلامية ،

وقد أصبح هؤلاء غرباء عن أمتهم الإسلامية ، فتبنوا دعوات فكرية هدامة وموالية للغرب نذكر منها :

أ ـ التشبث بالحضارة الغربية :

والإعجاب بها ، والأخذ بها دون وعي ، وقد تبنى هذا الاتجاه جماعة من الكتاب والأدباء المسلمين من الذين تولوا المراكز القيادية بعد زوال الخلافة العثمانية ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، لعل من أوضحها كتابات طه حسين والتي يبدي فيها إعجابه الشديد بالحضارة الغربية ، ويدعو إلى الأخذ بتلك الحضارة ، والسير في ركابها إن أريد للأمة أن تتقدم وتتطور ، وكتابه «مستقبل الثقافة في مصر» مليء بمثل هذه الآراء . . وهناك كتابات سلامة موسى ، وقاسم أمين وغيرهما مما تتبنى وتدعو إلى آراء شبيهةً بآراء طه حسين المتحيزة إلى الحضارة الغربية ، بل والمفتونة بها ، والداعية بالأخذ بأسبابها كلها .

وزاد من تأثير هذا الاتجاه الموالي للغرب النصراني ، ولحضارته تقاطر البعثات إلى الدول الأوروبية من أبناء المسلمين الراغبين في استكمال تعليمهم ، فقد عاد كثير منهم وقد تطبعوا بطباع الغرب ، وتأثروا بفلسفته وفكره ، وانساقوا وراء التيار الغربي ، فأصبحوا بذلك رصيداً في حساب أعداء الإسلام ، بالسلوك ، والتربية والفكر ، وانساقوا وراء التيار بلا فهم ولا وعي ، واتخذهم الاستعمار أداة طيعة في يده ، يستغلها لإحداث الانقلاب الجذري في حياة المسلمين ، ولإحداث الفجوة والفرقة بين جمهور الأمة ، وقيادتها «العلمانية» المنقطعة عنها وعن تراثها الإسلامي .

ب ـ بث الدعوات والنزعات القومية والإقليمية والقبلية :

وكلها دعوات أراد بها الاستعمار محاربة الإسلام ، وتجاهل ماضي الأمة الإسلامي ، ذلك أن الإسلام حارب مثل هذه الدعوات وأقام أمته على

قواعد وأسس إسلامية معلومة ، والمستعمرون يريدون من نشرهم لتلك النزعات الضيقة أن يجعلوا المسلم يفكر في وطنه قبل عقيدته ، وأن يربطه بالماضي التاريخي الغامض البعيد ، السابق على الماضي الإسلامي ، والذي يجد فيه المسلم أسس قوته ومجده ، ودعائم نهضته ، فالاستعمار لا يريد للمسلمين ذلك ، وإنما يريد إبعادهم عن ذلك الماضي ، بالدعوة إلى إحياء الحضارات القديمة ، حتى تحل محل الأخوة الإسلامية . . ومن ثم أراد الغرب تلفيق دعوة وهمية لكل قطر إسلامي ، فمصر أرادوا لها «الفرعونية» التي تقوم على إحياء ما قبل الإسلام من لغة وأدب وتراث فرعوني ، والاعتزاز بتاريخ مصر القديم . . وقد أطلت هذه الدعوة برأسها منذ غزو نابليون لمصر في عام ١٧٩٨م ، واستصحابه لبعثة علمية للتنقيب عن آثار الفراعنة ، وتعميق مثل هذه الدعوة يقود إلى «الانطواء على الذات» ، ومعارضة كل دعوة ترمي إلى تقرير الوحدة الإسلامية ـ أو حتى العربية ـ والتمسك بالعصبية الفرعونية والتي يرى أنصارها أن المسلمين العرب غزاة دخلاء على مصر ، كاليونان ، والرومان سواء بسواء(٤) .

كما بعثوا «الفارسية» في إيران ، وسوغوا لها ضرورة إحياء التراث الفارسي القديم ، والتمسك والاعتزاز به ، وعمدوا إلى إثارة «الفينيقية» في لبنان ، و«الآشورية» و«البابلية» في العراق ، و«الكنعانية» في فلسطين ، و«البربرية» في المغرب ـ وهكذا دواليك ، والهدف من واء إثارة هذه النعرات الإقليمية الضيقة هو سلخ أجزاء العالم الإسلامي بعضها عن بعض ، وعزلها عن بعضها ، والتفريق بينها ، والحيلولة دون وحدتها ، والعمل على إرغام كل جزء منها على التخلي عن تاريخه وماضيه الإسلامي ، وعن لغته العربية ، وفصله عن جسم الأمة تمهيداً للانقضاض عليه واستعباده .

جـ ـ قطع صلة المسلمين بالقرآن الكريم ـ محاربة اللغة العربية :

إن هدف المستعمرين هو حرب اللغة العربية ، لكونها لغة القرآن الكريم ، وبها تمت صياغة التراث الإسلامي عبر السنين ، وقد صاحبت انتشار الدين الإسلامي ، فحلت أينما حل ، وبها كتب المسلمون على اختلاف لغاتهم وأجناسهم وديارهم ، وهي عنصر وحدة بين المسلمين ، ولذا كان من الطبيعي أن يحاربها المستعمرون ، وأن يفقوا في طريق انتشارها ، بالتمكين للغاتهم من إنجليزية ، وفرنسية وهولندية ـ بحيث لا تتمكن اللغة العربية من التوسع بين مسلمي العالم ، واتبعوا في ذلك عدة أساليب ـ منها :

أولاً ـ نقل كثير من لغات المسلمين التي كانت تكتب بالأحرف العربية ، من ذلك الحرف إلى الحرف اللاتيني ، فقد نقل مصطفى كمال أتاتورك في مؤتمر باكو عام ١٩٢٦م أحرف اللغة العثمانية العربية إلى الأحرف اللاتينية ، وحدث نفس الشيء بالنسبة للغة الإندونيسية ، ولغة الهوسا في نيجيريا ، واللغة السواحيلية في بلدان شرق أفريقيا .

ثانياً ـ تشجيع اللغات المحلية واللهجات في معظم البلاد الإسلامية غير العربية لتصبح هي اللغات القومية ، مثل بعض اللغات المحلية واللهجات في القارة الأفريقية ، ومثل السنسكريتية ، والبنغالية في شبه القارة الهندية ، وغيرها .

ثالثاً ـ توسيع نطاق لغة المستعمر ، وجعلها اللغة الرسمية ، كما فعل في الهند الإسلامية ، وبنغلاديش ، وباكستان ، وفي بلدان غرب أفريقيا ، ووسطها وشرقها . . ولعل هذا الأمر أوضح ما يكون في المستعمرات الفرنسية ، وكذلك في المستعمرات البريطانية ، فلا زال أهلها من مسلمين وغيرهم حتى الآن يتحدثون ويتخاطبون بلغة مستعمريهم القدامى ، . . خاصة اللغة الفرنسية .

رابعاً ـ وعندما وجد الغربيون أن القضاء على اللغة العربية في حكم المستحيل عملوا على التقليل من شأنها ، فقالوا إنها لا تلبي حاجات العصر ، وأنها استنفدت أغراضها . . ومن ثم عمدوا إلى الدعوة لاستخدام اللغة العامية لغةً للتأليف والكتابة ، كما فعلوا في الجزائر ، ومصر ، وبلاد الشام ، والعراق ، وتونس ، والمغرب ، كما أن السياسة التعليمية تجاهلت اللغة العربية ، ولم تهتم بها ، ولا بمعلميها بالقدر الذي أولته لغاتها ومعلميها من اهتمام وتشجيع ـ والغرض من محاربة اللغة العربية بهذه الصورة وبكل تلك القوة ، هو زرع الفرقة بين المسلمين من عرب وغيرهم ، بتفريقهم في اللغة ، والدين والثقافة ، وبعدم السماح للعربية من الانتشار بين مسلمي العالم ، حتى لا تتم لهم وحدة ، وكذلك محاولة قطع ما بين المسلمين وما بين تراثهم الماضي ، لأنه هو الذي يربطهم ويوحد بينهم . . ، وهو الذي يعطيهم الثقة في أنفسهم ، ويعزز من صمودهم أمام مخططات الاستعمار وتحدياته .

د ـ توجيه التعليم وجهة لا إسلامية :

وذلك عن اقتباس الأنظمة والمناهج الغربية ، وإحلالها محل مناهج التعليم الإسلامية التي وجدها الاستعمار في مستعمراته الإسلامية ، والهدف من كل ذلك هو إضعاف العالم الإسلامي ، بتذويب هويته الإسلامية في الهوية الاستعمارية . . وكذلك توجيه التعليم لتخريج طائفة من المتعلمين يخدمون مصالحه ، ويعززون من سيطرته الاستعمارية في بلدان المسلمين التي استعمرها ، وأخذ يحارب الإسلام فيها . . . ومن ثم مافتئ المستعمرون يحاولون القضاء على ثقافة الإسلام وإرثه ، بالطعن فيهما ، وأثارت الشكوك والشبهات حولهما ، وذلك عن طريق إحلال الفكر العلماني محل الفكر الإسلامي في مناهج التعليم والتي أُخرج من

برامجها الدين ، وتاريخ الإسلام ، وإرثه الثقافي واللغوي ، في محاولة لطمس هوية الأمة ، ولقطع صلتها بتراثها وماضيها الإسلامي ، فمثلاً عُرضت مناهج الدين والتاريخ الإسلامي عرضاً منفراً يجعلها على هامش المنهج الدراسي ، مما يغرس في نفوس الناشئة عدم الاهتمام بهما ، ويجعلهم يعتقدون بعدم جدواها دراسياً ، لكونها مواداً غير أساسية في متطلبات الشهادات الثانوية وغيرها ، وغير أساسية في متطلبات الدخول إلى الجامعات . . ويترسب في نفوس الطلاب من ثم الاستخفاف بهذه المواد، فيبقى الدين في أذهانهم سلوك ، وعبادات فقط ، والتاريخ الإسلامي تاريخ ماض لا مكان له في عصرنا الحاضر ، وينسون أن ذلك التاريخ هو سجل لأمجاد الأمة الإسلامية ، ولإنجازاتها الحضارية .

ولا عجب أن خلت مناهج الجامعات أيضاً من علوم الإسلام ، وامتلأت بمفردات المناهج اللادينية ، كعلوم الفلسفات المادية والإلحادية ، والنظريات الغربية الرافضة للدين وعلومه ، وكذلك التركيز والاهتمام بالتراث والحضارات الوثنية ، والحضارات السابقة للإسلام ـ حدث ذلك في مصر ، وفي تركيا ، وإندونيسيا ، وغيرها ، والغرض من وراء كل ذلك هو محاولة القضاء على العوامل الجامعة للعالم الإسلامي ، ولا غرو إذاً أن أصبحت برامج التعليم علمانية في كل مراحله ، وتعدى الأمر المناهج إلى أسلوب التربية ، وفلسفة السلوك ، فطبق الاختلاط بين الذكور والإناث في معظم جامعات العالم الإسلام ، وأُدخل في روع الطلاب «عن طريق المناهج وغيرها» أن الحضارة الغربية هي خلاصة الحضارات ، وأن الأمم لا يتقدم إلا باحتذائها ، والأخذ بها . . وأغفلت الحضارة الإسلامية تماماً ، كما حشيت مقررات التاريخ بدسائس المستشرقين ، وسموم المبشرين ، فصور التاريخ الإسلامي على أنه سلسلة من الصراعات ، والفتن ،

والدسائس ، والعنف ، وأغفلت جوانبه المشرقة مثل دور المسلمين الحضاري في الرقي البشري ، وإسهام الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوروبية . . كما أن المناهج التعليمية ركزت على عرض التاريخ الأوروبي في صورة زاهية مشرقة ، ومغرية ، وعلى مذاهب أوروربا الفلسفية ، ونظرياتها العلمية ، وحياة أبطالها وعلمائها بطريقة جذابة حتى يتم استقطاب المسلمين، وإلحاقهم بالحضارة الغربية ، بل ذوبانهم فيها ، فتزول هويتهم وشخصيتهم الإسلامية ، ويتفتح الباب واسعاً أمام الغزو الثقافي الغربي ، وتسهل السيطرة عليهم ، والتحكم في مصائرهم(٥) .

هـ ـ طمس هوية الأمة الفكرية :

كان من أخطر الوسائل العصرية التي اعتمد عليها أعداء الإسلام «الصحافة» باعتبارها أكثر انتشاراً ، وأبعد تأثيراً ، فجاءت الصحف المحلية والأجنبية تبث في أوساط المسلمين قيماً غربية نصرانية جديدة ، تحفل بضروب الأفكار المخربة ، وأحاديث الجنس الفاضحة ، والصور العارية ، والقصص الرخيصة ، والبحوث والمقالات التي تتناول كثيراً من مقدسات المسلمين بالنقد والتجريح ، وتتغول على المبادئ الإسلامية .

فظهرت مؤلفات مسلمين وغير مسلمين تتحدث عن الإلحاد ، وعن «الدارونية» والأصل الحيواني للإنسان ، بل إن بعضهم مثل «الشيخ» علي عبد الرازق طرح قضية العلمانية لأول مرة في صميم الفكر الإسلامي في كتابه : «الإسلام وأصول الحكم» ، وخطورة هذا الكتاب أنه حاول الاستناد ولأول مرة على الفكر التاريخي الإسلامي لتبرير العلمانية ضمن إطار الإيمان الديني ، وليس من منطلق العلمانية الخالصة المنافية للدين .

كما أصدر طه حسين كتابه في الشعر الجاهلي عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م ، الذي حاول فيه إبداء الشك في الروايات الجاهلية ، وتعدى ذلك إلى محاولة

نقد الروايات والنصوص الدينية بما في ذلك آيات القرآن الكريم ، وفي هذا تكمن خطورة هذا الكتاب ، وليس في مجرد تشكيكه بمصادر الشعر الجاهلي ، وهكذا استمرت أفكار الغرب المنحرفة تظهر في كتابات بعض الأدباء العرب من أمثال إسماعيل مظهر ، ولطفي السيد ومنصور فهمي ، وأمين الخولي وغيرهم من الكتاب تحت أقنعة البحث العلمي والموضوعية العلمية .

وكان من نتيجة شيوع مثل هذه الآراء في الفكر والأدب والصحافة التمهيد لانتشار الأفكار المادية ، ولا سيما الشيوعية ، وتغذيتها بروح الشك العام في كل شيء ـ سواء كان ذلك ديناً أو غيره ـ حتى أصبح الشباب المتعلم في العالم الإسلامي فريسةً للشكوك ، فانضم كثير منهم إلى المنظمات اليسارية ، أو القومية وغيرها من الأحزاب اللادينية ، وأطلت الأفكار المنحرفة في حرية تامة ، فدخل الفكر القومي ، والوطني ، والعلماني ، والمادي ، والاشتراكي ، والوجودي إلى صفوف شباب المسلمين المتعلم باسم العلم ، وحرية البحث ، والإصلاح والثورة على كل قديم ، وكان كل ذلك على حساب الرابطة الإسلامية ، فمبدأ القومية مثلاً يستهدف بث العنصرية والتي تستهدف بدورها خلق الصدع ، ونشر الفرقة بين المسلمين من العرب ، والفرس ، والترك ، والهنود ، كما تهدف إلى إعلاء شأن التاريخ والولاء القومي ، والقضاء على الذاتية الإسلامية ، وكذلك الحال مع الشيوعية ، والماسونية ، والدعوات التوفيقية الداعية إلى التوفيق بين الأديان ، وبخاصة بين الإسلام والنصرانية .

وهكذا كان هدف المستعمرين ينحصر في الآتي :

١ ـ إنشاء جيل من أبناء المسلمين يتبنى الثقافة الغربية ، ليسهل عليهم الاتصال به ، والتفاهم معه ، والاعتماد عليه لتنفيذ مخططاتهم كلها علمانية وغيرها .

٢ ـ أن تخلو الأجيال المقبلة من الإسلام ، ومن الثقافة الإسلامية ، ومن الرغبة بالتمسك بالإسلام والدفاع عنه .

ومن ثم عمد المستعمرون إلى تغيير قيم الأمة ومثلها ـ أي تغيير عقيدتها وثقافتها وأخلاقها ـ وبمعنى آخر إبعاد المسلمين عن دينهم باسم المدنية والتقدم والتطور وهو ما عرف بحركة «التغريب» ، وهي حركة بدأها المستعمرون ومؤسساتهم الاستشراقية والتنصرية ، ثم حمل مشعلها من بعدهم جماعة من المسلمين «المتغربين» ، من تلاميذ المستشرقين ومن الطلاب المبتعثين إلى الخارج ، ويساندهم في تنفيذ هذا المخطط بعض حكام المسلمين ، وتتمثل خطة هذه الحركة (حركة التغريب) ، في إحداث تغيير جذري في العادات ، والتقاليد والأخلاق تحت قناع التطور ، ومسايرة روح العصر ، مستخدمةً في ذلك وسائل الإعلام المختلفة ، ومن مظاهر الحركة الواضحة اتخاذ الزي الأوروبي ، والتطبع بطباع أهل الغرب ، ومحاكاتهم في القشور المظهرية لحضارتهم[٦] ، ومن نتائجها التبعية السياسية ، والفكرية ، والاقتصادية ، والتنكر للإسلام ، ولمبادئه وتراثه . . والعيش غرباء في المحيط الإسلامي ، وتخريب عقول المسلمين حتى يتسنى للاستعمار السيطرة الكاملة على العالم الإسلامي وعلى أهله .

و ـ بث الدعوات الدينية الهدامة وتشجيعها :

وهذه إحدى وسائل الاستعمار في تنفيذ مخططه الفكري الرامي إلى إضعاف المسلمين ، وتشكيكهم في إسلامهم ، وهذه الوسيلة إلى جانب ما قام به المنصرون والمستشرقون من تشويه وإضعاف للإسلام في نفوس المسلمين ، هما وسيلتان مكملتان لبعضهما بعضاً ، فالصلة بينهما وثيقة ، وهدفهما واحد ، وهو حرب الإسلام .

وقد عمد الاستعمار إلى إيجاد طبقة من أبناء المسلمين وتشجيعهم على تبني مذاهب إسلامية هدامة ، تخدم أهدافه ، بغرض تركيز سلطته وولايته على المسلمين ، وبعبارة أخرى عدم تحدي المستعمر في مباشرة سلطته على المسلمين ، أو معارضة إدخال مخططاته الفكرية ، ونشرها بينهم ، ولعل من أبرز المسلمين الذين تبناهم المستعمر ، وشجعهم على بث فكرهم الديني الهدام ، هو السير سيد أحمد خان ، الذي تبنى دعوة باطلة باسم الإصلاح والتقدمية .

ويمثل هذا الاتجاه المعادي للإسلام ، الدعوة «القاديانية» ، والأحمدية في الهند أيضاً ، وهناك دعوات أخرى مماثلة مثل «البابية» و«البهائية» وكلها دعوات باطلة قامت بتشجيع من الاستعمار البريطاني ، غرضها محاربة الإسلام تحت شعار الإصلاح ، خدمةً للاستعمار ، وذلك عن طريق تنفيذ مخططه الرامي إلى إضعاف المسلمين ، بحربهم في عقيدتهم . وفيما يلي نتناول أبرز ملامح تلك الدعوات الباطلة :

أولاً ـ السيد أحمد خان :

عندما استولى الإنجليز على الهند حاربوا الإسلام هناك بشتى الوسائل ، ومنها تبنيهم ، وتشجيعهم لأحمد خان ، الذي بدأ أول ما بدأ بالمناداة بأفكار غربية ، مثل قوله بمذهب «الطبيعيين الدهريين» القائل إنه لا وجود في هذا الكون إلا للطبيعة ، وأنه ليس للكون إله حكيم ، وأن كل الأنبياء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالإله الواحد .

وقد استطاع أحمد خان أن يغري بضلالاته هذه بعضاً من أبناء الأغنياء الطائشين ، والسائرين في ركاب الاستعمار ، والمعجبين بفكره وحضارته ، ولم يكن غريباً أن للحكام البريطانيين غرضاً من وراء مشربه وضلاله هذا ، إذ رأوا فيه خير وسيلة لإفساد نفوس المسلمين ، فساندوه ، وشجعوه ، وساعدوه على بناء مدرسة في «عليكرة» سموها مدرسة «المحمديين» لتكون

مصيدةً لأبناء المسلمين فيدخلونها ، وفيها يتربون على أفكار أحمد خان الضالة .

ومضى هذا الرجل إلى أبعد من ذلك ، حيث كتب تفسيراً للقرآن الكريم، حرف فيه ما أراد أن يحرف ، وقال فيه بآرائه الفاسدة ، كما أنه جهر بالدعوة لخلع الأديان ، بدعوى أن أوروبا لم تنهض إلا بعد أن رفضت الدين، وتخلت عنه .

ويتضح من كل ما ذكرنا أن دعوته دعوة إلحادية رغم ادعائه أنه يدافع عن الإسلام والمسلمين ، وأنه يريد أن يجد للمسلم المعاصر طريقاً يوفق فيه بين إسلامه وبين تقبله للحياة العصرية التي قامت على أثر نهضة العلم الطبيعي . . . وهو كذلك يدعو إلى التعاون بين المسلمين والغربيين فيما أسماه «إنسانية الأديان» ـ وهي دعوة تشبه الفكرة المسماة اليوم «بالعالمية» ، وكانت من قبل تعرف باسم «الماسونية» ، وفيها تنتفي الفوارق بين الأوطان، والقوميات ، والأديان والمذاهب .

وكان للسيد أحمد خان نفوذ سياسي ـ تربوي ، فهو صحفي ، ومؤلف، ومدرس ، وقد أثرت حركته هذه فيما بعد في ظهور فرقة ضالة أخرى هي «القاديانية» .

ثانياً ـ القاديانية :

هي دعوة منسوبة إلى «ميرزا غلام أحمد القادياني» ، الذي ولد حوالي سنة ١٨٣٩م في مدينة «قاديان» إحدى مدن مقاطعة بنجاب بالهند في بيتٍ من البيوتات التي اشتهرت بخدمة سياسة الإنجليز الاستعمارية وتحقيق مصالحهم ، فوالده كان من أخلص أصدقاء الاحتلال الإنجليزي الذي فرض سيطرته تلك الأيام على شبه القارة الهندية ويقول الميرزا غلام أحمد نفسه :

«لم تبخل عائلتي ولم تضن ، ولن تبخل ولن تضن بدماء أبنائها في خدمة مصالح الحكومة الإنجليزية أبداً»(٧) .

ومن ثم كانت حركة الميرزا غلام أحمد موضع ثقة الحكومة البريطانية ، وقد خدموها في الهند وخارج الهند .

وقد ظهر الميرزا غلام أحمد في سنة ١٨٨٠م كأحد الدعاة إلى الإسلام والمناظرين لخصومه من غير المسلمين ، وفي ديسمبر سنة ١٨٨٨م نادى في المسلمين ودعاهم إلى مبايعته ، وكان يدعي حينذاك أنه «مجدد العصر» ، و«مأموراً من الله» ، ويظهر للناس مماثلته للمسيح ، وفي سنة ١٨٩١م أعلن أن المسيح قد مات ، وادعى أنه هو المسيح الموعود ، والمهدي المنتظر ، وفي سنة ١٩٠٠م بدأ بعض الخواص من اتباعه يلقبونه بالنبي صراحةً ، وكان هو يقول إن نبوته نبوة جزئية ، أو نبوة غير كاملة ـ وذلك حتى لا يثير الناس عليه ، وفي سنة ١٩٠١م أعلن الميرزا بوجه سافر أنه النبي والرسول ، ولم يكن لدعواه تلك صورة واحدة بعينها ، ولكنها اختلفت باختلاف الظروف والأحوال ، فهو يقول في أحيانٍ أنه نبي غير حاملٍ للشريعة ، وفي أحيانٍ هو نبي حامل للشريعة ، وفي أحيان أخرى يسمي نفسه النبي الظلي المتجسد وهي نوع من أنواع النبوة ـ كما يدعي ـ يتمتع بكل ما يتمتع به الأنبياء الحقيقيون ، ثم يمضي هذا المدعي فيقول إن النبوة ختمت به ، وأنه هو المسيح الموعود ، بل وإن الوحي ينزل عليه ، ذلك أن باب الوحي ـ كما يدعي هذا الضال (ميرزا أحمد) ـ لم يغلق إلى أبد الآباد بعد محمد ﷺ ، وما دام هو نبي والوحي ينزل عليه ، فإن له أمة يبلغها كلام الله ـ هي الأمة القاديانية ـ وأن كل من لا يؤمن بما قاله الميرزا أحمد فهو كافر غارق في الكفر ـ على حد قوله .

وهكذا حاول القاديانيون أن يجعلوا نحلتهم ديناً له نبيه ، ومركزه وأصحابه ، وخلفاؤه ومقدساته ، وتاريخه ، ويقطعون صلة اتباع القاديانية

عن تراث الإسلام ومنابعه ، حتى أنهم يطلقون على رجالهم «رضي الله عنهم» وعلى زعيمهم «عليه السلام» ، وعلى عائلته «أم المؤمنين» ، ويروون عنه الأحاديث بإسنادٍ كإسناد الصحاح ، وقد أضفى هذا المتنبي الميرزا أحمد على بلده «قاديان» مركز القداسة ، وساواها بالمدينة المنورة ، فانظر مثلاً إلى قول أحد أتباعه :

«إن الذي يزور قبة المسيح الموعود البيضاء في القاديان له نصيب من البركات التي تختص بقبة النبي الخضراء في المدينة ، فما أشقى الرجل الذي يحرم نفسه من هذه البركات خلال الحج الأكبر إلى قاديان» .

وقد تقدم القاديانيون خطوة أخرى وطبقوا على «قاديان» ما نزل من الآيات القرآنية في شأن بلد الله الحرام ، والمسجد الأقصى المبارك ، يقول الميرزا غلام أحمد في تأويل قوله تعالى : ﴿**ومن دخله كان آمنا**﴾ أن هذه الآية تنعت المسجد الذي أسسه في قاديان ، ويقول إن المراد بالمسجد الأقصى في قوله تعالى : ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله**﴾ هو مسجد قاديان(٨) .

لقد قاوم علماء الإسلام وقادة الفكر في الهند وغيرها من ديار الإسلام هذه الفتنة القاديانية ، فحاربوها بأقلامهم وعلمهم ، واعتبروها نحلة خارجة عن دائرة الإسلام ، إلا أن زعماء الهندوس رحبوا بالقاديانية لأنها تفيض على الهند القداسة ، وتصرف المسلمين عن الإسلام ، وعن مكة ، والمدينة المنورة إلى مركز هذا المتنبي في قاديان ـ وكذلك بارك الإنجليز هذه النحلة ، وشجعوها ، بل هم الذين غرسوها ورعوها ، لأنها دعوة تبث بذور الشقاق في صفوف المسلمين ، ولأنها أداة طيعة لتحقيق أغراضهم الاستعمارية ، وبرغم أن المسلمين ظلوا يعلنون بأن القاديانيين مارقين عن الإسلام ، فإن الإنجليز لم يكترثوا لتصريحات المسلمين ، وأصروا على

اعتبار القاديانية طائفة من الطوائف الإسلامية ، وقد أخذ الاستعمار الإنجليزي بيدها وشجعها حتىٰ استفحل أمرها وتبوأت المناصب الرئيسية في الإدارة المدنية وفي الجيش .

وقد سجلت الإدارة البريطانية في الهند نحلة القاديانية كمذهب رسمي في سنة ١٩٠٠م ، وقد استغلت النحلة هذا السند البريطاني ، فتمادت في نشر ضلالاتها ، وادعاءاتها الباطلة إلىٰ الحد الذي حدثت بينهم وبين عامة المسلمين اشتباكات ومنازعات في جميع المجالات ، ورفعوا أمرها إلي المحاكم ، والتي قضت بأن القاديانيين قوم مرتدون عن الإسلام ، والغريب في الأمر أنه لما قامت دولة باكستان بعد جلاء الإنجليز عن شبه القارة الهندية ، ظلت هذه الدولة تبسط علىٰ القاديانيين جناح عطفها وحمايتها ، تقطعهم الأراضي الواسعة ، وتسند إليهم نصيباً وافراً من المناصب الحساسة في دوائرها . . وفي وجه هذا السند اجتمع زعماء المسلمين في مدينة كراتشي عام ١٩٥٣م وطالبوا الحكومة بأن تجعل القاديانيين أقلية غير مسلمة علىٰ غرار الأقليات غير المسلمة الأخرىٰ ، ولكن الحكومة استمرت في حمايتها لهم ، بل إن وزير خارجيتها ظفر الله خان كان من القاديانيين المتحمسين لدعواهم ، فمكن لهم في السفارات والمفوضيات ـ وقد حاولت الحكومة قمع حركة علماء المسلمين المعارضين للحركة ، فأعلنت الحكم العرفي ، وزجت بقادتهم في السجون ، واستشهد مئات المسلمين المعارضين للحركة برصاص جنود الحكومة ، وكان من ضحايا هذا القمع الأستاذ أبو الأعلىٰ المودودي مؤلف كتاب «المسألة القاديانية» الذي حكم عليه بالإعدام أولاً ، ثم استبدل الحكم بالسجن أربعة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة ، ولم تكن جريمته إلا أنه عارض القاديانية ، وألف رسالته المذكورة التي أوضح فيها أباطيل القاديانية .

والدعوة القاديانية لها دعاة ومراكز في شتىٰ أقطار الأرض ، ولا سيما في البلدان الأفريقية ، وفي البلاد الأوروبية ، وفي إيران . . وعدد مراكزهم في العالم ـ حسب تصريحاتهم ـ إحدىٰ وثلاثين مركزاً ، ومن أغرب مايكون أن لهم مركزاً في إسرائيل ـ أسسوه في حيفا في ظل الحماية البريطانية ، ومن حيفا يرسلون دعاتهم للبلدان العربية ، وهم الآن ينعمون بحماية إسرائيل لهم ، وتجدر الإشارة إلىٰ أنهم يقيمون في إسرائيل علىٰ الجواز البريطاني ، لأن باكستان لا تعترف بالكيان الإسرائيلي في فلسطين ، وموالاتهم لإسرائيل ، ثم للإنجليز دليل قاطع بأنهم غير مسلمين ، ولا بد للحكومات العربية والإسلامية وبخاصة الجامعة العربية ولجنة مقاطعة إسرائيل من التنبه لخطر القاديانيين وخطر نشاطهم الدعوي ، خاصة وأن دعاتهم الضالين عندما يشرعون في بث ضلالاتهم في أوساط المسلمين لا يظهرون إلا في مظهر دعاة الإسلام ، ودعاة البعث والتجديد لإيقاع المسلمين السذج في مصيدتهم(٩) .

وتختلف القاديانية مع الإسلام في جملة مسائل ، منها : أن عيسىٰ عليه السلام بُعث بعد موته ، وهاجر إلىٰ كشمير في الهند لينشر تعاليم الإنجليل في البلاد ، وأنه توفي بعد أن بلغ من العمر ١٢٠ عاماً وأن قبره لم يزل موجوداً هناك .

وأيضاً في ادعائه أنه «المهدي» ، وأن عيسىٰ عليه السلام ، ومحمد ﷺ حلا فيه علىٰ السواء ، فهو «نبي» . . . كما أن رأيه في الجهاد مخالف للرأي الإسلامي ، فالجهاد في رأيه وسيلة سلمية للإقناع ، فهو يبطل فرضية الجهاد ويحاول التقريب بين الإسلام والنصرانية لدرجة تكاد تدمج أحدهما في الآخر .

والخلاصة أن القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام ، وهي أيضاً وليدة السياسة الإنجليزية التي تحاول قتل روح المقاومة الإسلامية لمخططاتها الاستعمارية ، وتفريق شمل المسلمين في الهند وغيرها من المستعمرات البريطانية ، ولذا حمى الإنجليز ميرزا غلام أحمد ، ومكنوه من نشر دعوته الرامية إلى تأسيس ديانة جديدة ، وأمة قاديانية بدلاً عن الإسلام وأمته ، وكان هم صاحبها شغل المسلمين بأمور ثانوية ، مثل موت المسيح ، ونبوته هو ، مما لا صلة له بالحياة العامة ، والمسائل التي تهم المسلمين ، مثل وحدتهم ، ومحاربتهم للاستعمار البريطاني ، وبدلاً عن ذلك فالقاديانية تحاول زرع اليأس في نفوس المسلمين في مستقبلهم وتطلعاتهم .

ثالثاً ـ الأحمدية :

انشقت القاديانية بعد نشأتها بقليل إلي فرقتين : الأولى القاديانية أو الأحمدية ، والثانية اللاهورية ـ أو جماعة لاهور ـ والفرقة الأولى تعتقد أن الميرزا غلام أحمد نبي مرسل من الله تعالى ، وأنه المسيح الموعود ، وأنه أفضل من كثير من الأنبياء ، وأن أصحابه هم صحابة ورجال البعثة الثانية ، والمسلمون يسمونهم «قاديانيين» نسبة إلى مدينة «قاديان» التي نشأت فيها الحركة وترعرعت ، وهم يسمون أنفسهم «أحمديين» نسبة إلى مؤسس الحركة غلام أحمد المتنبي الكذاب ، وذلك تضليلاً للناس ، وذراً للرماد في العيون .

أما الفرقة الثانية «اللاهوريين» فيتزعمها رجلان هما خواجة كمال الدين ، ومولاي محمد علي ، وهم يرون أن الميرز غلام أحمد مصلح ومجدد ، والمسيح الموعود ، ولهذه الفرقة نشاط كبير في الخارج في آسيا وأوروبا ، وكل من الفرقتين تسمي نفسها بالأحمدية ، والمسلمون لا يفرقون

بين هاتين الفرقتين ، فكلاهما فرقتان ضالتان خارجتان عن ملة الإسلام(١٠) .

رابعاً ـ البابية :

ظهرت الفرقة البابية في عام ١٨٤٤م في إيران في وقت كانت تعصف بإيران الاضطرابات السياسية ، والفوضى الفكرية الدينية ، وفي هذا الجو المضطرب ظهر شخص اسمه علي محمد الشيرازي في عام ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م ـ وقد عرف فيما بعد ـ بالميرزا علي ـ ليعلن أنه «الباب» الموصل إلى صاحب الزمان ، الإمام المنتظر الذي ينتظره الشيعة الاثني عشرية ، وأنه يريد إصلاح ما فسد من أمر الإسلام والقرآن ، ثم ما لبث أن تحول الادعاء والزعم إلى أنه هو بعينه الإمام المنتظر ، ثم تجاوز هذا الادعاء إلى الزعم بأنه نبي مرسل ، حيث قال : «وأن الله قد أوحى إليّ إن كنتم تحبون الله فاتبعوني» وقال : «ولقد بعثني الله بمثل ما قد بعث به محمداً رسول الله من قبل»(١١) ـ ولم يقف هذا المدعي عند هذا الحد بل زعم أن الإله حل فيه ، حيث يقول في كتابه «البيان» : «أنا قيوم الأسماء مضى من ظهوري ما مضى ، وصبرتُ حتى يُمْحص الكل ، ولا يبقى إلا وجهي ، وأعلم بأنه لست أنا بل أنا مرآة لا يرى فيّ إلا الله»(١٢) .

وخلاصة هذه الدعوة المسماة بـ «البابية» أنها ناسخة للشريعة الإسلامية ، وأن الباب هو خاتم النبيين بعد محمد ﷺ ، وأنه أنزل عليه كتاب أفضل من القرآن الكريم واسمه «البيان» ، فيه مضمون دعوته ، والذي لا يصح على الأتباع إلا قراءته دون سواه ، وأن كل من لا يؤمن بكتابه هذا كافر يستحق القتل ـ كما أن الباب ألغى الصلوات الخمس ، وصلاة الجمعة ، وصلاة الجماعة إلا صلاة الجنازة ، وقال إن القبلة هي البيت الذي ولد فيه بشيراز ، وقال إنه أفضل من النبي محمد ﷺ وأن قرآنه أفضل من القرآن ، وأنه أفضل

الأنبياء قاطبة ، فهو يقول في كتابه المزعوم : «إني أفضل من محمد ، كما أن قرآني أفضل من قرآن محمد ، وإذ قال محمد بعجز البشر عن الإتيان بسورةٍ من سور القرآن ، فأنا أقول بعجز البشر عن الإتيان بحرف من حروف قرآني ، إن كان محمداً بمقام الألف ، فأنا بمقام النقطة»(١٣) .

والبابيون يرون أن الأنبياء ليسوا إلا مصلحين اجتماعيين جاءوا لإصلاح شئون البشر ، ويمكن أن يأتي مثلهم كثيرون ، ومن ثم أنكروا أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء ، والغريب هنا أن يدعي «الباب» أنه نبي في حين ينفي عن الأنبياء صفة النبوة .

وقد هاجم علماء المسلمين هذه الدعوة الإلحادية ، واعتبروها دعوةً خارجةً عن الإسلام ، وقبض حاكم شيراز على «الباب» ، وأمر بتعليقه من ساقيه وضربه حتى أعلن توبته ، ولكنه ما لبث أن عاد إلى كفره ، فقُبض عليه وأُعدم في عام ١٢٦٥هـ .

خامساً ـ البهائية :

بعد إعدام «الباب» قام بالأمر من بعده أحد أتباعه وهو الميرزا حسين علي المازندراني ، الملقب «بالبهاء» أو بهاء الله ـ وأخوه المسمى صبح الأزل ، وادعى «البهاء» أنه الموعود الحقيقي ، والمسيح المنتظر ، وأن «الباب» لم يكن إلا داعياً ومبشراً به ، فمثله معه كمثل يوحنا المعمداني مع المسيح عليه السلام ، وبدأ ينشر تعاليمه في طهران ، ولكنه تورط في محاولة لاغتيال شاه إيران ، فأودع السجن ، ولكن تدخلت السفارتان الروسية والبريطانية لدى شاه إيران للإفراج عنه ، فاستجابت الحكومة الإيرانية فنفته إلى العراق ، حيث تولته مجموعة من اليهود لتخطط له منهجه ، وتشجعه في دعوته بغرض إحداث الفرقة بين المسلمين ، والتشكيك في الإسلام ، فوجهه

اليهود وجهة تتصل بالماسونية حيث الدعوة إلى وحدة الأديان بالخروج على أصولها في دين جديد ، وهي دعوة تستهدف عالمية الدين الإسلامي ، وتعاليمه ، بنسخها في دين عالمي جديد .

وقد تنبهت السلطات العثمانية إلى خطر البهائيين والبابيين فنفتهم إلى الأستانة ، ثم إلى أدرنة ، وأخيراً نفى «البهاء» إلى عكا ، ونُفى شقيقه «صبح الأزل» إلى قبرص ، حيث ادعى كل منهما أنه رسول مستقل ، وليس خليفةً للباب ، وأن لكل منهما كتاب خاص به ناسخ للشرائع السابقة ، فللبهاء كتابه المسمى «الأقدس» ، ولأخيه كتابه المسمى «ألواح» ، ودخل الإخوان في صراع مرير بينهما ، تمكن «البهاء» خلاله من إبادة جماعة أخيه ، حيث صفا له المكان ، فادعى النبوة ، ثم ادعى الألوهية ، ولقب نفسه البهاء ـ أو بهاء الله أي وجه الله الأبهى ، حيث سانده اليهود كما قلنا ، وقد أسقط البهائيون فريضة الجهاد ، وأيدوا الدعوة الصهيونية ، واغتصابها لفلسطين ، وأيدوا الربا بإيعازٍ من اليهود ، وقد اتضحت صلة هذه الحركة بالاستعمار البريطاني وباليهود عندما منحته الحكومة البريطانية جنسية إنجليزية ، وأنعمت عليه بالوسام الإمبراطوري ، وبلقب «السير» ، وهذه المنح لا تُقدم إلا لمن قدم خدمات جليلة للإمبراطورية البريطانية على حساب الإسلام والمسلمين ، وقد اتخذ البهاء بعد ذلك من عكا مقراً له(١٤) .

والدعوة البهائية مخطط كامل لهدم الإسلام ، إذ فيها :

١ ـ تأويل آيات القرآن الكريم على غير مفهومها ومدلولها اللغوي والشرعي شأنها في ذلك شأن الفرق الباطنية ، وغرضها التضليل .

٢ ـ قولهم إن الشريعة الإسلامية لا تصلح لهذا الزمان ، وفي هذا إقرار بالقوانين الوضعية الاستعمارية ، وبفصل الدين عن كافة شئون الحياة .

٣ ـ معارضة الجهاد ومقاومته ، وقد ارتفعت صيحتهم هذه ضد مقاومة أهل فلسطين للمخطط الصهيوني الرامي إلىٰ استلاب أراضيهم ، كما أنهم وظفوا هذه الدعوة ضد دعوة السلطان عبد الحميد الثاني للجهاد أثناء الحرب العالمية الأولىٰ .

٤ ـ محاربة لغة القرآن الكريم ـ اللغة العربية ـ ، ثم ادعاء نبوة جديدة ، ودين جديد ناسخ للإسلام وللأديان جميعاً ، هو دين البهائية ، فهم يؤولون قوله تعالىٰ في الآية ٦٧ من سورة الزمر : ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ، بأن المقصود منها الأديان السبعة : البرهمية ، والبوذية ، والكونفوشوسية ، واليهودية ، والنصرانية ، والإسلام ، فكلها ديانات مطويات بيمين البهاء ، فالبهائية بناءً علىٰ هذه المزاعم ديانة عالمية ، فوحدة الأديان شعار زائف رفعته الماسونية العالمية من قبل ، منطلقة من دعاوىٰ تلمودية ، يهودية صهيونية ، غرضها خدمة أهداف اليهود في العالم(١٥) .

٥ ـ إبطال الشريعة الإسلامية وأحكامها ، وبالذات في شأن المرأة ، فهم دعاة للاختلاط المطلق بين الذكور والإناث ، وإلىٰ مساواة المرأة بالرجل مساواة مطلقة .

٦ ـ دعوة السلام العالمي التي تخدم إسرائيل واحتلالها لفلسطين ، والأراضي العربية ، ثم أيضاً دعوىٰ الصهيونية العالمية بالسيطرة علىٰ العالم .

٧ ـ الترابط بين اليهودية ـ التلمودية ـ والبهائية ، ومتابعة اليهود في منهجهم ، والاستمداد من التراث اليهودي .

٨ ـ ادعاء البهاء للألوهية ، ذلك أنه ادعىٰ أولاً خلافة الباب ، ثم ادعىٰ أنه المهدي المنتظر ، وأنه المسيح ، وأن جميع الأنبياء بشرت به ، ثم أعلن في نهاية المطاف أنه إله ورب ، وأنه «بهاء الله» ـ و«مظهر الله» ، و«منظر الله» الذي يتجلىٰ في طلعته جمال الذات الإلهية .

٩ ـ دعوىٰ البهائيين بعدم انقطاع الوحي والرسالة ، لأن انقطاع الوحي بعد محمد ﷺ ليس له سند في منطق الواقع كما يزعمون ، ويقولون أن الرسل شخص واحد ، ورسم واحد ، وذات واحدة ، وحقيقة واحدة فآدم هو نوح ، ونوح هو عين محمد ﷺ ، فالرسل علىٰ هذا الأساس حقيقة واحدة تتناسخ في الهياكل البشرية .

١٠ ـ إيمانهم بتناسخ الأرواح ، وينكرون الثواب والعقاب كما قال به الإسلام ، كما ينكرون اليوم الآخر(١٦) .

والغرض من كل هذه الدعاوىٰ والأفكار الباطلة هي القضاء علىٰ الإسلام ، والعمل علىٰ فرقة أهله حمايةً للاستعمار الغربي ـ وقد أفتىٰ علماء المسلمين بكفر البهائيين وخروجهم عن الإسلام .

٢ ـ الاستشراق :

هو أحد وسائل الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، ويرتبط بالتنصير ـ الذي سيأتي الحديث عنه لاحقاً ـ ارتباطاً وثيقاً ، وكلاهما يهدف إلىٰ خدمة الاستعمار الغربي ، وحماية مصالحه في عالم الإسلام ، وقد تلبس الاستشراق هيأة البحث العلمي ، كما تلبست حركة التنصير بلباس التظاهر بالرحمة ، والعطف علىٰ البسطاء والمساكين .

والاستشراق ـ كما يعرفه أهله ـ هو اشتغال طائفة من الباحثين بدراسة علوم الشرق وحضارته ، وأديانه ، ولغاته وثقافته ، وأسهم تياره في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي والعربي ، وعبر عن خلفية الصراع الحضاري ـ القديم والحديث ـ بين الغرب والشرق ، فالمستشرقون عندما درسوا الإسلام ، مبادئه ، وحضارته وتاريخه تحت ستار ما يسمىٰ بالبحث العلمي مثلاً ، لم يلتزم معظمهم بموضوعية البحث العلمي ، فلم يحرصوا

على إظهار الحقيقة بل عمدوا إلى تشويهها بباعث من التعصب البغيض ، والحقد على الإسلام وأهله ، والرغبة في طمس معالمه ، وهذا التعصب ـ كما يراه الكثيرون ـ راجع في جذوره إلي الحروب الصليبية ونزعتها العدائية للإسلام ، ومن ثم يمكن وصف الاستشراق بأنه أسلوب جديد وغريب للسيطرة على الشرق ، وللسيادة عليه ، وإعادة بنائه على النحو الذي يتفق مع العقلية الغربية ، وهو على ذلك مرتبط بمخططات الغرب الرامية إلى استعمار الشرق الإسلامي ، وإلى الهيمنة الفكرية ، والسيطرة على مقدرات المنطقة سياسياً واقتصادياً .

تباينت وجهات نظر المفكرين في ظاهرة الاستشراق ـ أسبابها ودوافعها ـ وتعددت الآراء في تحديد فترتها التاريخية ، بيد أن معظم المهتمين بالأمر أعادوا منطلقاتها الرئيسة إلى نزعة التعصب الديني ، وسمة الاستعلاء السياسي عند الغرب ، وأرجعها بعضهم إلى دوافع شخصية ، حين ازدهرت العلوم الإسلامية في القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري وانتشرت المراكز العلمية في العالم الإسلامي ، وإلى حوافز ثقافية ممن أغوتهم فكرة الاطلاع على ثقافة الغير ، والتعرف على حياتهم الاجتماعية ، والدينية والحضارية ـ لكن هؤلاء المستشرقين لم يكونوا على درجة واحدة من الإخلاص للعلم والمعرفة في أبحاثهم المتنوعة ، فهناك طائفة منهم أخلصت ، وكانت موضوعية في أبحاثها ، واستطاعت ـ على قلة عددها ـ أن تنصف الإسلام وتاريخه ، وحضارته من الافتراءات والمغالطات المردودة ، ولعل من أهم أولئك المستشرق ليوبولد فايس ـ الذي أسلم وتسمى باسم محمد أسد ، والمستشرق المبشر والذي أسلم أيضاً إبراهيم خليل أحمد ـ وهناك آخرون .

أما الطائفة الثانية من المستشرقين ـ وهي الأكثرية ـ فقد تعمدت الدس والتشويش ، وتقصت سلبيات المجتمعات الإسلامية ، فضخمتها محاولةً

أن تجعل من التفاصيل قضايا عامة ، ملحقةً أخطاء بعض الحكام المسلمين بالدين نفسه ، بغية إضعاف مواطن القوة ، واغتنام أماكن الضعف ، ولم يترك هؤلاء منفذاً يؤمن هدفهم ، ومصلحة دولهم السياسية إلا استفادوا منه ، سواء عن طريق التأليف والنشر ، أو عن طريق الجمعيات العلمية ، والمدارس ، والجامعات ، وإقامة المؤتمرات والندوات ـ وهم في كل ذلك لا يريدون سوىٰ : إيجاد دراسات تاريخية ودينية تشوه الإسلام ، وتحط من تعاليمه وقيمه ، وكذلك إدخال مفاهيم الغرب العصرية ـ المادية والعلمية ـ للطلاب الموفدين من البلاد الإسلامية ، إضافةً إلىٰ القضاء علىٰ قوة المسلمين والسيطرة علىٰ الثروة الاقتصادية في بلادهم(١٧) .

إن معظم المعطيات التي بين أيدينا ـ من كتابات المستشرقين الأدبية ، والتاريخية ، والسياسية والدينية ، تدين حركة الاستشراق وأهدافها المشبوهة ، وتربطها بعجلة السياسة الغربية التي لم تتردد يوماً عن استخدام كل الوسائل والسبل للوصول إلىٰ غاياتها الاستعمارية ، ويمكن تلخيص أهداف حركة الاستشراق في أمرين :

الأول : التبعية للغرب ، والاستسلام لقيمه المادية الحديثة ، وإظهارها وكأنها هي طريق الخلاص لأجيال المسلمين الناشئة ، حتىٰ يتخلوا عن مفاهيمهم وقيمهم الإسلامية .

الثاني : بث روح التخاذل الديني بين المسلمين ، بالتشكيك في دينهم ، وتاريخهم وإرثهم الحضاري ، وذلك بالتركيز علىٰ النواقض والسلبيات في هذه الجوانب ، وبتأويل النصوص الدينية ، وشرحها شروحاً منافية للتعاليم الإسلامية ، مما يقوىٰ فكرة الشك ، ويضعف الرابطة الدينية ، ويؤدي إلىٰ «تغريب» العقلية الإسلامية .

إن نظرةً سريعة إلىٰ أعمال معظم المستشرقين تكشف بوضوح مدي محاولتهم تشويه التراث الإسلامي ، والدس علىٰ الإسلام بمختلف

الأساليب ، ونشر الأباطيل حوله ، مثل القول ببشرية القرآن ، والادعاء بأنه من صنع محمد ﷺ ، ودعواهم بأن الإسلام اقتباس من الأديان السابقة ، اليهودية والنصرانية ، وأن النبي ﷺ تأثر بتعاليم تلك الأديان ، وحرّف في نصوصها ، وجعل فقرات القرآن ـ على حد قولهم ـ مضطربة ، كما أنهم صوروا القرآن على أنه دين العنف والدماء للانتقاص من مكانة الجهاد ، وشككوا في قدرة الإسلام واللغة العربية في مسايرة التطور ، وقالوا إن الفقه الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني ، وأثاروا ما يسمى بقضية تحرير المرأة ـ وموقف الإسلام منها ، وغير ذلك من الادعاءات والأباطيل[١٨] .

لقد أظهرت دراسات معظم المستشرقين سلبيات المجتمع الإسلامي ، وأهملت جوانب القوة والإيجابيات فيه ، وأكثروا من التأويلات الباطلة لإظهار عقم الفكر الإسلامي ، وجمود مذاهبه التي لم تعد تتماشى ـ حسب زعمهم ـ مع العصر الحديث وحضارته ، فالشريعة الإسلامية مثلاً ـ كما يدعون ـ لا تصلح لحكم البشر في العصر الحاضر متناسين تعاليمها التي تحث على التعاون الاجتماعي ، وعلى المساواة ، والحرية والعدالة التي لم تعرفها القوانين الوضعية الأوروبية إلا قبل حين .

إن دوافع الاستشراق وأسبابه متعددة ، منها الدوافع الدينية القائمة على مساعدة حركة التنصير في مهمتها وهي تنصير المسلمين بعد تشكيكهم في دينهم ، ثم العمل على هدم العقيدة الإسلامية كلياً ، وهناك الدوافع الاستعمارية ـ والتي تحدثنا عنها ـ وهي معرفة أوضاع المسلمين الواقعين تحت السيطرة الاستعمارية ، ومعرفة مواطن ضعفهم وقوتهم ، ثم العمل على تعميق أسباب الضعف ، وتضعيف مواطن القوة ليسهل استعمارهم بأيسر الطرق وأقل الخسائر والتكاليف .

إن أهم آثار حركة الاستشراق الخطيرة هي إثارة الشبهات حول الإسلام، وقد تلقفها تلاميذ المستشرقين من أهل التبعية ، والتغريب ،

والشعوبية ، وهذا واضح في كثير من الدعوات التي نادوا بها مثل الدعوة إلى اللغة العامية بدلاً عن الفصحى ـ التي أشرنا إليها ـ وكالدعوة إلى الإقليمية ، والقومية الضيقة ، كالفرعونية والفينيقية ، والبربرية وغيرها .

كما أن الاستشراق نال من المناهج التعليمية ، والثقافة ، والفكر في العالم الإسلامي خاصة على يد تلاميذ المستشرقين ، والغرض من ذلك خلق جيل لا يعرف دينه جيداً ، ولا يعرف حضارته إلا بصورة شائهة بسبب تلك المناهج التعليمية ، وبسبب ما بثه المستشرقون من أباطيل حول ثقافة الإسلام وفكره ، وكل هذه العوامل تضعف من فكر الأمة ، ومن ثقتها بنفسها وبعقيدتها ، فيسهل على المستعمر استعبادها .

ويلاحظ أن الاستشراق كحركة فكرية واجتماعية وسياسية ضمت الكاتب السيئ الذي اتصفت كتاباته بالتعصب والكراهية ، والكاتب الجيد الذي ابتعدت كتاباته عن الذاتية الضيقة والدس الرخيص ، وخدم العلم والحقيقة ، وأنجز أعمالاً بحثيةً دفعت بالمعرفة العلمية خطوات إلى الأمام ، على الرغم من أخطاء بعضهم المنهجية ، ومغالطاتهم الفكرية التي قللت من قيمة المعلومات التي توصلوا إليها ، وبما أن ميادين الاستشراق متعددة من تاريخية ، وسياسية ، وثقافية ، وأن موضوعاته متنوعة ، فإن منطلقاته لم تكن واحدة ، بل مختلفة ومتناقضة أحياناً ، فقد غلبت عليها السمة العلمية إبان النهضة الأوروبية التي قامت على تراث المسلمين العلمي في شتى المجالات ، ولكنها سرعان ما تحولت وارتبطت بمصالح دولها الخاصة الرامية إلى الانتفاع من ثروات الشرق الإسلامي والتنافس على استعماره .

وكما يُلاحظ أن الاستشراق أصبح بعد الحروب الصليبية ذا صبغة سياسية ودينية ، وأن بعض رجاله اهتموا بدراسة بلاد الشرق وعلومه ، تحت دوافع سياسية مشوهة ، حيث ظهر أن معظم كتابات المستشرقين في الدول

المستعمرة ذات أهداف مشبوهة وأحكام مسبقة ، لم تلتزم بالأمانة العلمية ، ولكن هناك بعض الأعمال الجليلة التي قام بها بعضهم ، فقد بلغ ما ألفوه في قرن ونصف القرن منذ أوائل التاسع عشر الميلادي حتى منتصف العشرين ستين ألف كتاب[١٩] فيه الغث وفيه الثمين ، وفيه المتحامل ، وفيه الموضوعي ، وقد لاحظ بعض الدارسين لحركة الاستشراق أن الألمان من أكثر المستشرقين دقة في التأليف ، وموضوعية في استقصاء الحقائق التاريخية ، وربما يعود ذلك إلى أن ألمانيا كانت أقل الدول الأوروبية استعمارية ، وقد تجلى هذا الإخلاص في البحث والمعرفة من خلال الأعمال التي قام بها «جوهان جاكوب رايسكه» سنة ١٧١٦ ـ ١٧٧٤هـ مؤسس الدراسات العربية في ألمانيا والذي تفانى في دراسة وخدمة اللغة العربية وآدابها ، وهناك آخرون أمثاله .

ولعل الدور المطلوب حالياً من رجال الاستشراق ، بعد أن أصبحت عملية التعارف بين الشرق والغرب ممكنة وسهلة ـ هو أن يقوموا على دراسة العلوم الاجتماعية والإنسانية ، والأخذ بمنجزات العصر الحديث ومكتشفاته ، والانفتاح بإخلاص وموضوعية على منجزات الشرق الإسلامي وحضارته الإسلامية العريقة[٢٠] .

٣ ـ حركة التنصير والبعثات التنصيرية :

التنصير هو عملية التحول إلى النصرانية سواء من الإسلام أو غيره من الديانات السماوية كاليهودية ، أو التقليدية كالوثنية وغيرها ، وللتنصير وسائله المتعددة من مدارس ، ومعاهد ، وجامعات ، ومستشفيات وملاجئ ، وصحافة ، وأفلام ، وإذاعة ، ودور نشر ، وندوات ومؤتمرات ، وغيرها من الأساليب والتكتيكات المدروسة والمجربة .

ودوافع حركة التنصير نابعة من العداء الذي يشعر به الغرب والكنيسة النصرانية للإسلام ، ومن خوفهما منه ، بسبب الاعتقاد الراسخ بأن الدين الإسلامي هو العقبة الحقيقية القائمة في طريق تقدم حركة التنصير في العالم، وفي سبيل سيطرة أوروبا على الشرق الإسلامي ، فالعداوة بين الإسلام وبين الغرب مزيج من عدة دعاوى دينية وسياسية ، ففي جانب الدعاوى الدينية يقول أحد دعامات حركة التنصير المدعو «زويمر» ـ «إن الهدف من التبشير هو تحويل المسلمين عن التمسك بدينهم» ـ ويقول غلادستون أحد رؤساء وزراء بريطانيا السابقين «ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هي نفسها في أمان» ـ ويقول منصر آخر : «إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في أفريقيا»(٢١) .

أما من جانب الدعاوى السياسية ، فإن المنصرين في نظر الاستعمار هم عيونه الذين يقومون بتمهيد السبيل له باستعمار الأمم الإسلامية ، فيمدونه بما يحتاجه من معلومات عن المسلمين وعقائدهم ، وآدابهم ، وثقافاتهم ، ويعملون على إظهار المستعمرين في غير مظهرهم الحقيقي حتى لا يتحد المسلمون في مقاومتهم له ، بل والعمل على عدم وحدة المسلمين حتى تتمكن النصرانية من التغلغل بينهم ، وفي هذا يقول أحد كبار المنصرين القس زويمر في أحد توجيهاته للمنصرين : «ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن في هذا هدايةً لهم وتكريماً ، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي فلا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية ، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السابقة خير قيام ، وهذا ما أهنئكم عليه ، وتهنئكم عليه دول المسيحية ، والمسيحيون جميعاً كل التهنئة»(٢٢) .

فغاية التنصير إذاً لم تكن هداية الناس إلى منهج الله عز وجل ، وإرشادهم إلى ما يصلحهم ، وإنما كانت إفساد المسلمين ، وتحطيم عقيدتهم وأخلاقهم ليسهل التغلب عليهم ، واستعمار بلادهم ، ولو كانت غاية التنصير خالصة لوجه الله ، ولخدمة الدين ، ونشر العقيدة النصرانية وتعاليمها ، لكانت شعوب أوروبا بذلك أحق ، وإليها أحوج ـ لأنها كما نشاهد ونعلم ـ زاهدةً مبتعدة عن دينها النصراني ، منصرفةً عن أخلاقه .

والتنصير ـ كحركة الاستشراق ـ هو أيضاً أحد صور الغزو الفكري الذي يستهدف زعزعة عقيدة المسلمين ، وتشكيكهم فيها ، بل وقطع صلة الشرق الإسلامي بماضيه قدر المستطاع ، وفي كل ناحية من النواحي ، وصبغ ذلك الماضي بلون قاتم حتى يزهد أهله فيه ، ويرغبون عنه ، فيفقدون أعظم جوانب قوتهم وحيويتهم ، ويصبحون «عالة على الغرب» يتطلعون إليه تطلع إعجاب وتقديس ، ويرون في خضوعهم له شرفاً كبيراً[٢٣] .

فالتنصير إذاً يهدف إلى تغريب أبناء الشرق المسلم ، وإبعادهم عن دينهم وقيمهم وربطهم بأوروبا ، وإلى تقطيع أواصر القربى بين الشعوب الإسلامية .

والذي لا شك فيه أن حركة التنصير خطر داهم على الإسلام والمسلمين لأنها تتستر وراء مظاهر براقة خادعة ، من ذلك وسائله والتي تبدو وكأنها أعمال خير ، وهي ليست كذلك ، فالغاية منها ليست خيراً ، وإنما الوصول بالنصرانية إلى الشعوب الأخرى ـ المسلمة وغيرها ـ ثم تسرب الاستعمار الغربي إليها ، فالمنصرون يعملون من خلال : التعليم ، وإنشاء المستشفيات والمصحات والملاجئ ، والأندية ، والجمعيات الاجتماعية ، والأندية ، والمخيمات والإعلام وغيرها من الوسائل ، بغرض نشر دينهم النصراني ، والمنصرون هم ساعد الحكومات الاستعمارية وسندها ، وهم مقدمة الزحف

الاستعماري الذي ابتليت به الأمة الإسلامية ، وغيرها من الأمم المغلوبة على أمرها . . وقد حقق المنصرون في هذا المجال نجاحاً كبيراً يفوق عشرات المرات النجاح الذي حققه السلاح في مضمار إخضاع الشعوب للهيمنة الأوروبية .

ومن أهم وسائل التنصير :

أ ـ إدخال المسلمين إلى الديانة النصرانية .

ب ـ فتح المؤسسات التعليمية ، من رياض للأطفال ، ومدارس ، ومعاهد ، وكليات ، وجامعات في أنحاء العالم الإسلامي ، ومن أمثلة ذلك أنه يوجد في أفريقيا ١٦,٦٧١ معهداً ، و٥٠٠ كلية وجامعة ، و٤٨٩ مدرسة لاهوتية لتخريج القسس والرهبان والمنصرين ، و١١١٣ روضة للأطفال .

جـ ـ تحطيم الحواجز بين المسلمين والكفار تحت شتار المساعدات الإنسانية الطبية والغذائية ، وبخاصة في إندونيسيا ، وبنغلاديش ، وبعض البلدان الأفريقية .

د ـ التركيز على إفساد المرأة المسلمة ، ومحاربة اللباس الشرعي (الحجاب) .

هـ ـ مراقبة العالم الإسلامي ، والتجسس عليه ، ورصد الحركات الإسلامية ، والثابت الآن أنه لكثير من المؤسسات التنصيرية صلات مباشرة بدوائر الاستخبارات في بلادها .

و ـ السيطرة على العالم الإسلامي عن طريق التغيير التعليمي ، والعمل الاجتماعي ، بإحداث المؤسسات ، وتقديم الخدمات المختلفة تحت ستار الإنسانية ، وكذلك عن طريق المشروعات الاقتصادية والعمرانية ، والتي

ظاهرها الرحمة وباطنها هو القضاء على الإسلام من العالم لأنه القوة التي تخيف أوروبا ، وذلك بالعمل على إضعاف شوكة المسلمين ، ومحو ذاتيتهم وهويتهم الإسلامية ، والحد من التوسع الإسلامي(٢٤) .

وكنموذج لاستهداف المنصرين للعالم الإسلامي نورد مثالاً واحداً هو استهدافهم لإندونيسيا المسلمة ، ومنه سندرك حجم التآمر الذي تتعرض له بلدان المسلمين ، وما يستوجبه ذلك على الأمة الإسلامية وقادتها من يقظة وحذر ، فالغارة التنصيرية على هذا البلد نشطة إلى الحد البعيد ، وفي سباق مع الزمن لتحقيق أهدافها ، قد وضعوا خطة عملهم ضد إندونيسيا في مؤتمرهم الذي عقدوه في مدينة (مالانج) الإندونيسية في عام ١٩٦٧م ، حيث قرروا أنه يجب الانتهاء من تنصير جزيرة «جاوا» والتي بها حوالي ٦٥ مليون نسمة خلال ستين عاماً ، بكل السبل والوسائل ، ولو عنى ذلك شراء المسلمين بالمال في ذلك البلد الفقير ـ ولدينا إحصائية توضح مدى الخطر الذي يهدد المسلمين في إندونيسيا ، وهي :

(إحصائية لعام ١٩٩٠م لمجلس كنائس إندونيسيا لطائفة البروتستانت) والتي توضح أنه يوجد في إندونيسيا :

ـ ١٥٨١٩ كنيسة بروتستانية .

ـ ٦٩٩٧ قسيس بروتستاني .

ـ ٢٠٢٠٣ منصر (مبشر) متفرغ .

إحصائية لعام ١٩٩٠ للكنيسة الكاثوليكية في إندونيسيا والتي توضح :

ـ ١٠٥٢٠ كنيسة كاثوليكية في إندونيسيا .

ـ ٨٧٣٠ قسيس كاثوليكي .

ـ ١٠١١٦ منصر (مبشر) متفرغ .

ليس هذا فحسب بل إن مؤسسات التنصير تملك عدداً كبيراً من السفن ، والطائرات العمودية لمساعدة المنصرين على الانتقال بين المدن والقرى ، والثلاثة آلاف جزيرة التي تتكون منها إندونيسيا ـ كما أن المنصرين يمتلكون عدداً كبيراً من دور النشر ، والمطابع الحديثة التي تقدم بطباعة كتب الأطفال ، والقصص المصورة ، وطباعة الإنجيل وتوزيعه مجاناً ، هذا بالإضافة إلى المكتبات العامة ، وشبكة اتصالات لاسلكية حديثة لتنسيق أعمال الإرساليات ولهم وسائل إعلامهم من صحف ، وإذاعات محلية في شتى أنحاء البلاد ، ولهم عشرات المعاهد ، والجامعات ، والمستشفيات الكبرى والمتنقلة ، وتكفي الإشارة أن مؤسسة تنصيرية واحدة تقوم على ١٨٠ مستشفى ، و١٢٩ مستوصف للولادة ، و٣٤٥ صيدلية ، و٤٥ عيادة متنقلة .

كما أن مجلس الكنائس العالمي والفاتيكان يسهمون بطريقة مباشرة في أعمال التنمية في إندونيسيا تحت شعار (من الكنيسة إلى المجتمع) ، حيث أنشأوا «هيئة مجلس الكنائس» للمساهمة في أعمال التنمية كمدخل جديد للوصول إلى قطاعات من السكان لا يستطيعون الوصول إليها بالطرق التقليدية ، وهناك العديد من المنظمات الأمريكية غير الحكومية العاملة في مجال التنصير والتي تحصل على دعم من بعض وكالات الأمم المتحدة ، مثل منظمة الصحة العالمية WHO ، ومنظمة الأغذية العالمية FAO ، ومنظمة اليونسكو ، واليونسيف إلخ ، علماً بأن الدول العربية والإسلامية تسهم في ميزانيات منظمات الأمم المتحدة تلك ، ومن تلك المنظمات المستفيدة من دعم الأمم المتحدة هي :

أ ـ مجلس الإرساليات الطبية الكاثوليكية والذي يعمل من خلال الطب والصحة العامة .

ب ـ خدمات الإغاثة الكاثوليكية ، وهي جزء من المؤتمر الكاثوليكي الأمريكي ، وهي تعمل من خلال الطب والصحة ، وتنمية المجتمع والرعاية الاجتماعية في الجزر الرئيسة بإندونيسيا .

جـ ـ صندوق الأطفال المسيحي .

د ـ جمعية الرحمة الدولية ، وتعمل في مجال رعاية الأيتام ، والأطفال اللقطاء إلخ .

هـ ـ المنظمة الكاثوليكية للتنمية .

وهذه مجرد أمثلة لبعض المنظمات التنصيرية المدعومة دولياً والتي تعمل في جد ومثابرة في إندونيسيا .

وإلى جانب هذه المنظمات فإن هناك العديد من المدارس ، والمعاهد والمستشفيات ، وملاجئ الأيتام ، ودور العجزة ، ومراكز الشباب التي تتبناها وترعاها منظمات ومؤسسات تنصيرية في هولندا ـ الدولة التي كانت تستعمر إندونيسيا .

ويتضح من كل هذا أن الإرساليات التنصيرية لم تترك باباً في إندونيسيا إلا طرقته ، ولا سبيلاً إلا سلكته لتحقيق حلمها في تنصير ذلك البلد المسلم ـ وهو حلم بدأ وبكل أسف يتحقق ، ولكن ببطءٍ وبشكلٍ مؤكد ، فالتغلغل التنصيري هناك شمل كافة أنحاء الحياة ، بل أنه يشرك الأجهزة الحكومية ، وبعض الهيئات الإسلامية معه في تنفيذ بعض البرامج ، مما يعطيه قدراً من السلطة والتأثير .

وواجب الدول الإسلامية والمنظمات الإسلامية الآن هو عدم التقاعس عما يجري في إندونيسيا ، وغيرها من بلدان العالم الإسلامي (وبخاصة في أفريقيا المسلمة) ، وبذل الجهد ضمن إطار مخطط مدروس من أجل التصدي

لهذا المد التنصيري الرامي إلى تحويل إندونيسيا كلها إلى النصرانية ، وهذا لن يكون بإذن الله .

وأخيراً نقول ونكرر القول إن النجاح الذي حققه التنصير يفوق بكثير النجاح الذي حققه السلاح ، ورغم ذلك فقد فشل المنصرون في مسعاهم تحويل المسلمين عن دينهم إلى حيث يريدون ، فاعترفوا بأنه لا يتحول إلى النصرانية إلا طفل مخطوف من أهله وهو صغير ، فيربى على النصرانية ، أو رجل فقير معدم لا يجد سبيلاً إلى العيش إلا بالدخول إلى النصرانية ليحصل على لقمة العيش ، أو رجل آخر يبغي الوصول إلى غاية شخصية . . ومعنى هذا أن المنصرين لم ينجحوا في تنصير المسلمين الحقيقيين ، فذلك أمر في غاية الصعوبة[٢٥] ، أما من الناحية السياسية ، فقد استطاعوا الهيمنة على المشرق الإسلامي لأنهم ملكوا (هم والمستعمرين) التكنولوجيا وأسباب القوة ، لا لأنهم نجحوا في جهودهم التنصيرية .

ويبقى الفقر منفذاً أساسياً يتسلل منه المنصرون إلى صفوف المسلمين ، ولابد للحكومات والمنظمات الإسلامية من سد هذه الثغرة ، والتنبه لخطر حركة التنصير ، والوقوف ـ بطرق علمية مدروسة ـ أمام مخططاتها الشريرة . . فهي تعمل عبر وسائل ماكرة خادعة .

٤ـ الميراث الاستعماري :

اهتم الاستعمار بتشجيع النزعات القومية والعنصرية برغم أن الإسلام دين لكل البشر ، والناس كلهم سواسية في الإسلام ، وأمته أمة واحدة ، دينها واحد ، ورابطها واحد ، وليس في الإسلام عصبية ، أو قبلية ، أو قومية ، فقد حاربها الإسلام جميعاً حينما جعل المسلم أخا المسلم ، فقال سبحانه وتعالى في سورة الحجرات : ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ . . ولما كان الاستعمار يدرك هذه الحقيقة ، ويعلم أهميتها بالنسبة للمسلمين ، فقد عمل

على إزالتها من نفوسهم ، وعلى تفتيت وحدتهم الدينية بإحياء النزعات القومية ، والإقليمية ، والعصبيات القبلية ، فمثلاً أراد أن يبعث في مصر فكرة «الفرعونية» التي تقوم على إحياء التراث الفرعوني ـ تراث ما قبل الإسلام ـ والاعتزاز به ، كما بعث «الفارسية» في إيران ، وسوغ لها وللحضارات الفارسية القديمة السابقة لحضارة الإسلام ، الاعتزاز بتاريخ الفرس القديم ، وكذلك أثار الاستعمار دعوى «الفينيقية» في بلاد الشام لنفس الأسباب والأهداف ثم «الآشورية» في العراق ، و«البربرية» في المغرب ، ولكن أهل المغرب قاوموها ، والغرض من كل هذه الدعوات الإقليمية الضيقة هو سلخ أجزاء العالم الإسلامي بعضها عن بعض تمهيداً لاستعمارها والسيطرة عليها .

ولما لم تنتصر هذه الدعوات الضيقة لجأ الاستعمار إلى نشر أفكار جديدة ، مثل فكرة العروبة التي أراد لها أن تكون رابطة قومية للعرب مناقضةً للإسلام ، ثم فكرة «الطورانية» في تركيا ، وهذه أيضاً لا صلة لها بالإسلام ، ثم أشعل النار بين القوميتين ـ العربية والتركية ـ وحاول التفريق بينهما ، بعد أن كان الإسلام يجمع بين الأمتين على مدى العصور الإسلامية المختلفة .

وفي ظل القومية العربية انسلخ القوميون عن جسم العالم الإسلامي ، ونظروا إلى قضاياه بما ينسجم ونظرتهم القومية ، لا كما يمليه عليهم إسلامهم ، فمثلاً سميت قضية فلسطين بالقضية العربية كأن لا علاقة للدول الإسلامية غير العربية بها ، وهي في الواقع قضية إسلامية .

والغرض من إثارة كل هذه الأفكار العنصرية الضيقة سواء كانت قومية ، أو وطنية ، أو اشتراكية ، وغيرها ـ هو اعتبار الدين عنصراً لا أهمية له ،

وفصل المسلمين عن عقيدتهم ، وإشاعة الفرقة والانقسام بينهم ، بحيث لا يبقى لهم وزن في المعايير السياسية الدولية ، وما لم تتحرك الأمة الإسلامية وتدافع عن وجودها في عالم تحكمه معايير القوة ، والرغبة في السيطرة على مقدرات الشعوب ، فإن التوتر والنزاع الطائفي ، والقومي ، والعرقي والديني سيستمر إلى ما لا نهاية(٢٦) .

ولعل من أوضح الأمثلة على تشجيع الاستعمار للنعرات العنصرية مشكلة جنوب السودان ، ومشكلة الأكراد في العراق ، وتركيا وسوريا وهو ما سنتناوله بشيء من التوضيح فيما يلي :

أ ـ مشكلة جنوب السودان :

هي مشكلة ورثها السودان من الاستعمار البريطاني ، وهي من صنع ذلك الاستعمار ، الذي سعى بكل السبل إلى تعميق الفوارق العرقية ، والدينية والثقافية بين شمال السودان وجنوبه بهدف فصل الجنوب عن الشمال ـ فعزل الجنوب إدارياً ، وثقافياً ودينياً عن الشمال ، وأدخل في روع الجنوبيين أنهم مستعمرون من سكان الشمال المسلمين ، وأن العرب في الشمال يستغلونهم ويغمطونهم حقوقهم السياسية والاقتصادية ، وأن أهل الجنوب عرقياً مختلفين عن أهل الشمال ، ومن أجل تعميق هذه الأفكار وغيرها أطلق للإرساليات التنصيرية يدها في الجنوب ، فمنحها كل ما تحتاجه من عون وسند ، وبالمقابل حارب الإسلام هناك ، ومنع انتشاره بكافة السبل ، وسن القواين لمنع اختلاط أهل الشمال بأهل الجنوب خوفاً من أن ينتشر الإسلام بينهم ، وقد أدت سياسة العزل السياسي والحضاري هذه إلى المواجهة بين الشمال والجنوب ، وليست الحرب الدائرة في جنوب السودان الآن ـ والتي تستنزف موارد البلاد كلها ـ حرباً بين الإسلام والنصرانية كما تصورها أجهزة الغرب الإعلامية الاستعمارية ، وإنما هي

نتيجة لتفاعلات الخلافات الحضارية ، والثقافية والسياسية التي زرعها الاستعمار البريطاني ، والمؤسسات الكنسية في أرض الجنوب ، وهي أيضاً نتيجة الأباطيل التي ملأ بها الاستعمار عقول بعض الجنوبيين ممن تخرجوا في مدارس إرسالياته التنصيرية ، وتشبعوا بفكره ، وأباطيله عن أهل الشمال وآمالهم في أرض الجنوب[٢٧] ، ولو كانت الحرب بين أهل الشمال المسلمين وأهل الجنوب النصارىٰ والوثنيين حرباً دينية ـ كما يعتقد أهل الغرب وتروج له وسائل إعلامهم ـ لما وجدنا أن الأغلبية من اللاجئين من تلك الحرب من الجنوبيين يلجأون إلىٰ شمال السودان المسلم ، ويعيشون في أمن وسلام بين ظهراني أهله ، وحتىٰ الذين لجأوا منه إلىٰ دول الجوار الأفريقية بدأوا يعودون إلىٰ أرض الشمال ، وأخيراً يبقىٰ القول إن الإسلام لا يريد أن يغزوا الجنوب أو غيره من البلاد الأفريقية ، وهو ليس بحاجةٍ إلىٰ ذلك ، فالإسلام دائماً ينتشر سلماً وليس قهراً ولا جبراً .

ب ـ المشكلة الكردية :

وهي أيضاً من صنع الاستعمار يوم أن خطط الحدود السياسية التي تفصل بين أمة تركية وأمة عربية ، وأمة إيرانية ـ ثم فرق الأكراد ، وألحق كل مجموعةٍ منهم بوطن من أوطان هذه الأمم الإسلامية ، فمزق هويتهم ، وعمق إحساسهم بالضياع والتشتت ، فمواطنهم متعددة ، وواقعة في أراضٍ وعرة التضاريس ، بعضها في شمال العراق ، وبعضها الآخر في شرق ، أو جنوب شرق تركيا ، وبعضها الثالث في غرب إيران ، ومن ثم تولد للأكراد شعور بأنهم حبيسوا هذا الوطن المحدد تحيط بهم الأمة العربية والأمة الإيرانية ، والأمة التركية من كل جانب ، وأنهم سلالياً مختلفين عن هذه الأمم ـ ولا غرو إذاً إذا وقع الصراع بينهم وبين تلك الأمم وذلك هو مراد الاستعمار ومطلوبه ، فهم يرمون إلىٰ فرقة المسلمين بتشجيع النزاعات

القومية والعنصرية بينهم ، ولو تمسك المسلمون كلهم بإسلامهم ورابطهم الإسلامي لما انفك عقد وحدتهم ، ولما قامت الحروب والمنازعات بينهم .

جـ ـ المشكلات الحدودية :

وهذه من أقسى المشكلات التي ورثها الاستعمار للحكومات الوطنية التي خلفته في حكم كثير من بلدان العالم الإسلامي ، فقد قسم الاستعمار البلاد الإسلامية التي سيطر عليها إلى مناطق نفوذ ، بريطانية ، وفرنسية ، وإيطالية إلخ ، ثم قسم مناطق النفوذ تلك إلى وحدات متعددة ، وقد بدا ذلك واضحاً في سياسة الاستعمار الفرنسي في سوريا ، حيث قسمها إلى أربع وحدات ، ثم إلى وحدتين هما : سوريا ولبنان ، وسياسة الاستعمار في كل ذلك هي ترسيم حدود جغرافية مصطنعة دون مراعاة لخطورة تمزيق العناصر البشرية الواحدة ، وهدف الاستعمار دائماً هو تمزيق العالم الإسلامي جغرافياً وسكانياً ، وخلق بؤر صراع بين كل دولة وجاراتها وبخاصة في المناطق ذات الثراء الاقتصادي فمثلاً عمد إلى خلق ما يعرف بالمناطق المحايدة بين بعض الدول الخليجية وغيرها ، الأمر الذي أثار صراعات حدودية بين تلك الدول ، فهناك الآن صراع بين المغرب والجزائر على بقعةٍ من الأرض ذات ثراء معدني ، ثم كانت قضية الصحراء المغربية ، ثم اقتطع الاستعمار لواء الإسكندرونة السوري وألحقه بتركيا ، وهناك قضية شط العرب والحدود بين إيران والعراق ، وقضية كشمير بين الهند وباكستان ، وقضية شمال بورنيو بين إندونيسيا وماليزيا ، وقضية حلايب بين السودان ومصر ، والقضية الحدودية بين اليمن والسعودية ، وبين بعض دول الخليج ، بعضها مع بعض ، والتي وصل بعضها إلى محكمة العدل الدولية بلاهاي ، وغيرها من القضايا الحدودية التي أوجدها المستعمر قبل رحيله

لإلهاء تلك الدول الإسلامية في صراعات جانبية ، تتطلب التهافت على شراء الأسلحة من أسواق المستعمر ، مما يؤدي إلى ثرائه ، وإثقال كاهل تلك الدول بالمديونية له ، وبذلك يجعلها تابعة له ، فيسهل عليه الهيمنة عليها من خلال شروط توريد السلاح ، أو منح المساعدات والقروض المالية[٢٨] .

د ـ سيطرة ثقافة المستعمر :

من الاستراتيجيات التي اعتمد عليها الاستعمار في تركيز هيمنته على الدول الإسلامية الواقعة تحت سيطرته ، تغليب ثقافته ولغته على ثقافة ولغة تلك الدول ، وخلق طبقة من متعلمي ذلك البلد ـ تعلموا في معاهده وعلى يديه ـ لتقوم بأعباء الحكم من بعده ، وهذا ما عرف بتهيئة الأقليات للحكم ، وبخاصة الأقليات النصرانية التي ستقوم برعاية مصالحه (المستعمر) على حساب مصالح أممها الإسلامية ، فمثلاً تتحكم الأقليات النصرانية الحاكمة في عدد من البلاد الأفريقية ذات الكثافة المسلمة ، كان ذلك في تشاد ـ على سبيل المثال ـ وحتى عهد قريب ـ فقد حكمت تلك البلاد فئة تقل نسبتها عن ١٠٪ من نسبة السكان المسلمين البالغة ٩٠٪ ـ وقد تغير هذا الوضع الآن ، أما في أرتيريا ، وأثيوبيا وتنزانيا مثلاً فالحكم للأقلية النصرانية التي تتحكم في رقاب الكثرة المسلمة هناك ، ولعل السبب في ذلك أن الاستعمار قد عمل في تلك البلاد وغيرها على جعل الأكثرية المسلمة في حالة من الجهل ، والفقر والتأخر بحيث لا تستطيع تولي ا لمراكز القيادية في الدولة ، وحتى إذا ما أفاقت تلك الأكثرية وبدأت تطالب بحقوقها المشروعة ، أو تطالب في أحيان بجعل الإسلام منهجاً لحكمها ، قام الاستعمار وأعوانه من أبناء البلاد يعارضونهم ويقاومونهم بكل السبل ، فتبقى تلك الأكثريات وحيدة في الميدان تواجه معارضة الاستعمار وأعوانه ، التي لا طاقة لها بمقاومتها[٢٩] .

هـ ـ إسقاط الخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية :

عمد المستعمرون بعون من الصهيونيين والعلمانيين ـ كما رأينا في موضع سابق من هذا المؤلف ـ إلى إسقاط الخلافة العثمانية ، لكونها نواة اتحاد المسلمين ، ولكونها أساس الحكم في الإسلام ، والقائمة على أمور المسلمين كلها ، وقد تعرضنا سالفاً لكيفية إسقاط الخلافة ، والآثار السلبية التي ترتبت على إسقاطها[٣٠] .

هوامش الفصل الثالث

(١) محيي الدين حسن القضماني ـ المرجع السابق ـ ص ٥٨ ـ ٥٩ ـ كذلك : جميل عبدالله المصري ـ حاضر العالم الإسلامي ـ ص ٢٢٧ ـ ٢٣٩ .

(٢) محمد زين الهادي العرماني ـ نشأة العلمانية ودخولها إلى المجتمع الإسلامي ـ الرياض سنة ١٤٠٧هـ ـ ص ١٥ ـ ٢٤ .

أيضاً : سفر الحوالي ـ وباء العلمانية ـ القاهرة سنة ١٤٠٩هـ ـ ص ١١ .

(٣) محمد عوض الهزايمة ـ حاضر العالم الإسلامي ـ ص ١١٤ ـ ١١٥ .

(٤) جميل عبد الله المصري ـ مرجع سابق ـ ص ١٨١ ـ ١٨٣ .

(٥) المرجع السابق ـ ص ١٨٧ ـ ١٩٧ .

(٦) المرجع السابق ـ ص ١٩٨ ـ ٢٠٦ .

(٧) أبو الأعلى المودودي ـ ما هي القاديانية ـ الكويت ـ ط٢ ـ ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ـ ص١٢ .

(٨) أبو علي المودودي ـ مرجع سابق ـ ص ٥١ ـ ٥٢ .

(٩) نفس المرجع ـ ص ٦٣ ـ ٦٥ .

(١٠) لتاريخ موجز للقاديانية ـ انظر : محمد عوض الهزايمة ـ مرجع سابق ـ ص ٢٢٦ـ٢٧٠ .

(١١) أمين القضاة ، ومحمد الخطيب ، ومحمد الهزايمة ـ أديان وفرق ـ عمان ـ الأردن ـ ١٩٩٠م ـ ص ٦٨ .

(١٢) محسن عبد الحميد : حقيقة البابية والبهائية ـ بغداد ـ ١٩٧٧م ـ ص ٦٨ .

(١٣) محمد عوض الهزايمة ـ مرجع سابق ـ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

(١٤) أمين القضاة وآخرين ـ مرجع سابق ـ ص ١٧٧ .

(١٥) محمد عوض الهزايمة - مرجع سابق - ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(١٦) أمين القضاة وآخرين - مرجع سابق - ص ١٨٢ - ١٨٩ .

(١٧) عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني : أجنحة المكر الثلاثة - بيروت - ١٩٨٢م - ص ١١٢ .

أيضاً : صالح زهر الدين : الإسلام والاستشراق - بيروت - ١٩٩١م - ص ٣٤ .

(١٨) منذر معاليقي : الاستشراق في الميزان - بيروت - ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م - ص ٢٣ - ٣٣ .

(١٩) إدوارد سعيد - الاستشراق - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت - ١٩٨١م - ص ٢٠٦ .

(٢٠) منذر معاليقي - مرجع سابق - ص ١١١ - ١٥١ .

(٢١) محمد عوض الهزايمة - مرجع سابق - ص ١٠٨ .

(٢٢) محيي الدين حسن القضماني - مرجع سابق - ص ٤٥ .

(٢٣) المرجع السابق - ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢٤) داؤد علي الفاضل الفاعوري - مرجع سابق - ص ٨٠ - ٨٢ .

(٢٥) للتنصير في إندونيسيا - انظر : جميل عبدالله المصري - حاضر العالم الإسلامي - ج ٢ - ص ٤٨١ - ٤٩١ .

أيضاً : محيي الدين حسن القضماني - مرجع سابق - ص ٤٥ .

(٢٦) محمد عوض الهزايمة - مرجع سابق - ص ١١٧ - ١٢١ .

(٢٧) هناك العديد من الدراسات حول مشكلة جنوب السودان ، بعضها كتبه المنصرون ومن والاهم ، وهي كتابات تفتقر إلى الموضوعية ،

ومعظمها باللغة الإنجليزية ، وهناك دراسات قام بها آخرون ـ سودانيون وغير سودانيين . . وهي تطرح وجهة نظر أهل الشمال أحياناً ، وتعالج في معظمها المشكلة علاجاً علمياً وموضوعياً ، منها على سبيل المثال : كتابات محمد عمر بشير ، وبشير محمد سعيد ـ وكلاهما باللغة الإنجليزية ـ وهناك كتابات R.Gray وآخرين .

(٢٨) محمد عوض الهزايمة ـ مرجع سابق ـ ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٢٩) نفس المرجع ـ ص ١٢٥ .

(٣٠) لسقوط الخلافة العثمانية : انظر : جميل عبدالله المصري ـ حاضر العالم الإسلامي ـ ج١ ـ ص ١٠٧ ـ ١٤٠ .

الفصل الرابع
اتجاه مقاومة الاستعمار الغربي في القرن الثالث عشر الهجري
(التاسع عشر الميلادي)

الصحوات الإسلامية :

لمصطلح «الصحوات الإسلامية» عدة معاني : فهو يطلق مثلاً على الحركات الإسلامية التي ظهرت في بعض بلدان العالم الإسلام ـ خاصةً في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) ـ التي قامت بهدف محاربة ما ساد تلك البلاد من سلوك وممارسات تتنافى مع جوهر الدين الإسلامي الحنيف ، وذلك عن طريق إعادة الدين إلى مكانته الأولى التي عاشها زمن الرسول الكريم ﷺ ، وزمن خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم جميعاً، أي الرجوع إلى دين السلف الأول الخالي من البدع والضلالات .

ولقد كانت إحدى تلك الحركات دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية في نجد ، وكذلك الدعوة السنوسية التي اتخذت من برقة بليبيا منطلقاً لها ، والثورة المهدية في السودان ، ويشمل مصطلح «الصحوات الإسلامية» إلى جانب هذه الحركات الثلاث ، فكرة «الجامعة الإسلامية» التي تزعم الدعوة إليها جمال الدين الأفغاني ، وساعده في نشرها صديقه وتلميذه المصلح الإسلامي محمد عبده ، وحمل لواءها من بعد ذلك الشيخ رشيد رضا ، صاحب مجلة «المنار» الإسلامية ، وأنصاره ممن ساروا على دربه السلفي .

واتسع مدلول مصطلح «الصحوات الإسلامية» ليشمل الحركات التحررية التي شهدتها بعض بلدان العالم الإسلامي ، الرامية للتخلص من السيطرة الاستعمارية المعادية للإسلام وأهله ، كما أصبح هذا المدلول يطلق على بعض المشروعات الوحدوية الإسلامية والعربية التي تعمل على جمع شمل المسلمين ، وتعزيز تضامنهم ، مثل منظمة المؤتمر الإسلامي ، ورابطة

العالم الإسلامي ، وما تفرع عنهما من مؤسسات ثقافية ، واقتصادية ، وإعلامية .

ولعل خروج بعض المسلمين عن جوهر العقيدة الصحيحة كان سبباً من أسباب ظهور هذه الصحوات التي جاءت لترد الناس إلىٰ جوهر الدين ، وإلىٰ وحدتهم الإسلامية الأولىٰ بعد أن شتت الاستعمار تلك الوحدة ، بحيث يتمكن المسلمون من الوقوف أمام الهجمات الاستعمارية .

وهناك من يرد بدايات هذه الصحوة إلىٰ أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي ـ حيث كانت أفكار شيخ الإسلام ابن تيمية الذي عاش في الفترة ٦٦١ ـ ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م ، وعايش دمار التتار في العالم الإسلامي ، فدعا إلىٰ إصلاح النفوس بالرجوع إلىٰ القرآن الكريم ، وإلىٰ تأكيد عقيدة التوحيد ، وهاجم خصوم العقيدة الإسلامية الصحيحة ، وفقهاء العصر الجامدين ، ورجال الحكم الذين استبدوا بالسلطة فأفسدوها ، وعليه فقد تركزت دعوته في إلىٰ الرجوع إلىٰ إسلام السلف الصالح الخالي من البدع والشوائب ، وإلىٰ فتح باب الاجتهاد ، وترك طريق الفلاسفة والمتكلمين لأنها لا تتفق مع الروح السلفية[١] . . . وقد كانت دعوة «التوحيد» التي نادىٰ بها شيخ الإسلام ابن تيمية عاملاً مشتركاً بين كل الدعوات السلفية الأخرىٰ ، ونقصد بها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد ، والدعوة السنوسية في الشمال الأفريقي ، والثورة المهدية في السودان . وسوف نتناول هذه الصحوة ودعواتها بشيء من التفصيل فيما يلي :

١ ـ الحركة السلفية في نجد :

نشأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي في نجد حيث انتشر المذهب الحنبلي بعد موت الإمام أحمد بن حنبل في عام ٢٤١هـ ميلاده في بلدة

«العيينة» سنة ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م في أسرة علمية ميسورة الحال ـ و«العيينة» قرية باليمامة غرب مدينة الرياض ، عاصمة المملكة العربية السعودية ، تتلمذ على أبيه ، وحفظ القرآن الكريم وعندما بلغ العاشرة من عمره ، وأحاط في حلقة أبيه بكتب السلف ، وبخاصة بمؤلفات ابن تيمية التي ملكت عليه لبه ، وقد تأثر بها ، وكان لها ولشخصية ابن تيمية أثر واضح في تكوين شخصيته ، إلى جانب أثر أبيه وما تلقاه من علم على يديه ، ثم أثر الرحلات التي قام بها في طلب العلم ، فقد زار الحجاز حاجاً وهو يافعاً ، وشهد هناك مظاهر كثيرة للشرك ـ من تعظيم للقبور ، واستغاثة بالموتى ، كما أنه تأثر كثيراً بما شاهده في المسجد الحرام من حلقات طلاب العلم حول مشايخ يُدرسون مختلف العلوم النافعة ، وبما لاحظه من وحدة إسلامية متجلية في مشاعر الحج ، وكانت هذه الانطباعات حافزاً له لمواصلة تعليمه ، ثم زار المدينة المنورة ورجع إلى بلده العيينة ، ولكنه سرعان ما رجع مرةً أخرى إلى الحجاز لتلقي العلم على علمائه ، وهناك أدرك حاجة الأمة بعامة ، وحالة نجد والحجاز بخاصة للإصلاح ، ثم عاد إلى نجد ، وارتحل مرة أخرى إلى البصرة طلباً للعلم ، فدرس فيها الفقه والحديث على عدد من علمائها ، لكن الشيخ العالم محمد المجموعي كان الشيخ الذي لازمه أكثر من غيره(٢) .

وفي البصرة رأي الشيخ محمد كثيراً من الأمور التي كانت مخالفةً للحق ، مثل تقديس الشيعة للأضرحة ، والمزارات والأئمة ، فاستنكر كل ذلك في مجالسه ، مما أثار عليه بعض العامة ، فأُخرج من البصرة إلى الزبير ، ومن هناك توجه إلى الأحساء ، ثم إلى حريملاء ، وفيها أي «حريملاء» وضع كتابه «التوحيد الذي هو حق المولى على العبيد» وأعلن دعوته ، فحاولوا قتله ، فهجر «حريملاء» إلى بلده «العيينة» حيث ناصره أميرها عثمان بن حمد بن عبد الله بن معمر ، فجاهر بدعوته ، وازداد

أتباعه، وظهر أمره لمساندة السلطه له ، وفي العيينة بدأ تطبيق مبادئ دعوته ، فقام هو وأتباعه بقطع الأشجار التي يتوسل بها الجهال ، وهدم القبة المبنية على قبر في الجبيلة كان الناس يظنون أنه قبر زيد بن الخطاب رضي الله عنه ـ ولكن الأمر الذي أدى إلى إخراجه من العيينة ـ بضغط من أمير الأحساء ـ كان إقامته الحد على إمرأة ثبتت عليها جريمة الزنا .

وبعد إخرج الشيخ محمد من العيينة ، ذهب إلى الدرعية ، وهناك كان ائتلافه مع أميرها محمد بن سعود ، وتعاهدهما على نشر الدعوة ، وتطبيق مبادئها ، فكان قيام الدولة السعودية الأولى على منهاج هذه الدعوة السلفية[٣] .

ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا تنادي بمذهب جديد ، وإنما تنادي بإحياء الدين ، والدفاع عن السنة ، والوقوف في وجه الخارجين عليها ، والشيخ يجتهد رأيه ، ولا يقلد أحداً ، وإذا وجد في غير المذهب الحنبلي ما هو أصلح للناس ، فهو يذهب إليه باجتهاده . . وقد أقام دعوته على المبادئ التالية :

١ ـ العودة بالإسلام إلى صفائه الأول ، وترك مختلف البدع والشركيات، وذلك بالرجوع إلى الكتاب والسنة في معالجة أمور الحياة .

٢ ـ الدعوة إلى التوحيد ، وتحرير الذات الإنسانية من الاستعباد للبشر ، فلا إله إلا الله وحده ، والخلاص من كل ما يتنافى مع التوحيد وكماله ، مثل التبرك بالأولياء ، والتمسح بالمشايخ ، والتقرب إلى الله بزيارة قبور الصالحين .

٣ ـ إنكار تأويل القرآن ، والاهتمام بظاهر النص .

٤ ـ فتح باب الاجتهاد ، وتحرير الفكر الإنساني من مذلة التقليد ،

واتباع السابقين ، إلا أن يكون عملاً نتبعه ونحن نفهمه ، عمله الرسول ﷺ وصحبه ، فذلك اتباع لا تقليد .

٥ ـ الدعوة الصادقة للإسلام بالجهاد في سبيل الله ، أمراً بالمعروف أو ائتماراً به ، ونهياً عن المنكر ، أو انتهاءً به ـ ومن ثم فقد تعاهد الشيخ محمد ابن عبد الوهاب مع الأمير محمد بن سعود على الحرب ، وخاض معاركها .

ومن ثم فإن أهم ما تهدف إليه دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إفراد الله سبحانه بالعبادة ، ومحاربة الشرك بجميع أنواعه ، وسد الذرائع المؤدية إليه ، والقضاء على البدع في الدين ، وتطبيق الشريعة الإسلامية في كل أمور الحياة وذلك في ظل دولة قادرة على تحقيق تلك الأهداف(٤) .

وقد كان لهذه الدعوة آثار واضحة في عدد من بلدان العالم الإسلامي ، وتأثرت بها دعوات إصلاحية أخرى ، سواء كان ذلك في الهند ، أو في إندونيسيا ، أو في غرب أفريقيا ، أو في شمالها ، أو حتى في تايلاند(٥) ، وكان لأثرها هذا أسباب ، منها :

١ ـ أن الدعوة قامت وترعرعت وقويت في أواسط الجزيرة العربية ـ بعيدةً عن التحديات الخطيرة التي واجهها العالم الإسلامي كله من خلال النفوذ الاستعماري الزاحف .

٢ ـ كما أن الدعوة انبعثت في الجزيرة العربية ـ مهد الإسلام ـ وأنها استهدفت كل المسلمين القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي قاصدين بيت الله الحرام .

إضافة إلى ذلك فإن دعوتها إلى التوحيد كانت أقوى علامات المقاومة للاستعمار والنفوذ الغربي ، وللانحرافات في عالم الإسلام ، بحسبان أن الإسلام دعوة لا تقر العبودية إلا لله وحده ، متخطيةً بذلك جبرية التصوف والتواكل .

وقد حرص الاستعمار ـ من ثم ـ على وأدها والقضاء عليها ، فأوغر صدر الدولة العثمانية عليها ، وأوهمها أن فيها خطراً عليها وعلى نفوذها ، فأوعزت الدولة بدورها إلى محمد علي باشا في مصر بإسقاطها ، فجرد عليها الجيوش ، واستطاع القضاء على دولتها في الدرعية ، ولكنه لم يستطع القضاء على الدعوة وفكرها ، فاستطاعت الدعوة أن توسع مداها ، وتأثر بها دعاة سلفيون آخرون في الهند[٦] ، والعراق ، والشام ، ومصر ، والمغرب ، فكان من تلاميذها الألوسي الكبير في بغداد ، وجمال الدين القاسمي في الشام ، وخير الدين التونسي في تونس ، وأحمد بن عرفان الشهيد ، وصديق حسن خان في الهند ، وعثمان دن فوديو في غرب أفريقيا ، وغيرهم ، وانبعثت منها حركات ودعوات أخرى ، كالسنوسية في الشمال الأفريقي ، والحركة المهدية في السودان[٧] .

٢ـ الحركة السنوسية في ليبيا :

هي إحدى التيارات الإصلاحية الإسلامية التي نشطت في أنحاء متعددة من العالم الإسلامي منذ منتصف القرن الثالث عشر الهجري/ الثامن عشر ـ التاسع عشر الميلادي ، بهدف القضاء على البدع ، والعودة بالإسلام إلى نقائه الأول ، مؤسسها هو محمد بن علي السنوسي المولود في إحدى قرى الجزائر في عام ١٢٠٢هـ/ ١٨٧٨م ، والمتوفى في ليبيا عام ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م ، والسنوسية ليست مذهباً دينياً ، أو حركة سياسية قومية نشأت أصلاً لتحقيق أغراض سياسية ، أو مطالب قومية .

تأثر السنوسي بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إبان وجوده بمكة ، وكانت غايته هي العودة بالعقيدة الإسلامية إلى جوهرها الأصيل ، وذلك كما قال : «بتنبيه الغافل ، وتعليم الجاهل ، وهدي من ضل سواء السبيل» وكذلك كان يهدف إلى نشر الإسلام بين الشعوب الأفريقية الوثنية ، وذلك

عن سبيل نشر الدعاة ، الذين كان يرىٰ أن إنشاء «الزاوية» أمر ضروري لإعدادهم ، ولبث الدعوة ، لا سيما في البيئة الصحراوية ، خاصة وأن السنوسية كانت قد اتخذت من الصحراء الليبية ميداناً لنشاطها .

وتتفق السنوسية في مبادئها مع كافة المبادئ نادىٰ بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، كالعودة بالإسلام إلىٰ نقائه الأول ، والتركيز علىٰ الكتاب والسنة ، وفتح باب الاجتهاد ، وتنقية الدين مما علق به من ضلالات وبدع ، كما تضمنت السنوسية النهي عن حياة الترف ، واتباع قواعد الدين في أبسط مظاهره كما أرسله الله تعالىٰ إلىٰ رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ـ ولا تزال مبادئ الدعوة السنوسية قائمة حتىٰ وقتنا هذا .

وقد أراد السنوسي لدعوته أن تقوم علىٰ المحبة والإقناع ، والبعد عن مغامرات السياسة ، فأقام «زواياه» لتكون بمثابة خلايا حية تمتد منها الحياة إلىٰ سائر جسم الأمة الإسلامية ، فأصبحت مراكز للتربية ، والتهذيب ، والتعليم ، وإيقاظ العاطفة الدينية السليمة كما أنها صارت مراكز توجيه للحياة العامة ، فهي بذلك مراكز إصلاح إنساني متكامل من الناحية الدينية ، والعقلية ، والاجتماعية . . إلخ ، وعن هذا الطريق السلمي وصلت الدعوة السنوسية إلىٰ أهدافها ، واستطاعت أن توسع نفوذها ، فأسلوبها أسلوب سلمي ، ولعل هذا هو ما دعا الدولة العثمانية لمعاضدتها ، بل إن السلطان عبد المجيد أصدر في عام ١٨٥٦م فرماناً سلطانياً ينص علىٰ أن الزوايا حرماً آمناً ، وحمىً يلجأ إليه ـ وهذا بخلاف ما لقيته الدعوة السلفية في نجد من معارضة السلطات العثمانية لها .

وقد استطاعت الدعوة السنوسية أن تنتشر في شمال أفريقيا ، وأجزاء من غربها ، وأن تنشر الإسلام بين القبائل الوثنية هناك عن طريق دعاتها وزواياها المنبثة في كل مكان ـ والسنوسية امتداد للدعوة السلفية وأن اختلفت في وسائل نشر مبادئها ، وقد تحولت السنوسية كليةً إلىٰ مقاومة عسكرية

مسلحةً عندما دخلت إيطاليا إقليم طرابلس الغرب في عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م .

واستطاعت السنوسية أن تحقق عدة نجاحات منها : إصلاح المجتمع البدوي الليبي ، حيث أوجدت في الصحراء مجتمعاً متحداً ومتعاوناً ، كما أنها أوجدت سلطة دينية تولت الإشراف على الفرد والجماعة في تلك الأصقاع الصحراوية ، ونشرت العلم والمعرفة الدينية في الصحراء عن طريق زواياه المتعددة ، وكذلك نشرت الدين ومبادئه بين القبائل الوثنية في غرب ووسط أفريقيا ، ثم استطاعت أن توجد مقاومة عسكرية فاعلة للنفوذ الأجنبي عندما غزا الإيطاليون ليبيا[٨] ، كما قاومت الاستعمار الفرنسي في الشمال الأفريقي .

٣ ـ الحركة المهدية في السودان :

قامت هذه الحركة على يد مؤسسها محمد أحمد المهدي (١٨٤٤ ـ ١٨٨٥م) الذي ولد في جزيرة «لبب» جنوب مدينة دنقلة ، لأسرةٍ قيل إنها من «الأشراف» وقد حفظ القرآن في صغره في «خلوة» القرية ، ثم تجول في أنحاء السودان طلباً للعلم ، فزار الخرطوم ، وبربر ، والجزيرة ، وتعددت اتصالاته برجال الدين السودانيين ، وحتى ببعض رجالات الطرق الصوفية ، وكان لترحاله هذا ، ودخوله في إحدى الطرق الصوفية ثم خروجه منها ، أكبر الأثر في الدعاية له ، كرجل عابد زاهد ، يتأفف عن أكل الحرام ، ويأكل من كده حتى يكون مطعمه حلالاً ، وقد ساعدته هذه السمعة الطيبة على تكوين جماعة جديدة تأتمر بأمره ، وتنفذ إرشاداته ، كما أن تجواله ذاك مكنه من الاطلاع على أحوال المسلمين السيئة في شتى أنحاء السودان ، وتفشي البدع والضلالات بينهم ، كتعلقهم بالأولياء ، وتعظيم القبور ، وبممارسات الطرق الصوفية التي لا يخلو بعضها من كثير من الأمور البدعية

والشركية . . إضافةً إلى ذلك فقد اطلع محمد أحمد المهدي في رحلاته تلك على أحوال البلاد السياسية السيئة ، الأمر الذي جعله يفكر في كيفية إصلاح أحوال أهل السودان الدينية والدنيوية ، وهو في هذا يشابه أصحاب الدعوتين السلفيتين ـ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد ، والدعوة السنوسية في ليبيا . . وقد واجه كلاهما أوضاعاً دينية وسياسية في بلده كالتي واجهها «المهدي» وأراد تغييرها .

وقد اشتهر محمد أحمد بالزهد ، والورع والتقشف ، الأمر الذي دعاه إلى الانتقال ، والعيش في جزيرة نائية على النيل الأبيض ـ هي الجزيرة «أبا» بغرض الاختلاء والتعبد ، وربما لجمع الأتباع حوله استعداداً لبدء حركة تعمل على إصلاح أحوال المسلمين في السودان ـ الدينية والدنيوية ـ كتحرير العقيدة مما لحق بها من شوائب وضلالات ، وممارسات خاطئة ، وذلك بالرجوع إلى الكتاب والسنة ، وإسلام السلف الصالح ، ثم إصلاح أمر الناس السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، وذلك بإقامة حكم إسلامي راشد ، يحكم بشريعة الله ، ويهدف إلى إعادة الإسلام لمجده وقوته وعزته من جديد ، فتنصلح بذلك أمور الناس كلها .

فالمهدية حركة أرادت استغلال الدين ـ والعمل عن طريقه ـ في بلد يتأثر أهله بالدين إلى حد كبير من أجل إحداث ثورة على حكومة كان المهدي يراها حكومة بعيدة عن الإسلام ، بل في واقع الأمر حكومة غير إسلامية ـ كما أنه كان يرمي إلى إصلاح أمر المسلمين عقدياً ودنيوياً ـ كما أسلفنا ، ومن ثم فالحركة المهدية كانت ترمي في نهاية الأمر إلى إقامة دولة إسلامية ـ دستورها القرآن ـ تعيد للإسلام مجده .

وكانت تعاليمه تتلخص فيما يلي :

١ ـ العودة بالإسلام إلى ما كان عليه في أيامه الأولي ، بالاعتماد على الكتاب والسنة .

٢ ـ التوحيد بين المذاهب السنية الأربعة ، والانفراد بمذهب اجتهادي خاص .

٣ ـ حصر الطريق الموصل إلى الله في أمورٍ هي :

أ ـ صلاة الجماعة .

ب ـ الجهاد في سبيل الله .

جـ ـ امتثال أوامر الله ونواهيه .

د ـ الإكثار من كلمة التوحيد .

هـ ـ تلاوة القرآن .

و ـ تلاوة الأوراد .

٤ ـ تحريم زيارة قبور الأولياء ، وتحريم الرقص والغناء ، ومنع البكاء ، وراء الميت ، وإبطال السحر ، وكتابة الحجب ، وشرب الدخان والخمر .

٥ ـ البساطة في الملبس ، والمأكل ، وحفلات الزواج .

٦ ـ القضاء على الفساد السياسي في السودان ، وبقية الأقطار الإسلامية ، والإحاطة بالنظام القائم ـ أي النظام العثماني ، وقد كان لهذا الموقف المعادي للدولة العثمانية أكبر الأثر في القضاء على الحركة المهدية .

ومحمد أحمد المهدي يركز في منشوراته لأتباعه ، وخطاباته العامة والخاصة ، على الزهد في الدنيا ، والعمل للآخرة ، ويدعو للجهاد ، ويبشر الشهداء بنعيم الجنة ، وكان يرى أن الطريق إلى الله واضح جلي في الكتاب والسنة ، وأن انقسام المسلمين إلى مذاهب أربعة ، وطرق صوفية

مختلفة لم يؤد إلا إلى إضعاف الإسلام ، وانحطاط المسلمين ، ولذا فقد ألغى المذاهب الأربعة ، وجعل أهل السودان على مذهب واحد ، وطريقة أساسها ترويض الناس على الزهد في الدنيا ، ومجاهدة النفس ، وكان الجهاد هو وسيلة المهدي في الإصلاح ، وإقامة الحكومة العالمية الإسلامية .

وقد نجح المهدي في تحرير السودان من الحكم التركي ـ المصري ـ حكم محمد علي وأبنائه للسودان ، واستولى على العاصمة الخرطوم في عام ١٨٨٥م ، وظلت الدولة المهدية قائمة على حكم السودان حتى قضت عليها حملة مصرية يقودها جنرال بريطاني هو «كتشنر» في عام ١٨٩٩م ، والذي استطاع بسط الحكم الثنائي في السودان في أعقاب هزيمته للحركة المهدية ، وذلك هو الحكم المسمى بالحكم الإنجليزي ـ المصري للسودان ، والذي كان في واقع الأمر حكماً إنجليزياً محضاً للسودان ، لكون مصر ذاتها واقعة حينئذ تحت الاحتلال البريطاني منذ القضاء على ثورة عرابي في سنة ١٨٨٢م[٩] .

الاتجاه الفكري المقاوم للاستعمار الغربي :

رغم الجهود التي بذلها الاستعمار للهيمنة السياسية والفكرية على الشعوب الإسلامية ، فقد وجد معارضة شديدة لمحاولاته تلك ، واتخذت المعارضة للاستعمار طابعاً سياسياً وفكرياً ، فقد حاول بعض المصلحين من المسلمين مقاومة الفكر الذي بثه الاستعمار بين أبناء الأمة الإسلامية بغرض إضعاف الأمة في دينها ، فحاول أولئك المصلحين مقاومة ومعارضة ذلك الفكر الاستعماري بفكر آخر مبني على توجه وأساس إسلامي ، وقائم على أفكار إسلامية أصيلة ، فتصدوا لمحاولات الاستعمار الفكرية اللادينية ، والعلمانية ، وغيرها ، الرامية إلى استعباد عقول المسلمين وقلوبهم ، فنقدوها وفندوها ، وأوضحوا مخاطرها على الأمة ، كما تصدوا أيضاً

بالنقد والتفنيد للأفكار التي نادىٰ بها بعض من المنتسبين للإسلام زوراً ، ومن أذيال وخدام الاستعمار من أمثال السيد أحمد خان ، وأمثال من الحركات الموالية للاستعمار أو الخارجة عن الإسلام ، مثل الحركة القاديانية وما شاكلها من حركات هدامة ، كما تعرضوا لمقولات بعض المستشرقين وفندوها ، ولبعض مظاهر الفكر العلماني ، ولم يقفوا عند حد النقد والتفنيد فقط ، وإنما حاولوا وضع منهج فكري يستطيع المسلمون عن طريقه الوقوف في وجه المخططات الاستعمارية السياسية والفكرية وغيرها ، كما يستطيعون تجديد وتعزيز صلتهم بدينهم الإسلامي ، وفهم مبادئه فهماً صحيحاً ، فيكونون بذلك قد حصنوا أنفسهم ضد غزو الاستعمار الفكري الرامي إلىٰ طمس هويتهم الإسلامية ، ثم استعبادهم من بعد ذلك .

ومن هؤلاء المفكرين المسلمين جمال الدين الأفغاني ، الذي قام ضمن ما قام به في هذا المجال ، بمهاجمة أفكار السيد أحمد خان الهدامة ، وفندها في كتابه الذي أسماه «الرد علىٰ الدهريين» ، وفي الوقت نفسه دعا المسلمين جميعاً إلىٰ العودة إلىٰ القرآن الكريم ، ونبذ الخصومة المذهبية ، والرجوع إلىٰ حال المسلمين الأول .

ومن أولئك المصلحين أيضاً الشيخ محمد عبده ـ صديق وحليف جمال الدين الأفغاني ـ والذي أخذ يهاجم المستشرقين ودعاويهم الباطلة ، ويتصدىٰ للرد علىٰ الطاعنين في الإسلام ، والمشككين فيه ، وفي ذات الوقت يدعو إلىٰ فهم الإسلام فهماً منهجياً صحيحاً ، وإلىٰ فهم القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة فهماً علمياً خالٍ من الجمود ، بدلاً عن إسلام المتكلمين ، وإسلام الجامدين المعزولين عن تيارات الحياة العامة ، وبدلاً عن إسلام المقلدين والمتعصبين ـ وكل فهم خاطئ للإسلام هو في نظره سبب مباشر من أسباب تفرق المسلمين إلىٰ شيع ، وطوائف ، وإلىٰ ضعفهم

السياسي ، والاقتصادي والفكري ، ولا غرو إذاً أن يمضي الشيخ محمد عبده في دعوته تلك ، فيدعو ، ويعمل على إصلاح الأزهر الشريف بحسبانه مؤسسة تعليمية إسلامية ذات أثر واضح في حياة المسلمين ، ويدعو علماؤه ورواده ـ وهم في رأيه سدنة الثقافة الإسلامية الأصيلة ـ ليدركوا رسالة الإسلام الصحيحة ، ودوره الكبير في إعادة بناء الأمة الإسلامية بناءً جديداً يعيد لها سابق مجدها وعظمتها . . . وحتى يتم ذلك فلابد ـ كما يقول الشيخ محمد عبده ـ من الرجوع إلى القرآن الكريم ـ دستور الأمة ، ولابد من الرجوع إلى عهده ليكون الركيزة الأساسية التي يتجمع حولها المسلمون من جديد ، ولابد أيضاً من تفسير وفهم القرآن الكريم فهماً يعيد للإسلام صلته بالحياة العامة ، ولن يكون ذلك إلا بفهمه الفهم الصحيح ، ثم باتخاذه ـ مع السنة النبوية المطهرة ـ طريقاً ونبراساً تسير على هديه الأمة الإسلامية .

١ ـ الأفغاني :

ولد جمال الدين الأفغاني عام ١٢٥٤هـ ، واختلف في مقر مولده ، هل هو أفغانستان ، أم إيران ، والأرجح أنه أفغانستان ، وهناك الآن من المستشرقين من يثير حول نشأته ومذهبه الكثير من الضباب ، وهل هو سني أم شيعي ؟ وهل هو ماسوني أم غير ذلك ، وكلها في رأينا ـ اتهامات باطلة ـ أريد بها إشانة سمعة الأفغاني ، والتقليل من شأنه ، نكاية به ، وبمقاومته الشرسة للاستعمار وفكره(١٠) .

وقد درس الأفغاني مختلف العلوم : في الفقه ، والشريعة ، وعلوم المنطق والرياضة ، وتجول في فارس ، وفي بلاد الهند ـ وكان كلما حل بذر بذور الوطنية ، والوحدة ومقاومة الاستعمار ، والمطالبة بالحقوق الضائعة ، ومن ثم كان كلما دخل بلداً مسلماً مستعمراً ، أخرجه المستعمرون منه ـ فقد

أخرجه الإنجليز من الهند عندما وجدت أفكاره الثورية قبولاً عند كثير من شيوخ وشباب المسلمين هناك ، وبدأوا يلتفون حوله ، وكذلك لم يرحب به الشاه في إيران لنفس السبب ، وأخرجه الإنجليز فيما بعد من مصر ، حيث لحق به صديقه محمد عبده مطروداً ومنفياً بعد قيام الثورة العرابية في مصر .

وبعد الهند سافر الأفغاني إلى مصر ، ثم إلى تركيا ، ثم عاد إلى مصر مرة أخرى في عام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م، حيث التف حوله عدد من طلاب العلم، ومن الوطنيين ، ورواد الحرية ، يلتمسون من علمه ، ومن آرائه الوطنية ، وأفكاره الداعية إلى الوحدة ، وإلى مناوئة الاستعمار ، ونبذ هيمنته السياسية والفكرية ، ولكنه لم يلبث أن غادر مصر مطروداً منها من قبل مستعمريها الإنجليز ، ومن قبل الخديوي أيضاً ، فغادرها إلى باريس حيث أسس هناك جمعية وجريدة «العروة الوثقى» ، التي كان يبث من خلالها آراءه السياسية والدينية ، وكان تلميذه محمد عبده ـ الذي لحق به في باريس بعد أن نفي هو الآخر من مصر ـ يعاونه في أمر الجمعية ، وتحرير الجريدة . . وكانت أفكار الأفغاني تنتشر في مصر ـ حتى بعد مغادرته ـ وقد أثمرت رجالاً وقادة وطنيين حملوا راية الوطنية وراية مناهضة الاستعمار من بعده . . وقد بلغ كل ذلك مداه الطبيعي في ثورة عرابي ضد النفوذ البريطاني في مصر ، والتي أعقبها الاحتلال البريطاني لمصر ، حيث أخمد الجيش البريطاني تلك الثورة ، واحتل أرض مصر الإسلامية .

وقد ارتحل جمال الدين الأفغاني إلى روسيا ، ثم إلى إيران ، ثم أخيراً إلى اسطنبول حيث أقام في ضيافة السلطان عبد الحميد ، الذي ربما أراد الإفادة من دعوة جمال الدين الأفغاني إلى الوحدة الإسلامية ، وإلى مقاومة الاستعمار الجاثم على أراضي المسلمين ، وقد طال به المقام هناك ، حتى توفي في ٩ مارس ١٨٩٧م إثر داء عضال ، وكان جمال الدين أينما حل دعا

للإصلاح ، ولمناهضة الاستعمار ، ولوحدة المسلمين ، وتلك دعوة كانت تفض مضاجع المستعمرين ، فيخرجونه ، وربما يلاحقونه ، وهكذا قضى حياته متنقلاً ، مرتحلاً من مكان إلى آخر .

دعوة جمال الدين الأفغاني :

كان يرى أن الاستعمار يعمل بكل السبل على إضعاف الروح الدينية ، والاجتماعية ، والاقتصادية في البلاد الإسلامية من أجل التحكم فيها ، وفي مصائر أهلها ـ ولذا ظل يدعو دائماً إلى اتحاد المسلمين وترابطهم لدفع هذا الخطر ، ثم للأخذ بأسباب التقدم التي اتبعها الغرب الأوروبي ، والوقوف على عوامل تفوقه للعمل بها ـ كما كان يدعو إلى نبذ الآراء الخرافية والبدعية التي لحقت بالدين الإسلامي في أيام الضعف ، وقد راعه حال البلاد الإسلامية السيئة ، واستغلال الاستعمار لخيراتها ، وخضوع الولاة والحكام المسلمين للمستعمر ، وتجاهلهم لمصالح شعوبهم ، وعدم إشراكهم في الأمور التي تهمهم ، وكان يحز في نفس الأفغاني ما يراه من الخلافات السائدة بين الدول الإسلامية ، ومن كثرة الأحزاب السياسية التي تعكس تفرق الأمة الإسلامية ، ولذا ظل يعمل من أجل جمع الكلمة ، والتوفيق بين الدول الإسلامية حتى تصبح أمة الإسلام أمة واحدة يخشاها المستعمرون ، وكان يرى أن هذا لن يتحقق إلا بالرجوع إلي الإسلام الصحيح الذي ساد به المسلمون الأوائل ، وسادت به دولة الإسلام الأولى .

وكان سلاح جمال الدين الأفغاني في نشر آرائه تلك الكتابة ، والخطابة ، والتأثير الشخصي ، لأنه كان ذا شخصية جذابة ، ومحدثاً بارعاً ، وكاتباً مقتدراً ، فقد كان أثره عظيماً ، فهو ـ كما رأينا ـ قد كتب راداً على الدهريين ، والماديين في مقالاته وكتبه ، وأبان كذلك فضل الدين في رقي

الأمم وتقدمها ، وأثر الإلحاد والمادية في سقوطها ، وشرح مزايا الإسلام في شحذ النفوس والعقول(١١) .

٢ ـ محمد عبده ـ ١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ/١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م :

كان قريباً وصديقاً للأفغاني ، ولذا تأثر بشخصيته وآرائه ، وهو رجل أزهري ، تخرج من الأزهر ، وعمل مدرساً به ، ثم بدار العلوم ، ثم اشترك في الثورة العرابية سنة ١٨٨٢م ، وحوكم ونفي إلى خارج البلاد ، حيث لحق بجمال الدين الأفغاني في باريس ، وأنشأ معه هناك جمعية وجريدة «العروة الوثقى» التي كانت تدعو لإيقاظ المسلمين ، وتنبيههم للأخطار المحدقة بهم ، وبث روح الوحدة بينهم ، ثم عاد إلى مصر حيث شغل عدة مناصب ، منها منصب الإفتاء الذي شغله في سنة ١٨٩٩م ـ فكان مفتي الديار المصرية ـ كما كان عضواً بمجلس الأزهر ، ورئيساً للجمعية الخيرية الإسلامية .

ومحمد عبده من علماء الأزهر الذين كان لهم أثر واضح في مصر خاصة ، وفي الأمة الإسلامية عامة ، فهو رجل إصلاح تتلمذ على يديه عدد من زعماء مصر مثل سعد زغلول ، وعدد من علماء الأزهر .

ومنهجه في الإصلاح هو المنهج السلفي ، فهو سلفي في آرائه ، وقد عبر عن منهجه ذاك بسيرته في الكفاح وبمؤلفاته أصدق تعبير ، فتراه يرد على الملحدين والمتشككين في كتابه «رسالة التوحيد» ، وقد ظل يدعو إلى أمرين عظيمين هما : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، ولن يتم ذلك الفهم إلا بالرجوع إلى ينابيع الدين الأولى ، وكان يرمي من وراء ذلك إلى تطهير الإسلام من البدع والضلالات التي لحقت به ، فالإسلام دين عقلاني ، واعتماده على العقل هو سر عظمته وتفوقه ، وبه ساد المسلمون الأوائل ـ سلف هذه الأمة ،

وبالبعد عنه وعن تعاليمه تأخر المسلمون ، ولن تقوم للمسلمين قائمة إلا بالرجوع إلى الإسلام الصحيح ، كما أنه نادى في كتاباته إلى إعادة النظر في عرض المذاهب الإسلامية على ضوء الفكر الحديث ـ وإلى التوفيق بين العلم والدين ـ ودافع عن الإسلام ضد هجمات الغربيين والمستشرقين عليه ، كما نادى بضرورة إصلاح التعليم الإسلامي العالي(١٢) .

وقد تابع دعوة الشيخ محمد عبده السلفية ، وسار على نهجه تلميذه وصديقه محمد رشيد رضا ، في مجلته «المنار» . . والتي كانت تبدأ مقالاتها ، بتفسير الشيخ محمد عبده لبعض آيات القرآن الكريم ، وتضمنه صفحاتها الأولى . . كان الشيخ رشيد رضا يرى رأي أستاذه عبده ، أن الشرق لن ينهض مرة ثانية إلا بالرجوع إلى إسلام السلف الصالح الخال من البدع والخرافات ـ وقد أكد رضا كما أكد الشيخ محمد عبده من قبله على دور العرب في الإسلام في الماضي والمستقبل(١٣) .

وهكذا نرى أن المذهب السلفي في الإصلاح منهج إسلامي علمي قائم على إعادة الفكر الإسلامي إلى صفائه ونقائه الأول ، وإلى هدم الأفكار الباطنية ، والبدع والانحرافات التي تصيب الفكر بالشلل ، والمجتمع بالتخبط ، كما أن ذلك المنهج الإصلاحي حاول مواجهة تحديات العصر بإقامة الدين الصحيح في الأمة الإسلامية ، وبمحاربة أعدائها المستعمرين ، وأذنابهم من العلمانيين ، والملحدين ، والمتأثرين بفكرهم الغربي .

وقد أجمع أولئك المصلحين السلفيين على ذم التقليد ، وإيجاب الاجتهاد ، والتفكير بحرية على هدي القرآن والسنة ، وذلك هو منهج السلف الصالح ، والمنهج العلمي الذي أمر به القرآن الكريم ، وعلمته السنة النبوية المطهرة ـ والذي لن تقوم للأمة الإسلامية قائمة إلا بالتمسك به ، والعمل بموجبه .

ثالثاً : دور الأزهر والقرويين والزيتونة :

كان لهذه المؤسسات التعليمية الدينية دور في مجال الصحوات الإسلامية ، وهو دور كثيراً ما أغفله وأهمله الكتاب والباحثون ، لذا سنلقي الضوء على الدور فيما يلي :

١ـ الجامع الأزهر :

من أقدم الجامعات الإسلامية التي عرفها العالم ، فقد ظل منذ إنشائه في عام ٣٥٩هـ بمدينة القاهرة ، سادناً وحامياً للدين الإسلامي ، ولتراثه الفكري كله ، حتى في أحلك الظروف وأصعبها عندما تعرضت مصر والأمة الإسلامية للغزوات التتارية ، والصليبية الاستعمارية التي هددت كيان الأمة الإسلامية ، كما أنه ظل منارة علم وهداية يستضاء به في كل مكان من العالم الإسلامي ، فدوره دور حضاري وديني ، دافع عن الإسلام والمسلمين ، وحفظ التراث ، وعلمه ونشره ، فلولاه لما كان للغة العربية والثقافة الإسلامية كيان خاصة في عصر الانحطاط والاستعمار .

فللأزهر جهاده في حمل الرسالة الإسلامية والذود عنها ، بل وتبليغها ، ورسالته الدعوية هي من أرفع الخدمات التي قدمها الأزهر للإسلام ، وأثره في مجال الدعوة نابع من عراقته ، وثقة العالم الإسلامي فيه ، ومركزه العلمي ، فله بعوث ودعاة في معظم أرجاء العالم الإسلامي ، وغير الإسلامي ، كما أن دعمه للمؤسسات الدينية والتعليمية ، ومده للمسلمين في أفريقيا وآسيا بالمصاحف ، والكتب الإسلامية ظاهر للعيان ، إضافةً إلى تعليمه آلاف الطلاب المسلمين من آسيا وأفريقيا وأوروبا وغيرها ، فأروقته تموج بالعديد من أولئك الطلاب الذين ينهلون من علمه ، ثم يعودون إلى بلادهم ليكونوا خير دعاة للإسلام بين ذويهم ، وركائز من ركائز الثقافة الإسلامية ، ينشرونها ، ويوسعونها بين الناس .

والعالم الإسلامي مدين للأزهر فكرياً ودينياً ، فقد ظل شامخاً يقاوم التيارات المنحرفة ، ويتصدىٰ لها بنجاح ، وينشر العلم والمعرفة الإسلامية في عالم إسلامي يظل يردح زمناً طويلاً في ظلمات الجهل ، ومتاهات التخلف ، وهو أب روحي لمعظم الجامعات الإسلامية التي سارت علىٰ هدية في تنظيمها ومناهجها ، وعلىٰ جهود علمائه كان ذلك في مجال التأليف والبحث ، أو في مجال التدريس . . والأزهر الآن مؤسسة تعليمية حديثة شملها التطور فأصبحت فيه كليات للطب ، والهندسة ، وبقية العلوم العصرية ، ولكنه ما زال الحصن الأمين للدين الإسلامي ، القائم علىٰ تراثه ، وتعاليمه ، والعامل أبداً علىٰ تطويرها ، وتحديثها ، ونشرها بين المسلمين .

٢ ـ جامع القرويين :

يقع في مدينة فاس بالمغرب الأقصىٰ ، ويرجع إليه الفضل في استمرار الوجود الإسلامي في تلك الديار ، وفي حفظ اللغة العربية ، والتعاليم الإسلامية ونشرها في سائر أطراف أفريقيا الغربية ، وقد أنشئ عام ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م ، وظل يؤدي دوره كمصدر إشعاع إسلامي دون انقطاع ، ولم يتعرض إلىٰ ما تعرض إليه الأزهر ، أو جامع الزيتونة ، وهو من أغنىٰ المساجد الإسلامية من حيث فسحة أراضيه ، وكثرة عقاراته ، حتىٰ إن الدولة كانت أحياناً تلتجئ إلىٰ أمواله تأخذ منها أوقات الشدة لتغطي عجزها ، وقد تميز بعراقة آثاره ، فمئذنته من أقدم المآذن ، وظلت محتفظة بشكلها الأساسي الذي بنيت عليه ، ومنبره من أثرىٰ وأقدم المنابر ، وقد زينه الفنانون بكل نفيسٍ وغالٍ .

وحوت خزانته ومكتبته الأحمدية عيون المخطوطات ، ونوادر المؤلفات ، وقد ازدهرت فيه الحياة العلمية بسبب وفرة الكتب النفيسة فيه ،

وقد شيدت بجانبه مدارس داخلية لاستقبال الطلاب ، بها قاعات الدراسة الفسيحة ، وسكنى الطلاب ، لذا يكن غريباً أن يكون للقرويين نظامه التعليمي الدقيق ، في تقاليده وعطلاته إلخ ، فكانت فيه الحلقات المتعددة ، الحلقة ذات الأستاذ الواحد ، وذات الأستاذين ، وحلقات كبار الطلاب من المعممين وغيرهم ، وكانت حلقاته مقصد الطلاب من كل المغرب ، وكذلك فروعه الكثيرة المنتشرة في مدينة فاس ، وقد دُرست فيه كتب العلماء المشارقة في طوره الأول ، ثم الكتب المترجمة فيما بعد ، ثم وقف علماؤه أنفسهم على التأليف والبحث ، حيث أصبحت لهم مؤلفاتهم والتي كانوا يبعثون بها إلى المشرق ، وكانت لمنافساتهم بعضهم مع بعض في التأليف والتدريس أثر واضح في رواج الحركة العلمية في المغرب ، التي كانت على صلة وثيقة بمثيلاتها في المشرق .

وقد لمعت أسماء بعض من تلقوا العلم في القرويين ـ من أمثال ـ ابن العربي ، وابن بطوطة ، وابن خلدون ، وغيرهم ممن أثروا تراث الأمة الإسلامي الثقافي ، وإليه كانت تلك السفارات من المشرق ، ومن الأندلس وتونس وغيرها ، كسفارة صلاح الدين الأيوبي إلى المغرب ، يحضرون مجالس علمائه ، وينهلون من فيض علمهم ، وقد كان لعلمائه مشاركتهم في أحداث بلادهم السياسية والعسكرية ، فمثلاً كانت استجابة المرابطين لنجدة الأندلس نتيجة ـ ضمن عوامل أخرى ـ لفتوى أصدرها علماء جامع القرويين ، كما كان لحرصه وحفظه للتراث الإسلامي في المغرب ، ولمشاركات بعض علمائه السياسية أثر واضح في تاريخ البلاد السياسي ، ومقاومة الاستعمار وغزوه الثقافي ، ولا يزال جامع القرويين يؤدي دوره الرائد والفاعل في الذود عن الإسلام والمسلمين حتى يومنا هذا .

٣ ـ جامع الزيتونة :

أنشئ هذا الجامع في فترة مبكرة في عام ١١٤هـ/ ٧٣٢م ، وكان له الفضل الأول في إنشاء جامع وجامعة القرويين بفاس ، حيث أمدها بالعلماء ، والمناهج والكتب ـ وكانت وكأنها فرع له .

ولم يلبث جامع الزيتونة أن تعثر في مسيرته في القرن الخامس الهجري على أثر تغلب عرب «بني هلال» ، وأصبح أثراً بعد عين ، الأمر الذي مكن جامع القرويين من الازدهار ، ورغماً عن نهضة جامع الزيتونة من جديد إلا أنه عانى ثانية في القرن العاشر من تدخل الأسبان .

وجامع الزيتونة أحد المؤسسات التعليمية الإسلامية في الشمال الأفريقي ، وقد اقترن اسمه في مجال تعليم العلوم الدينية بجامع القيروان في تونس ، وجامع القرويين بفاس في المغرب الأقصى ، وبالجامع الأزهر في القاهرة .

والواقع أن بداية تأسيس مسجد الزيتونة كان في حوالي عام ٨٠هـ/ ٦٩٩م على يد حسان بن النعمان والي أفريقية في عهد الدولة الأموية ، وقد أعاد بناءه من جديد عبيد الله الحبحاب عام ١١٤هـ/ ٧٣٢م عندما كان والياً على المغرب ، وربما سمي «الزيتونة» ليكون منارة إسلامية يستضيء بنورها وعلمها المسلمون ، وكانت الدراسة فيه على نظام «الحلقات» المعروف ، حيث يتحلق الطلاب حول العلماء يتلقون عنهم المعارف الإسلامية ، مثل الفقه ، وعلوم القرآن واللغة إلخ ، وقد نظمت الدراسة فيه في عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م ، فأصبح الحصول على شهادة اجتياز امتحان معين هي الشرط الأساس لأن يصبح العالم مدرساً فيه ، وأصبح الطالب المتخرج منه يمنح شهادة تسمى بشهادة «التطويع» .

ولجامع الزيتونة دور مماثل لدور الجامع الأزهر في مصر وذلك أن كليهما استطاع أن يقوم بدور فاعل في التصدي للفكر الشيعي ، وأن يعيد لمذهب

أهل السنة والجماعة مكانته الحاسمة الفاصلة في العالم الإسلامي سواء في المشرق أو المغرب ، ففي عهد بني عبيد الفاطميين حاولت هذه الدولة نشر مذهب الشيعة الإسماعيلي بين أهل المغرب ، ومحو المذهب السني ، واستمر الأمر كذلك حتى عهد ملك تونس المعز بن باديس رابع ملوك الدولة الصنهاجية ، الذي نبذ المذهب الشيعي في عام ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م ، وبايع الخليفة العباسي ، وأعاد تونس إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، وقد كان لجامع الزيتونة دور رائد في تأصيل هذا المذهب ، فقد تولى علماؤه مكافحة العقائد المخالفة له ، حتى عم ، وعم مذهب الإمام مالك بن أنس الديار التونسية ، وهكذا فقد كان «الزيتونة» كما كان «الأزهر» ، وكما كان «القرويين» مساجد كالحصون حمت العقيدة ، ودافعت عنها ، وحفظتها في أوقات الأزمات والخطوب التي ألمت بالأمة الإسلامية كما أن هذه المساجد الثلاثة كانت هي المعين الذي أمد المجتمعات الإسلامية بفيض من علمائها العاملين ، وأعيانها النافعين الذين تمكنوا ـ بما لهم من مكانة اجتماعية سامية من التأثير في مجتمعاتهم تأثيراً إيجابياً ، وفي قيادتها وتوجيهها أيام الملمات وفي حفظ كيان الأمة ، وحفظ هويتها ، والعمل على وحدتها ، وإبقائها أمة مسلمة عارفة عالمة .

هوامش الفصل الرابع

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ـ مخالفة أصحاب الجحيم ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، مكتبة السنة المحمدية (د . ت) ـ ص ٨ ومابعدها .

(٢) عبد الله الصالح العثيمين : تاريخ المملكة العربية السعودية ـ ج١ ـ ط٣ ـ الرياض ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م ، ص ٥٩ ـ ٧٢ .

(٣) نفس المرجع ـ ص ٨٢ وما بعدها .

لتفاصيل أكثر عن حياة الشيخ ـ انظر : عبد الله الصالح العثيمين : الشيخ محمد ابن عبد الوهاب ـ حياته وفكره ـ الرياض ـ ط٢ ـ الرياض ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ، ص ٢٨ ـ ٦٣ .

(٤) لمبادئ الدعوة كاملة ـ انظر : عبد الله الصالح العثيمين : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ ص ١٠١ ـ ١٣٩ .

(٥) هناك عدة بحوث تناقش أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في أرجاء مختلفة من العالم الإسلامي في : بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب : ج٢ ـ الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ـ نشر مركز البحوث ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(٦) انظر : أبو المكرم بن عبد الجليل السلفي : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في شبه القارة الهندية بين مؤيديها ومعانديها ـ الرياض ١٤١٣هـ .

(٧) داؤد علي الفاعوري ـ مرجع سابق ـ ص ١٠٦ ـ ١٠٩ .

(٨) الذر الجندي ـ العالم الإسلامي والاستعمار ـ ص ٢٥٥ ـ أيضاً : أحمد صدقي الدجاني ـ الحركة السندسية ـ أيضاً : داؤد علي الفاعوري ـ مرجع سابق ـ ص١٠٨ .

(٩) من أحسن ما كتب عن المهدية في السودان ـ كتاب ب . هولت ـ الدولة المهدية في السودان P.M. Holt, Mahdist State in The Sudan ، أيضاً كتابات د . محمد إبراهيم أبو سليم ـ منشورات المهدي ـ الخرطوم ـ د . ت .

(١٠) انظر : كتابات «إلي حذوري» وزوجته سلفيا حايم , Elli Kedourie Sylivia Haim ، وخدوري يهودي عراقي استوطن بريطانيا ـ وله كتابات كثيرة .

انظر مثلا :

E. Kedourie : Afghani and Abduh - An Essay on Religious unbelief and Political Activism in Modern Islam, New York, 1966 .

(١١) لمناقشة موضوعية لآراء الأفغاني انظر :

N.R. Keddie - An Islamic Response to Imperialism : Political and Religious Writings of Sayyed Jamal Al-Din Al-Afghani - University of California Press, 1968 .

(١٢) آراء محمد عبده مضمنة في كتابه «رسالة التوحيد» .

انظر أيضاً :

محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ ط ٢ ـ القاهرة (المنار ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م ـ ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧ ، وكذلك ص ٥١٥ ـ ٥١٦ .

أيضاً : محمد عبده : الإسلام والنصرانية . . القاهرة ١٩٤٧م .

(١٣) آراء الشيخ رشيد رضا السلفية موجودة في أعداد مجلته «المنار» ـ انظر مثلاً : المنار ـ مجلد ١ ـ رقم ٤٠ ـ شعبان ١٣١٦هـ ، وكذلك أعداد ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م صفحات ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٨٥ .

الفصل الخامس
الصحوة الإسلامية
في العصر الحديث

تحاول الأمة الإسلامية حالياً تجاوز المحن الكثيرة ، والمصاعب التي أعترضت سبيلها رغماً عما أحيك حولها من مكائد ومؤامرات عديدة ، كما تحاول أن تتلمس مواطن القوة لتنطلق من جديد ، خاصة وأنها لا تزال متمسكة بدينها ، مكمن قوتها ، وسر بقائها والذي مكنها من الصمود أمام التحديات الماضية التي واجهتها ، وسيمكنها من الصمود ، ويعينها على النهوض والمواجهة من جديد بإذن الله .

ولقد شهد القرن الرابع عشر الهجري / العشرين ميلادي ، محاولات ومؤامرات كثيرة وشرسة استهدفت القضاء على الإسلام ، والهيمنة على المسلمين ، ونهب خيرات العالم الإسلامي ، والعبث بمقدراته وقيمه ، ومن تلك المؤامرات على سبيل المثال لا الحصر :

١ ـ الأزمات الطائفية والسياسية التي تعرضت لها لبنان في تاريخه الحديث والمعاصر .

٢ ـ الحرب العراقية الإيرانية التي استنزفت موارد وامكانات البلدين الهائلة ، ودونما طائل أو هدف .

٣ ـ الحرب الخليجية الثانية والتي جاءت نتيجة لاحتلال بلد مسلم لبلد مسلم آخر ، وذلك أمر لم يُسبق إليه من قبل ، ولا زلنا نعيش ونعايش نتائجها المأساوية على المنطقة العربية بأسرها .

٤ ـ الهجمة التنصيرية على بلدان آفريقيا وآسيا وبخاصة المسلمة منها .

٥ ـ قضية جنوب السودان التي زرعها الاستعمار الإنجليزي والتي أكلت الأخضر واليابس في السودان ، واستنزفت موارده المادية والبشرية ، ووقفت عقبة كؤود في سبيل تطوره ونموه ، رغماً عن امكاناته الزراعية الهائلة .

٦ ـ قضايا الأقليات المسلمة المختلفة ، وكلها حلقات في التآمر على الإسلام و العالم الإسلامي تقوم بها وتقودها قوىٰ الامبريالية الغربية ، وقوىٰ الصهيونية العالمية ، وقوىٰ المعسكر الشيوعي الاشتراكي ، وغيرها من قوىٰ الإلحاد والحقد المتآمر علىٰ الإسلام وأهله[١] .

ورغم هذه الحلقات المتتابعة من التآمر والكيد للإسلام والمسلمين ، فقد شهد الثلث الأخير من القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي صحوة إسلامية مباركة ، ورجوعاً إلىٰ الله ، بعد أن أصاب العالم الإسلامي اليأس والقنوط ، وأصابته خيبة الأمل في تجارب الفكر الأوروبي الفاشلة ، من ديمقراطية ، واشتراكية ، وتقدمية ، وقومية ووطنية ، وما إلىٰ ذلك من تلك الشعارات الخلابة ، والمبادئ الغربية الوصفية التي حاول الغرب زرعها مكان المبادئ والأسس الإسلامية السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فأخذ بعضهم يعود إلىٰ الله ، ولقد تمثلت هذه الصحوة في الدعوة لأن يعيش المسلمون إسلامهم في جوهرة وقيمه الخالدة ، وأن ينطلقوا منه لمعالجة شئون عصرهم ، خاصة وقد ثبت لديهم زيف الحضارة الغربية بشقيها الرأسمالي والشيوعي ، وأنكشفت أمامهم ماديتها المفرطة وخواؤها الروحي ، وعجزها عن تقديم الحلول المقنعة لمشكلات الناس في هذه الحياة ، فبدأ بعض المسلمين يرون أن المستقبل لهذا الدين الإسلامي .

وإنه لا مفر من حتمية رجوعه إلىٰ مركز السيادة وموضع القيادة والريادة. ونتيجة لذلك برزت مع نهاية القرن الرابع عشر الهجري / العشرين ميلادي ، مظاهر صحوة جديدة تهدف إلىٰ الرجوع إلىٰ الإسلام، ومن مظاهرها تخرج شباباً ملتزماً ومتمسكاً بعقيدته الإسلامية رغم دراسته ، مناهج التعليم في المدارس ، والمعاهد والجامعات التي أنشأها دعاة التغريب ، وقد بدأ ذلك في أوساط المثقفين من الأطباء ، والمعلمين ،

والمهندسين ومن طلاب الجامعات، ثم بدأ الاهتمام بجامعات التراث الإسلامي ، فعلا شأن الجامعات الإسلامية ، وأقبل عليها الطلاب من جديد، بعد أن كانوا عازفين عنها في الماضي ، وبدأت تنافس ، بل تفوقت في أحيان على الجامعات العلمانية ، وأصبحت مناراً يرتاده الطلاب من شتى أنحاء العالم الإسلامي ، وبدأت الجهات الرسمية تهتم بها ، وبدأ واضحاً مدى فاعلية برامجها التعليمية ، ومدى الحاجة لها ، وازداد أقبال الطلاب عليها ، وتجلت في أعداد طلابها واختلاف أجناسهم عالمية الدين الإسلامي ، وأمثلة تلك الجامعات كثيرة ، منها جامعة الأزهر ، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، وجامعة أم القرى ، وغيرها من الجامعات الإسلامية في أرض الإسلام ، في السودان ، وفي باكستان ، وماليزيا وغير ذلك ، جاء الطلاب المسلمون من كل بلاد الإسلام يتعلمون علوم الإسلام ، الفقه وأصول الدين، واللغة العربية ، وآدابها إلخ . . ، ليتخرجوا مسلحين بالمعارف والعلوم الإسلامية ، ويعودون إلى بلادهم دعاة لدين الله ، عاملين على نشره ، ونصرته(٢) .

وخفت صورة دعاة التغريب ، وتواروا بعيداً بأفكارهم ، وكسدت بضاعتهم وضاق الطريق أمامهم بعد أن كان مفتوحاً لفترات طويلة ، ووجدوا في أنصار الصحوة الإسلامية الجديدة وفي شبابها منافساً خطيراً لهم ، ووجدوا في وعيهم بدينهم وحماسهم له عقبة كؤود في طريق أفكارهم العلمانية والالحادية ، وكثر نقد الحضارة الغربية من منطلقات إسلامية مستنيرة ، وتوارت الشعارات اللادينية القديمة ، كتلك القائلة بأن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين ، وحلت محلها شعارات مناهضة تنادي بأن البعد عن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين ، وأن المبادئ الإسلامية هي الحل الناجح لكثير من مشاكل العصر ، وأنها البديل لكل ما نادى به

الغربيون وتلامذتهم من أفكار علمانية وضعية في ميادين السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع ، وارتفعت الأصوات بالرجوع إلى الإسلام الحقيقي من مصادره الأولى : الكتاب والسنة ، وسيرة السلف الصالح .

وحتى وسائل الإعلام ـ التي كانت في يوم من الأيام حكراً لفكر العلمانيين والمستغربين ـ أصبحت في أحيان كثيرة منابر للدعوة الإسلامية ، ومناقشة مشاكل الإسلام ، وسبل النهوض به ، واتسعت دائرة الكتاب الإسلامي فأصبح أكثر انتشاراً في الأسواق ، وأقبل أصحاب المطابع على طبعه وتوزيعه ، فازدادت العناية بالتراث الإسلامي ، وبنشره ، وقامت هيئات ومؤسسات من أجل ذلك التراث ، ولعل الزائر إلى أي من معارض الكتاب في أي بلد إسلامي ـ خاصة في البلاد العربية ـ يلحظ كثرة الكتب الإسلامية ، من كتب التراث ، والمؤلفات الحديثة ، مما يشير إلى انتشار الكتاب الإسلامي ، والاهتمام بالفكر الإسلامي ، والعناية بنشره ، وقد قامت هيئات ومؤسسات من أجل العناية بالتراث الإسلامي ، وبنشره .

وتجلت المظاهر الإسلامية في كثير من شئون الحياة والسلوك ، فيها ـ مثلاً ـ في التمسك باللباس الإسلامي ، وتحري الحلال والحرام في المأكولات المستوردة والمعلبات إلخ ، وفي استثمار الأموال ، فقامت البنوك الإسلامية ، وبدأ الناس ينصرفون عن البنوك الربوية ، وعاد الشيوخ والشباب من جديد للمساجد ، فامتلأت بهم ، واهتم الناس بأشرطة القرآن الكريم ، والأحاديث الدينية فأقبلوا عليها يسمعونها ، ويحتفظون بها في مكتباتهم ، وانتشرت أماكن تلك التسجيلات الإسلامية ، وراج سوقها .

ولعل كل ذلك يشير إلى بروز ظاهرة جديدة ، وهي الاعتزاز بالفكر الإسلامي ، وبدايات عودة ثقة بالنفس المسلمة من جديد ، إذ بدأ المفكرون المسلمون ينتقلون مثلاً من دور الدفاع عن دينهم وقيمهم ، وعن رد الشبهات

إلىٰ دور التحدي ، ومن مرحلة «النظرة الاعتذارية» والاستحياء إلىٰ مرحلة عرض الفكر الإسلامي ، والمبادئ الإسلامية كما هي في ثقة واعتزاز ، وأصبح الكتاب والباحثون المسلمون يعرضون حقائق الإسلام كنظام شامل في حد ذاته ، لا حاجة له في المقارنة بأي نظام آخر ، خاصةً عندما اتضحت لهم مثالب النظم الوضعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وفشلها التام في حل مشاكلهم ومواجهة التحديات التي تواجههم .

وأصبحت المناداة بتطبيق أحكام الإسلام تجد صدىٰ كبيراً ، وتجاوباً واسعاً ، وبدأت بعض الدول تقترب من ذلك التطبيق ، أو علىٰ الأقل تنادىٰ بضرورة تحكيم شرع الله بين الناس ، ومثال ذلك ما يجري في السودان ، وباكستان ، وكذلك في مصر ، وماليزيا ، وإندونيسيا ، والجزائر وحتىٰ في تركيا ذات المجتمع العلماني المتغرب ـ مجتمع الجمهورية الكمالية (حمهورية كمال أتاتورك) التي أدارت ظهرها للإسلام والمسلمين ، والتي حاولت ولاتزال تحاول خنق التيار الإسلامي في تركيا ، الذي تشير الأحداث إلىٰ عودته إلىٰ ساحة العمل السياسي من جديد ، ولعله أصبح اليوم من أقوىٰ التيارات الشعبية المؤثرة ، ففي تركيا اليوم حوالي سبعون ألف مسجد تقريباً ، والدين الإسلامي لا يزال يدرس كمادة في جميع المراحل الدراسية ، علىٰ الرغم من السياسة الرسمية المناهضة للإسلام وللحركات الإسلامية(٣) .

وحتىٰ الدول التي تقيم شرع الله ، وتحكم بموجبه كالمملكة العربية السعودية ، التي كانت تتعرض لهجوم وسائل الإعلام الصليبية والعلمانية والإلحادية من كل ناحية ، وتصفها بالرجعية والتخلف ـ أخذت تبرز اليوم في المحافل الدولية ، والإسلامية والعربية كدولة لها وزنها الكبير ، ومكانتها المعززة ، يكن لها المجتمع الدولي الاحترام كله ، وتوقفت تلك الهجمات الإعلامية المغرضة ـ أو كادت ـ وأدرك العقلاء من أهل الغرب حرمة

الإسلام، ومكانته في نفوس المسلمين ، واعتزازهم به ، وتمسكهم بمبادئه وقيمه ، وهكذا بدأ يعود للإسلام عزه ، ومكانته واحترامه .

وأخذ الإسلام يغزو الغرب ذاته ، فزاد الاهتمام بدراسته ، ودراسة تاريخه وحضارته ، وبدأت ظلال التحيز ، والتحامل تتقلص في الدراسات الإسلامية في الغرب ، وظهرت فئة جديدة من المستشرقين المنصفين ، فبدأت تنظر للأمور نظرة فيها الكثير من الموضوعية ، وبدأ الناس يفهمون الإسلام فهماً أكثر حيادية من ذي قبل ، بل إن الأمر تطور إلى أبعد من ذلك، حيث أسلم عدد من أهل الغرب من المتخصصين في شتى العلوم ، وبعض المفكرين ، واندفع كثيرون ممن يبحثون عن الخلاص ، وعن وجادة الطريق في أوروبا ، وأمريكا ، وآسيا وأفريقيا ، إلى الدخول في الإسلام ، خاصةً وأن أهل أوروبا كانوا دوماً يبحثون عن ما يسد خوائهم الروحي ، ويكفيهم شر ماديات حياتهم القاسية ، ومع دخول أولئك في الإسلام ، أقيمت المساجد في أماكن لم تكن تعرف المساجد من قبل ، في العديد من بلدان أوروبا ، وأمريكا وعمرت ساحاتها بالمصلين ، وتجلت للجميع عملية هذا الدين .

وبدأ المسلمون يعون مشاكلهم المتمثلة في قضايا التخلف ، والجهل والمرض ، وبدأوا يعقدون المؤتمرات والندوات لمناقشتها ، وإيجاد الحلول لها، وأخذت الرؤى تتضح أمامهم ، فعرفوا خصومهم : الاستعمار ، والصهيونية ، والرأسمالية والشيوعية ، وغيرها من النظريات الغربية الوضعية والعلمانية ، وبدأوا يدركون ويتنبهون لما يحاك ضدهم ، من مؤامرات ، ويعملون جاهدين للوقوف أمامها .

وكل هذه ـ وغيرها ـ مظاهر للصحوة الإسلامية ، وللالتزام بالإسلام ، ومحاولة إعادته من جديد إلى شتى مناحي الحياة ليقوم بدوره كاملاً فيها ،

حتى تتجه الحياة وجهة إسلامية ، وتصبح المجتمعات إسلامية في كل توجهاتها ، تعيش الإسلام كل ساعة من حياتها . وفيما يلي أبرز مظاهر تلك الصحوة المعاصرة بإيجاز :

١ ـ منظمة المؤتمر الإسلامي :

أدرك بعض قادة الأمة الإسلامية أن ضعفها يكمن في فرقتها وتشتتها ، وأن قوة الأمة لن تكون إلا عن طريق وحدتها وتضامنها ، وعودتها إلى مبادئ دينها الحنيف ، خاصة وأنه قد جربت كل المذاهب والنظريات السياسية الأوروبية ، ولم تجد فيها نفعاً ولا حلاً لمشاكلها ، بل على العكس ، فقد زادت من مصاعبها ، وواجهتها بمشاكل وتحديات جديدة ، ومن ثم فقد قامت دعوات وحركات شعبية قوية في العالم الإسلامي تنادي بضرورة تضامن المسلمين ، وبضرورة العودة إلى الإسلام من جديد ، ليكون منهاجاً ونظاماً يحكم كافة شئون المسلمين الحياتية ، وليكون أساساً لوحدة الأمة الإسلامية ، خاصة وأن المسلمين قد جربوا شتى أشكال الوحدة القائمة على غير أسس إسلامية ، مثل أشكال التكتلات الإقليمية ، والقومية والاقتصادية دونما نجاح ، فقد حاولت بعض الدول المسلمة مثل تركيا ، وإيران وباكستان تحقيق شيء من الوحدة بينها عندما انضمت إلى «الحلف المركزي» ـ وحاولت الدول العربية أن توحد صفوفها عندما انضمت إلى «الجامعة العربية» ، ثم حاولت دول كثيرة أخرى نفس الشيء عندما انضمت إلى «حركة عدم الانحياز» ـ أو إلى غيرها من المنظمات الرامية إلى الوحدة ، ولكن دون أن تحقق الأمة الإسلامية هدف الوحدة ، وكان عليها أن تتجه إلى سبيل آخر ، هو سبيل الاعتماد على الذات ، وأن تحاول إيجاد التضامن بجهود ذاتية داخلية ، الأمر الذي دعا بعض دولها وقادتها إلى الدعوة إلى إنشاء منظمات إسلامية هدفها تحقيق وحدة وتضامن المسلمين

بالتدريج وبالسبل المتاحة لدول العالم الإسلامي ، فقامت منظمة المؤتمر الإسلامي .

وكان قيام هذه المنظمة تتويجاً لجهود رسمية وشعبية في العالم الإسلامي ، لعبت المملكة العربية السعودية ، والمخلصين من أبناء الأمة دوراً بارزاً في إنجاحها .

و بدأت هذه الجهود بعقد عدة مؤتمرات : مثل مؤتمر بيت المقدس الإسلامي في سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م ، ومؤتمر كراتشي في سنة ١٩٤٩ و١٩٥١م ، واجتماع مقديشيو في عام ١٩٦٤م ، وكان هدفها كلها محاولة معالجة مشكلات العالم الإسلامي السياسية ، والثقافية ، والاجتماعية والاقتصادية ، وتعززت مثل هذه الدعوات وتطورت إلى الدعوة لإقامة «تجمع إسلامي دولي» كانت المملكة العربية السعودية من أول الداعين له في الستينات من القرن الميلادي الفائت .

وقد واجهت هذه الدعوة معارضة من بعض الدول العربية والإسلامية ، والدول الكبري مثل الاتحاد السوفيتي آنذاك ، لأسباب أيديولوجية وسياسية مختلفة ، حيث كانت تتوزع أهواء قادة الدول الإسلامية والعربية ، فالستينات كانت فترة ازدهار الفكر الاشتراكي والثوري في المنطقة الإسلامية ، ورغم كل ذلك استمرت المحاولات والدعوات الرامية إلى إيجاد نوع من الوحدة بين المسلمين حتى وقوع نكبة يونيو ١٩٦٧م التي خسر فيها العرب معركتهم ضد دولة الكيان الصهيوني (إسرائيل) ، حيث قويت فكرة التجمع الإسلامي بين قادة المسلمين ـ عرباً وغير عرب ـ ثم تبلورت الفكرة في دعوة الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية لاجتماع القمة الإسلامية بالرباط في عام ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م ، الذي جاء كرد فعل على الجريمة الصهيونية في إحراق المسجد الأقصى ، وفي ذلك المؤتمر تقرر إنشاء منظمة العالم الإسلامي ـ كأول تجمع إسلامي رسمي .

وقد تم إقرار ميثاق المنظمة في المؤتمر الثالث لوزراء خارجية الدول الإسلامية المنعقد في جدة عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م ، الذي اشتركت فيه ثلاثون دولة إسلامية ، وقد تزايد عدد أعضاء المنظمة حتى شارف على ما يربو على الخمسين دولة ، وتهتم المنظمة بالمسلمين في جميع أنحاء العالم ، سواء كانوا أغلبيات أو أقليات مسلمة ، وتقرر المنظمة في ميثاقها أن الإسلام هو العامل الأقوى في تقارب وتفاهم وتضامن الشعوب الإسلامية ، بل إن العقيدة الإسلامية عامل من العوامل المهمة لتحقيق التقدم والرفاهية بين أبناء البشر .

أهداف المنظمة :

تسعى منظمة المؤتمر الإسلامي إلى تحقيق الأهداف التالية :

١ ـ تعزيز التضامن الإسلامي بين الدول الأعضاء .

٢ ـ دعم التعاون بين الدول الأعضاء في المجالات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والعلمية ، وفي المجالات الحيوية الأخرى ، والتشاور بين الأعضاء في المنظمات الدولية .

٣ ـ العمل على محو التفرقة العنصرية ، والقضاء على الاستعمار في جميع أشكاله .

٤ ـ اتخاذ التدابير اللازمة لدعم السلام والأمن الدوليين القائمين على العدل .

٥ ـ تنسيق العمل من أجل العمل على سلامة الأماكن المقدسة وتحريرها ، ودعم كفاح الشعب الفلسطيني ، ومساعدته على استرجاع حقوقه ، وتحرير أراضيه .

٦ ـ دعم كفاح جميع الشعوب الإسلامية في سبيل المحافظة على كرامتها واستقلالها ، وحقوقها الوطنية .

٧ ـ إيجاد المتاخ الصحيح لتعزيز التعاون والتفاهم بين الدول الأعضاء والدول الأخرى .

وقد تبنى الملك فيصل آل سعود ـ يرحمه الله ـ الدعوة إلى التضامن الإسلامي للوقوف أمام المخططات الاستعمارية ، ولم شعث المسلمين ، ومجابهة الغزو الفكري بجميع أشكاله ، وقام من أجل ذلك بعدة جولات في معظم البلاد الإسلامية ، كما أرسلت المملكة العربية السعودية عدة بعثات لأفريقيا من أجل مساعدة المسلمين هناك ، واستقبلت المئات من الطلاب في جامعاتها ، وكان نتيجة هذا المجهود :

١ ـ تنبهت الدول الأفريقية للخطر الصهيوني بعد اتصالات الملك فيصل بها ، فقطعت معظمها علاقتها السياسية مع الكيان الصهيوني ، وانقلب العديد منها إلى تأييد الحق الإسلامي في فلسطين وغيرها .

٢ ـ أنشئ البنك الإسلامي للتنمية ليسد الفراغ في مساعدة الدول الإسلامية النامية ، وليقدم المساعدات لها على أسس خالية من المعاملات الربوية .

٣ ـ أنشئت الأمانة العامة للدول الإسلامية بجدة بعد انعقاد عدة دورات لملوك ورؤساء الدول الإسلامية (منظمة الدول الإسلامية) ، وعقدت عدة مؤتمرات قمة إسلامية ، أسفر الثالث منها على تأسيس مجمع الفقه الإسلامي في مكة .

٤ ـ أنشئ المجلس الأعلى للمساجد ، وبدأ العمل في التنسيق بين مؤسسات الدعوة في العالم الإسلامي ، ورعاية المساجد ، وإعداد الدعاة .

٥ ـ تبني القضايا الإسلامية ، ومد يد العون للأقليات المسلمة التي تعاني الظلم والاضطهاد ، وأنشئ معهد شئون الأقليات المسلمة التابع لجامعة الملك عبدالعزيز بجدة (ولكنه انتقل فيما بعد إلى لندن) ، لخدمة الأقليات المسلمة ودراسة مشاكلها .

وأنشئت إذاعة نداء الإسلام في مكة المكرمة لخدمة قضايا الأقليات المسلمة أيضاً ، وأصبحت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة تجمعاً كبيراً لأبناء المسلمين ، ومكاناً لإعداد الدعاة(٤) .

٦ ـ وافقت منظمة العالم الإسلامي في مؤتمرات لاحقة على إقامة ما يلي :

ـ صندوق التضامن الإسلامي .

ـ صندوق القدس .

ـ اتحاد المصارف الإسلامية .

ـ الغرفة الإسلامية للتجارة ، والصناعة وتبادل السلع .

ـ البنك الإسلامي للتنمية .

ـ وكالة الأنباء الإسلامية الدولية .

ـ منظمة إذاعات الدول الإسلامية .

ـ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والتكنولوجيا والتنمية في جدة .

ـ اللجنة الدولية للتراث الإسلامي .

ـ المركز الإسلامي للتنمية التجارية في طنجة .

ـ المركز العالمي للتربية والتعليم الإسلامي في مكة المكرمة .

ـ المركز الإسلامي للتدريب التقني والبحوث في داكا بالسنغال .

ـ اللجنة الإسلامية الدولية للقانون .

ـ مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في استانبول[٥] .

هذا بالإضافة إلى غير ذلك من المؤسسات والمراكز الرامية إلى زيادة العلاقات الاقتصادية المتبادلة بين دول العالم الإسلامي ، وغير ذلك من التوصيات التي تهدف إلى تجاوز مشكلات التخلف الاقتصادي التي يعاني منها العالم الإسلامي ، وكذلك تعزيز مبدأ التضامن الإسلامي بين تلك البلدان ، وسبل التعاون والتكامل بينها في جميع المجالات الاقتصادية ، والدفاعية ، والأمنية ، والصحية ، والاجتماعية وغيرها ، والعمل على تحقيق ذلك .

كما دعت المنظمة الحكومات الإسلامية إلى الاتفاق على ميثاق إسلامي مستمد من الكتاب والسنة يجمع كلمتها ، ويوحد سياستها ، ويعزز قوتها ، ويجعل ولاءها لدينها ، وانتصارها بربها ـ لا بالتحالف مع أعدائها ، وأن تكون العلاقات الدولية خاضعة للسياسة الشرعية الإسلامية ـ وكذلك ضرورة التعاون الاقتصادي بين الأقطار الإسلامية على أساس إسلامي ، وضرورة رعاية الأقليات المسلمة ومساعدتهم .

كما وضعت المنظمة المبادئ العامة التي تحكم العلاقات بين الدول الأعضاء في الآتي : المساواة بين الأعضاء ، واحترام تقرير المصير ، وعدم التدخل في الشئون الداخلية للدول الأعضاء ، واحترام سيادة أراضي كل عضو ، والامتناع عن استخدام القوة أو التهديد بها ضد وحدة وسلامة كل عضو ، وحل الخلافات بالطرق السلمية .

كما اشتمل ميثاق المنظمة على هيئات المؤتمر الإسلامي ، وتتكون من : مؤتمر ملوك ورؤساء الحكومات ، وينعقد مرة كل ثلاث سنوات ، ومؤتمر

وزراء الخارجية ، ويجتمع كل سنة أو عند الحاجة في أي بلد من البلدان الأعضاء ، وأخيراً الأمانة العامة للمؤتمر ، والمؤسسات التابعة لها ، ومقرها جدة بالمملكة العربية السعودية .

وللمنظمة ـ كما أسلفنا ـ عدة مؤسسات منتشرة بين جدة ، والرياض ، ودكا ، وكراتشي ، واستانبول وغيرها .

وقد ساهمت منظمة المؤتمر الإسلامي في إقامة العديد من المؤتمرات الدولية الخارجية الخاصة بالإسلام والمسلمين في شتىٰ المجالات التعليمية ، والزراعية ، والثقافية ، والإعلامية وغيرها ، وهي في هذا ، وفي كل أنشطتها الأخرىٰ إنما تهدف إلىٰ تحقيق التقارب بين المسلمين ، ودعم وحدة الدول الإسلامية وبلوغ التضامن الإسلامي المنشود .

٢ ـ رابطة العالم الإسلامي :

وهي منظمة إسلامية عالمية ، وشعبية ، تمثل كافة الشعوب الإسلامية في أنحاء العالم ، وقد انبثقت عن المؤتمر الإسلامي العام الأول الذي عقد بمكة المكرمة في ١٤ ذي الحجة عام ١٣٨٢هـ/ مايو ١٩٦٢م ، ومقرها مكة المكرمة ، ولها مجلس تأسيس مؤلف من كبار العلماء ، ورجال الفكر في العالم الإسلامي ، وقد لقيت كل التشجيع والدعم من حكومة المملكة العربية السعودية ولها عدة مكاتب منتشرة في كافة أرجاء العالم ، والرابطة معترف بها دولياً باعتبارها عضواً في منظمة الأمم المتحدة ، ضمن المنظمات غير الحكومية ، كما أنها عضو في منظمة «اليونسكو» ، وفي صندوق الطفل العالمي بهيئة الأمم المتحدة .

وللرابطة «مجلس تأسيسي» هو الذي يرسم سياستها ، ويحدد أهدافها ، ويتكون المجلس من ست وخمسين عضواً من العلماء والمفكرين المسلمين ، ويجوز زيادة هذا العدد ، وذلك بترشيح من الأمين العام ، وموافقة المجلس التأسيسي ، والسلطة التنفيذية في الرابطة هي «أمانتها العامة» ، ومقرها مكة

المكرمة أيضاً ، والأمين العام ـ إلى جانب مسئولياته التنفيذية ـ هو المسئول عن التنظيم والتكوين الإداري والمالي للرابطة . . وهو كذلك حلقة الاتصال المباشر بين الرابطة ومختلف الجهات والهيئات العالمية ، وهو المسئول عن متابعة أعمال الرابطة ، ورفع التقارير عن تلك الأعمال إلى المجلس التأسيسي الذي يجتمع مرة واحدة في موسم الحج من كل عام ، وقد يجتمع أكثر من مرة في العام في الحالات الاستثنائية[٦] .

وللرابطة عدة إدارات مثل : إدارة المؤتمرات والمجلس التأسيسي ، إدارة الثقافة الإسلامية ، إدارة الصحافة والنشر ، إدارة الأقليات المسلمة ، وغيرها .

أهداف الرابطة :

١ ـ تبليغ دعوة الإسلام وشرح مبادئه ودحض الشبهات عنه .

٢ ـ التصدي للتيارات ، والأفكار الهدامة التي يريد منها أعداء الإسلام فتنة المسلمين عن دينهم وتمزيق وحدتهم .

٣ ـ الدفاع عن القضايا الإسلامية بما يحقق مصالح المسلمين .

٤ ـ دعم الجمعيات الإسلامية التي تعمل على خدمة المسلمين ، ونشر الدين الإسلامي في كافة أنحاء العالم .

٥ ـ تقديم الخدمات للمسلمين في جميع دول العالم .

ولكي تتمكن الرابطة من تحقيق أهدافها تلك ، فإنها تستخدم العديد من الوسائل ، مثل :

١ ـ العمل على تحكيم الشريعة الإسلامية في البلاد الإسلامية .

٢ ـ تشجيع الدعاة المسلمين ـ مادياً ومعنوياً ـ للعمل على نشر الدين الإسلامي ، وتنسيق جهودهم .

٣ ـ دعم المنظمات والمؤسسات الإسلامية التي لها صلة بالرابطة والعمل معها لخدمة الدعوة الإسلامية .

٤ ـ العمل على تنقية وسائل الإعلام الإسلامي مما قد يلحق بها من تأثيرات وأفكار غريبة عن روح الإسلام .

٥ ـ نشر التعليم الإسلامي بالمساهمة في إنشاء المدارس والمعاهد الإسلامية في أنحاء العالم الإسلامي ، ودعمها في حدود الإمكانات المتاحة .

٦ ـ دراسة مشاكل الأقليات المسلمة ، والتعرف على مطالبهم ، ومد يد المساعدة لهم .

٧ ـ الاستفادة من مناسك الحج ـ إلى أبعد مدى ممكن ـ في مجال التوعية الإسلامية ، وذلك عن طريق المحاضرات والندوات الإسلامية التي تقيمها الرابطة في موسم الحج .

٨ ـ العمل على نشر لغة القرآن الكريم بين الشعوب المسلمة حتى تكون لغة التفاهم بين الجميع .

٩ ـ تشجيع التأليف الإسلامي ، والاعتناء بالكتب التي تشرح حقائق الإسلام الناصعة ، وتشجيع المؤسسات الصحفية ، ودور النشر التي تخدم الدعوة الإسلامية[٧] .

أنشطة الرابطة :

للرابطة مكاتب فرعية في مختلف دول العالم ، وهي معترف بها رسمياً من قبل سلطات تلك الدول ، بل إن العديد منها يتمتع بالامتيازات والحصانات الدبلوماسية ـ وقد بلغ عدد مكاتب الرابطة في جميع أنحاء

العالم ٢٥ مكتباً حتى عام ١٤٠٥هـ ، كما بلغ عدد دعاتها المنتشرين في أفريقيا وآسيا وأوروبا حوالي ٩٣٦ داعية .

وللرابطة نشاط مقدر في تقديم المساعدات المالية والعينية للاجئين والمتضررين من الكوارث ، وقد أنشأت لهذا الغرض «هيئة الإغاثة الإسلامية» ، ومقرها مكة المكرمة ، ولها عدة مراكز في عدد من البلدان الأفريقية والآسيوية ، مثل الصومال ، والنيجر ، وبنجلاديش وباكستان وغيرها .

كما أن للرابطة دوراً في نشر الفكر والوعي الديني ، أنشأت من أجله مطبعة خاصة ، تقوم بطباعة الكتب والنشرات في هذا المجال ، وقد اهتمت الرابطة بترجمة معاني القرآن الكريم بمختلف اللغات ، وأنشأت لذلك إدارة شئون وأبحاث القرآن الكريم ، وترجمة معانيه .

وتصدر الرابطة مجلتين : عربية وإنجليزية ، بالإضافة إلى جريدة أخبار العالم الإسلامي الأسبوعية ، وكتاب دعوة الحق الشهري ، وتقوم الرابطة بتشجيع عدد من الصحف الإسلامية في مختلف أنحاء العالم .

وأسست «الرابطة المجمع الفقهي الإسلامي» ، ويتكون من جماعة من العلماء والفقهاء يتولون دراسة واقع الأمة الإسلامية ، ومشكلاتها ، وإيجاد الحلول الصحيحة المعتمدة على مصادر الفقه الإسلامي ، وإحياء التراث ونشره ، وقد انبثقت من المجمع الفقهي عدة لجان منها : لجنة المصطلحات الفقهية ، ولجنة التراث الفقهي ، ولجنة البحث العلمي وغيرها[٨] .

والواقع أن اهتمامات الرابطة كثيرة ، وكذلك أنشطتها ، وتمثل ذلك في المجالس والمؤسسات الإسلامية التي أنشأتها ، والدور الذي قامت به تلك المجالس ، مثل «المجلس الأعلى للمساجد» ، والذي بلغ عدد أعضائه خمسة وخمسون عضواً يمثلون مختلف الشعوب والأقليات الإسلامية في

العالم ، ومن أهم أهدافه حماية المساجد ، والعمل على حرية الدعاة وأئمة المساجد ، وبناء الشخصية الإسلامية فكراً وعقيدة وسلوكاً ، وقد أُسست فروع له في مختلف بلاد آسيا وأفريقيا وأوروبا ، وأمريكا .

كما أن الرابطة نشطت إلى حد بعيد في مجال عقد المؤتمرات الإسلامية والعمل على نشر القرآن الكريم ، والثقافة الإسلامية بتوزيع الكتاب الإسلامي ، وتصدت للحركات المعادية للإسلام كالصهيونية ، وحركات التنصير ، والقاديانية ، والماسونية ، والشيوعية ، والعلمانية ، والبهائية والحركات الهدامة الأخرى ، واهتمت الرابطة أيضاً بقضايا الجاليات الإسلامية المضطهدة ، وفي مقدمتهم مسلمي الفلبين ، ومسلمي روسيا ، وفطاني ، وكشمير ، وفلسطين وغيرها .

وهكذا نرى أن رابطة العالم الإسلامي ، ومنظمة المؤتمر الإسلامي مظهران من مظاهر الصحوة الإسلامية الحديثة والمعاصرة ، فكلاهما دعوتان نشطتان للتضامن الإسلامي ، أسهمت المملكة العربية السعودية في دعمهما ونشاطهما بدور رائد ومقدر ، وكلاهما محاولتان لدرء الأخطار عن الدول والأقليات الإسلامية ، وللارتقاء بأحوال العالم الإسلامي نحو مزيد من الترابط والتقارب بتقريب وجهات النظر المختلفة حول المسائل العالقة ، وبتعزيز وجهات النظر المتقاربة ، والكل من المخلصين من قادة المسلمين وعامتهم يتمنون لهما ، ولكل مسعى تضامني إسلامي النجاح والسداد .

٣ ـ المؤسسات الثقافية والتعليمية الإسلامية :

وهي كثيرة ، منتشرة في عدد من بلدان العالم الإسلامي ، وكلها مؤسسات تثقيفية هدفها الاهتمام بشئون التعليم في البلاد الإسلامية ، والعمل على جعل الثقافة الإسلامية محور التعليم في تلك البلاد ، وسنكتفي بالحديث عن أهم تلك المؤسسات ، ومنها :

أ ـ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) :

أنشأتها منظمة المؤتمر الإسلامي تنفيذاً لتوجيهات قادة الدول الإسلامية، وهي منظمة متخصصة تعمل في ميادين العلوم والثقافة ، ولها شخصيتها القانونية الاعتبارية المستقلة ، ولها أجهزتها الخاصة بها وهي :

١ ـ المؤتمر العام ـ وهو هيئتها العليا ـ ويضم وزراء الثقافة والعلوم في دول منظمة ا لمؤتمر الإسلامي .

٢ ـ الإدارة العامة ، وعلى رأسها مدير عام منتخب من المؤتمر العام ، ومن أهم أهدافها :

حماية الهوية الإسلامية وتقويتها وبخاصة في أوساط الأقليات المسلمة، والدفاع عن الإسلام وعرضه بالطريقة الصحيحة ، والعمل على محو الأمية بين المسلمين ، وتطوير المدارس القرآنية ، وتوثيق روابط الأخوة بين الأعضاء والاهتمام بتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها يهدف تعلم الدين .

ولعل هذه المنظمة هي من المنظمات التعليمية النشطة والتي نلحظ نشاطها في عدد من الدول الإسلامية ، والتي ولاتزال جهودها تنمو وتتسع(٩) .

ب ـ المركز العالمي للتعليم الإسلامي :

أنشئ هذا المركز بموجب توصية صدرت عن المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي الذي عقد في عام ١٩٧٧ بمكة المكرمة ، وقد أشرفت على تنظيمه وإعداده جامعة الملك عبدالعزيز بجدة ، ثم انتقل الإشراف عليه إلى جامعة أم القرى مع بداية العام الجامعي ١٤٠١ ـ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١ـ١٩٨٢م .

وقد صودق على لائحته الأساسية وميزانية من قبل مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية الذي عقد في مدينة إسلام أباد في باكستان عام ١٩٨٠ ، ومقره الرئيسي مكة المكرمة ، وافتتح رسمياً في عام ١٩٨١م ، ويرأسه مدير عام يعاونه مجلس إدارة مكون من خمسة عشر عضواً مختارين ـ ويتكون المركز من ثلاث لجان هي : اللجنة التنظيمية ، واللجنة التنفيذية ، ولجنة السكرتارية .

ومن أهداف هذا المركز :

١ ـ وضع الكتب والمناهج الدراسية على أسس من التعاليم الإسلامية بما يحقق غرس القيم السليمة في نفوس الناشئة .

٢ ـ ترسيخ القيم الإسلامية وتدعيمها بين الناس عن طريق مناهج التعليم ذات السمة الإسلامية .

٣ ـ تغيير المفاهيم العلمانية المعادية للدين وإحلال مفاهيم إسلامية في شتى فروع المعرفة .

٤ ـ العمل على تحقيق توصيات ما يعقد من مؤتمرات للتعليم الإسلامي .

ويعمل المركز على تحقيق هذه الأهداف عن طريق عقد المؤتمرات والندوات العلمية في مجال التعليم الإسلامي ، وبالقيام بمشروعات الأبحاث في مختلف ميادين التعليم ، وقد تم إنشاء مراكز فرعية للتعليم الإسلامي في شتى أنحاء العالم الإسلامي ، وإعداد المطبوعات والمنشورات بالتعاون مع الجامعات الإسلامية والعربية حول مختلف موضوعات التعليم الإسلامي ، ولهذا المركز فروع في باكستان ، وبنغلاديش وإندونيسيا وغيرها .

جـ ـ الاتحاد العالمي للمدارس العربية الإسلامية الدولية :

هو مؤسسة عالمية للتربية والثقافة الإسلامية هدفها نشر الثقافة الإسلامية في داخل العالم الإسلامي وخارجه ، وقد أنشئ بموجب قرار مؤتمره التأسيسي الذي عقد في الرياض في الفترة ما بين ٢٢ـ٢٦ ربيع الأول ١٣٩٦هـ الموافق ٢٢ـ٢٦ مارس ١٩٧٦م ، ومدينة الرياض هي مقر أمانته العامة ، ولها مكاتب في كل من جدة ، القاهرة ، الخرطوم ، لندن ، نيويورك ، ويتكون الاتحاد من عدد من المؤسسات التعليمية التي تعمل على نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية على المستوى المحلي والمستوى العالمي ، ويشترط فيها أن تكون مؤسسات خاصة من حيث الإدارة والتوجيه ، وأن يكون تلاميذها من المسلمين ، وأن تعلم اللغة العربية كمادة أساسية في منهجها ، وكذلك أن تجعل المبادئ الإسلامية أساس التربية والثقافة فيها ، وأن تهيئ للتلاميذ بيئة إسلامية من حيث العقيدة والخلق .

وتتمثل أهداف الاتحاد في :

١ ـ نشر اللغة العربية ، ورفع مستوى تعليمها في أنحاء العالم باعتبارها لغة القرآن الكريم ، وأساسية لجميع المسلمين ، ونشر الثقافة الإسلامية باعتبارها ثقافة عالمية يهتم بها المسلمون وغير المسلمين والعمل على تعليم اللغة العربية لغير المسلمين ، واتخاذها نافذة تصلهم بالثقافة الإسلامية ، وتمكنهم من التعامل والتفاعل مع المسلمين ، وتنطلق هذه الأهداف من كون الثقافة الإسلامية هي العامل المشترك بين المسلمين ، وهي التي توحد بين أبناء المسلمين من مختلف الجنسيات ، كما أن الاتحاد يعمل لتحقيق هذه الأهداف عن طريق تشجيع ورعاية المعاهد الإسلامية التربوية والتعليمية والثقافية ذات الطابع الدولي داخل العالم الإسلامي وخارجه ، وتزويد هذه المعاهد بالخطط والدراسات والخبرات الفنية والمساعدات المالية اللازمة لإنجاحها ، وكذلك إعداد الدورات التدريبية لمعلمي اللغة العربية

والدراسات الإسلامية ، مما يتضح اهتمام وعمل الاتحاد من أجل إيجاد قواعد وأسس إسلامية تعليمية ثقافية تقوم عليها الوحدة الإسلامية(١٠) .

الحاجة إلى التعاون الاقتصادي :

يعاني العالم الإسلامي اليوم من الفقر ، ويعيش سكانه حالة محزنة من الحرمان والتخلف الاقتصادي ، رغماً عن الثروات والإمكانات الاقتصادية الهائلة التي يتمتع بها ، فأرضه واسعة تربو على أربعين مليون كيلو متر مربع ، وثرواته الزراعية ، والحيوانية ، والسمكية ، والمعدنية كبيرة ، وطاقته البشرية ضخمة ، وهو زاخر بالأيدي العاملة الكافية للتنمية الاقتصادية ، وفوق هذا كله هناك عقيدته الإسلامية التي توجهه التوجيه الصحيح إلى حسن الاستفادة من نعم الله تعالى ـ إن هو تمسك بها . . ومع هذا فالمسلمون يعيشون «في مستنقع الفقر الذي يجر وراءه المرض ، والجهل والتخلف»(١١) ، والذي يهيئ السبيل للمؤسسات التنصيرية التي انتشرت في بلاد المسلمين لمحاولة هدم عقيدة الأمة ، وتنصير أبنائها .

وأسباب هذا الفقر والتخلف متعدد ، منها : البعد عن تعاليم الإسلام ، وعدم استقرار الأوضاع السياسية في كثير من الأقطار الإسلامية مما يضيع كثيراً من الطاقات والثروات ، ويصرف عن البناء والإصلاح ، وكذلك فقدان التعاون الاقتصادي فيما بين الدول الإسلامية ، إذ إن كل بلد لا يستطيع وحده توفير الإمكانات اللازمة للتنمية الاقتصادية ، من أراض زراعية ، ومواد أولية ، وخبرات فنية ، وسوق محلية واسعة ، كما أن بعض تلك الدول تحاول إصلاح أوضاعها الاقتصادية المضطربة بتطبيق النظم الاقتصادية الاشتراكية ، أو الرأسمالية وغيرها من الأنظمة الغربية الوضعية ، مما لا يتفق وطبيعة الشعوب المسلمة ، وظروفها الاقتصادية والاجتماعية ، بل يزيد في سوء أحوالها وتخلفها ، أضف إلى كل ذلك التبعية الاقتصادية

للدول الصناعية الكبرىٰ التي تستغل ثروات العالم الإسلامي ، فالدول الإسلامية تعد من الدول المنتجة للمواد الأولية ، ولكنها لا تستفيد مباشرة من إنتاجها ، بل إن بعض الدول الصناعية الكبرىٰ هي التي تفوز بتلك الثروات بسبب المعاهدات الثنائية الجائرة ـ التي ترجع في أحيان إلىٰ أيام الاستعمار ـ وبسبب الضغوط الاقتصادية التي تمارسها علىٰ دول العالم الإسلامي المغلوبة علىٰ أمرها .

ولمواجهة هذه التحديات ، وللتخلص من التبعية الاقتصادية ، لابد لأبناء الأمة الإسلامية المخلصين من خبراء واقتصاديين وغيرهم من الاتجاه إلىٰ بناء صرح اقتصادي سليم يقوم علىٰ نظام إسلامي متحرر من التبعية ، ويقوم علىٰ التعاون الصادق ، والتعاون الكامل بين الأقطار الإسلامية ، وقد جرت محاولات فعلية لتحقيق هذه الغايات ، فحاولت البلاد العربية إنشاء سوق عربية مشتركة لمقابلة الاحتكارات الأجنبية والوقوف ضد التكتلات الاقتصادية الغربية ، ووضع حد للمنافسة بين منتجات البلاد العربية ، وبدأت الفكرة في عام ١٩٥٦م بتشكيل لجنة من الاقتصاديين العرب لوضع مشروع الوحدة الاقتصادية ، وظهرت الفكرة إلىٰ حيز الوجود عام ١٩٦٤م ، وأعُتمد أول يناير من عام ١٩٦٥م موعداً لقيام هذه السوق ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . . وواجه مشروع السوق الإسلامية المشتركة المصير نفسه ، وكذلك مشروع الدينار الإسلامي ، والسبب في ذلك هو اختلاف وتباين الأنظمة السياسية والاقتصادية في الدول الإسلامية ، فبعض تلك الدول يطبق النظام الاقتصادي الحر ، وبعضها النظام الاقتصادي الاشتراكي ، وذلك يؤدي إلىٰ عدم التجانس ، واستحالة التعاون الاقتصادي المثمر(١٢) ، وهناك من يرىٰ أنه لابد من إيجاد أساس قوىٰ تقوم عليه عملية التكافل الاقتصادي ، ويرون أن ذلك الأساس يتمثل في الاتجاه إلىٰ النظام الاقتصادي الإسلامي ، حتىٰ تستطيع دول العالم الإسلامي أن

تقف صامدة قوية أمام تحديات السوق الأوربية المشتركة ، وغيرها من التكتلات الاقتصادية الأوروبية وغير الأوروبية . . وهناك تباشير خير يشهدها العالم العربي اليوم ، ولعلها تكون المثال الذي يحتذىٰ ، أو النواة لوحدة اقتصادية أكبر ، تلك التباشير هي قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربي الذي تأسس عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، والذي لاتزال تمشي بخطوات ثابتة علىٰ طريق التعاون والتكامل الاقتصادي ، الذي نرجو أن يكون مع مجلس التعاون المغربي (والذي تعثرت خطواته هذه الأيام) خطوة أولىٰ تسير علىٰ هديها بقية دول العالم الإسلامي ، التي لن تتمكن من إنجاز قيام سوقها المشتركة ، وتعاونها الاقتصادي إلا بتوحيد أنظمتها الاقتصادية ، مستنيرة بذلك ، بالنظام الاقتصادي الإسلامي .

ونحن نشهد اليوم بدايات حادة لترميم البناء الاقتصادي لدول العالم الإسلامي ، المتمثل في جهود منظمة المؤتمر الإسلامي التي أعارت التعاون الاقتصادي بين الدول الأعضاء أهمية كبرىٰ ، فمثلاً أنشئ في عام ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م «البنك الإسلامي للتنمية» و«صندوق التضامن الإسلامي» الذي تسهم فيه الدول الأعضاء ، كل حسب قدراتها الاقتصادية ، وقد قامت المملكة العربية بمجهود رائد في هذا المجال ، وتبرعت بما يساوي ثلث رأس مال البنك ، فأسهمت بمبلغ ألف مليون دولار ، ودعت الدول القادرة من أعضاء المؤتمر الإسلامي بتخصيص مبلغ لايقل عن ثلاثة آلاف مليون دولار أمريكي لتمويل مشروعات التنمية في الدول الإسلامية(١٣) .

ولابد من قيام مثل هذه المشروعات الإسلامية للقضاء علىٰ حالات الفقر التي لا تزال تعاني منها الأمة الإسلامية ، وذلك بدعم التعاون الاقتصادي علىٰ أساس تكامل إمكانات الدول الإسلامية من أجل تطوير التنمية المتناسقة لبلدانها ، ولسد حاجات عالمنا الإسلامي .

هوامش الفصل الخامس

(١) جميل عبد الله المصري - مرجع سابق - ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) نفس المرجع - ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٣) نفس المرجع - ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٤) نفس المرجع - ص ٢٧٧ - ٢٨٠ .

(٥) داود علي الفاضل الفاعورة - محاضرات في حاضر العالم الإسلامي - ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٦) رابطة العالم الإسلامي - عشرون عاماً على طريق الدعوة والجهاد - مكة المكرمة - ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م - ص ٢ - ٤ .

(٧) نفس المرجع - ص ٥ .

(٨) نفس المرجع - ص ١٠ - ٢٣ .

انظر أيضاً جميل عبد الله المصري - مرجع سابق - ص ٢٨٠ - ٢٨٤ .

(٩) جميل عبد الله المصري - مرجع سابق - ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(١٠) الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي - وثائق الشئون الثقافية والاجتماعية لمؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية - بغداد ١٩٨١م - ص ١٤ .

(١١) محيي الدين حسن القضماني - مرجع سابق - ص ٦٧ .

(١٢) جميل عبد الله المصري - مرجع سابق - ص ٢٨٥ .

(١٣) محيي الدين حسن القضماني - مرجع سابق - ص ٦٩ - ٧٠ .

الفصل السادس
قضايا إسلامية معاصرة

يعيش العالم الإسلامي اليوم حالة من التشتت والضياع ، ويمر بمرحلة حرجة نتيجة للأزمات الكثيرة التي تكاد تعصف به ، والنكبات التي تحل بمعظم - إن لم يكن بكل - بلدانه ، فالمسلمون اليوم يفقدون سيادتهم في أرضهم ، ويفقدون أمنهم ، وطمأنينتهم ، واستقرارهم ، فهم يعيشون ويعانون مغبة ما بعد الاستعمار الأوروبي الذي هيمن عليهم ، وبث فيهم من فكره ما هز ثقتهم بأنفسهم ، أو كاد ، وحاول طمس معالم هويتهم وشخصيتهم الإسلامية ، فهم ضحايا ذلك الاستعمار الغربي الصليبي ، الذي استغل بعدهم عن دينهم ، وعدم تمسكهم بمبادئ عقيدتهم الصحيحة ، وغياب القيادات الإسلامية الواعية والراعية لمصالح أمتها الإسلامية ، ولكل هذه الأسباب ظلت معظم دول العالم الإسلامي تعاني من الأزمات السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية ، والفكرية والروحية التي صنعها لها الاستعمار ، وخلفها من ورائه ، لتفت من عضد العالم الإسلامي ، ولتزيده ضعفاً على ضعفه ، ولتجعله فريسه للأعداء يوماً بعد يوم .

ودلائل الضعف الذي يعانيه عالم الإسلام واضحة مؤلمة في مواجهة الأخطار والنكبات التي تحيط به ، وأمثلة الاختراق الناجح لذلك العالم الإسلامي ماثلة للعيان ، ولعل من أشدها ألماً وخطورة إقامة دولة صهيونية في قلب ذلك العالم ، غريبة عليه ثقافياً وحضارياً وعرقياً ودينياً ، ونقصد بذلك زرع الكيان الصهيوني في فلسطين المسلمة ، وهناك أيضاً قضايا الأقليات المسلمة في شتى أنحاء العالم ، وما تلاقيه تلك الأقليات من ظلم واضطهاد ، وهي جزء لا يتجزأ من أمة الإسلام ، وهناك تنفيذ المذابح الجماعية ، وعمليات التطهير العرقي الذي جرى ويجري في البوسنة والهرسك ، وهناك المأساة التي تشهد أحداثها المؤلمة كل يوم في كوسوفو ،

وغيرها من مواطن المسلمين في أوروبا ، وآسيا ، وأفريقيا ، وهناك ما يجري في الشيشان اليوم من مصادرة لاستقلال الشيشان ، ومن تقتيل ، وتهجير ، ومذابح على مرأىٰ ومسمع من العالم الذي لا يحرك ساكناً ، وذلك هو دائماً شأنه إذا ما قُتل ، وذُبح المسلمون ، فلا حديث ولا أزمات مفتعلة عن حقوق الإنسان ، وهي حقوق تثار فقط إذا مس النصارىٰ أمر ما ، وهناك معاناة المسلمين في الفلبين ، وفي بلغاريا ، وفي تايلاند وقبرص وغيرها من بلدان الأقليات المسلمة ، وما يجري لمسلمي كشمير في هذه الأيام ماثل أمام العيان ، وغيرها وغيرها من مآسي المسلمين ، ومن قضاياهم ، وحقوقهم الضائعة ، التي سنتعرض لها فيما يلي :

الأقليات المسلمة :

ويقصد بالأقلية المسلمة ؟ مجموعة من المسلمين تعيش تحت سلطان دولة غير مسلمة وفي وسط أغلبية غير مسلمة ، أي أنها تعيش في مجتمع لايكون فيه الإسلام الدين السائد ، أو الثقافة الغالبة ، ومن ثم لا يحظىٰ فيه الإسلام بمؤثرات إيجابية تساعد علىٰ ازدهار مثلة ومبادئه ، بل علىٰ العكس قد يجد فيه من العراقيل الكثير مما قد يقعد به ، وباهلة ، ولا يساعد علىٰ تحقيق هويتهم الإسلامية ، إذ إنه لا يوجد في مثل هذا المجتمع دوافع قوية لتنمية القيم والمعايير الإسلامية ، وقد يعاني المسلمون في حالات كثيرة من جهود ترمي إلىٰ «علمنتهم» وإبعادهم عن مثلهم الدينية ، وإدماجهم في ثقافة المجتمع الغالبة . . وتختلف هذه المعاناة في شدتها ولينها من بلد إلىٰ آخر ، ويتعين إذاً بذل جهد واعٍ ومتصل من أجل المحافظة علىٰ الهوية الإسلامية .

وتعريف الأقلية المسلمة لايكون من حيث المعيار العددي فقط ، وإنما من حيث وجودها الفاعل في الأجهزة السياسية والمدنية أيضاً ، وقد يشكل

المسلمون في دولة ما أغلبية عددية ، ولكن ليس لهم نفوذ سياسي واقتصادي فاعل ، أو دور مؤثر في صناعة القرارات المصيرية[١] ، كما هو الحال في إثيوبيا وتنزانيا ، وهناك من الكتاب من يرىٰ أن المعيار العددي هو من أدق المعايير في تحديد ما يطلق عليه دولة إسلامية ، وما يطلق عليه أقلية مسلمة في دولة غير إسلامية ، إذ يرىٰ أولئك أن الدولة التي يزيد عدد المسلمين فيها عن ٥٠٪ من من السكان هي دولة إسلامية ، وإذا قل المسلمون عن تلك النسبة المئوية كان المسلمون أقلية في الدولة المعنية ، والعقبة في هذا التعريف هو انعدام الإحصاءات السكانية التي يمكن الاعتماد عليها ، وكذلك غياب الانتماءات الدينية للسكان في الإحصاءات إن وجدت ، وسواء أخذنا بهذا التعريف أو ذاك للأقلية المسلمة ، فإن تلك الأقلية تبقىٰ جماعة مسلمة تعيش في مجتمع وبيئة غير إسلامية ، لا تتمتع فيه بالنفوذ السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وإنما تبقىٰ خاضعة لسيطرة وهيمنة الأغلبية غير المسلمة في المجالات كافة ، بحيث يكون وضعها في ذلك المجتمع وضعاً هامشياً .

ولوضع الأقليات المسلمة في محتواها الصحيح من حيث وزنها العددي لابد من إعطاء فكرة عامة عن توزيعها في العالم ، ولن يعدو الأمر أن يكون فكرة عامة ، إذ ليس لدينا حتىٰ الآن أية إحصائية دقيقة عن الأقليات المسلمة في العالم ، وكل ما هناك ضرب من التخمين ، والتقديرات العامة التي قد تقترب أو تبتعد عن الحقيقة ، فمثلاً هناك بعض التقديرات المتحفظة التي تقول إن واحداً من بين كل ثلاثة مسلمين في العالم اليوم هو من ضمن أفراد الجاليات الإسلامية المنتشرة في أنحاء العالم .

وفي الوقت نفسه يقدر العدد الإجمالي للسكان المسلمين في العالم بـ ١,١٦٠,٥٩ «بليون ومائة وستين مليون وتسعة وخمسين ألف نسمة» ، ومن هذا العدد الكلي هناك حوالي ٣٣٦,٤٢ مليون نسمة يعيشون كأقليات في دولٍ غير مسلمة .

وعلى نطاق عالمي فإننا نجد أن واحداً من بين كل خمسة أشخاص في عالم اليوم مسلم ، ومن ثم فإن واحداً من بين كل خمسة عشر شخصاً في العالم اليوم هو أحد أفراد الأقليات المسلمة ، والمسلمون اليوم يشكلون نسبة ٢٣,٢٪ من جملة سكان العالم الذين يقال إنهم تخطوا حد الخمسة بلايين نسمة ، وإذا ما استمرت معدلات النمو السكاني الراهنة ، فإن عدد المسلمين في العالم سيصل إلى ١,٦١١,٢٧ مليون ـ «أي بزيادة ٤٥٠ مليون نسمة عما هو عليه الآن» ـ وستكون ساعتئذٍ نسبتهم ما يوازي ٢٦,٨٥٪ من سكان العالم ، كما أن عدد أفراد الأقليات المسلمة سيشهد زيادة موازية وسيقفز من الرقم الحالي (٣٣٦,٤٢ مليون نسمة) إلى ما يقارب نصف بليون نسمة .

وبحلول العام ٢٠٠٠م فإن واحداً من كل أربعة أشخاص في العالم سيكون مسلماً ، وكذلك سيكون من بين كل اثني عشر شخصاً في العالم فرد ينتمي للأقليات المسلمة[٢] .

وهناك الآن تواجد إسلامي في نحو تسعين دولة من دول العالم ، بينهما أربعة وأربعين دولة إسلامية (أي ذات أغلبات مسلمة) ، والبقية (٤٦) دولة أقليات مسلمة ، فالمسلمون في قارة آسيا مثلاً يقدرون بحوالي ٨٩٢ مليون مسلم ، منهم ٢٥١ مليوم مسلم يعيشون كجماعات وأقليات مسلمة ، ويشكلون نسبة ٢٨,١ من أجمالي عدد المسلمين في آسيا ، كما أن عدد الأقليات المسلمة في أوروبا يقدر بحوالي ٦٦ «ستة وستون» مليون نسمة ، أي بنسبة ٩٪ من مجموع سكان أوروبا البالغ عددهم ٧٣٢ مليون نسمة ، ووصل عدد المسلمين في القارة الأمريكية ، وفي استراليا إلى حوالي ١٣ مليون مسلم ، ونسبة المسلمين هناك تعتبر من أصغر النسب مقارنة بباقي القارات ، إذ إن نسبة المسلمين لا تزيد عن ١,٧٪ من مجموع السكان .

وتقول هذه الإحصائية الصادرة عن منظمة المؤتمر الإسلامي أن عدد

المسلمين في أفريقيا يقدر بحوالي ٣١٦ مليون مسلم من مجموع سكان القارة البالغ عددهم ٦٥٢ مليون نسمة ، وأن ٤٤ مليون مسلم في قارة أفريقيا يعيشون كأقليات مسلمة بنسبة ٩ , ١٣٪[٣] .

وهناك تقديرات أخرىٰ تجعل عدد الأقليات المسلمة العائشة خارج حدود العالم الإسلامي حوالي ٣٧٤ مليون نسمة (ثلاثمائة وأربعة وسبعون مليون نسمة) ويمثل هذا العدد ٣١٪ من مجموع سكان العالم الإسلامي ، وأن الأغلبية منهم تعيش في قارة آسيا (حوالي ٤ , ٧٥٪ من مجموع الأقليات) ، أما أقليات أوروبا المسلمة فتكون حوالي ٤٪ من الأقليات المسلمة ، أما بالنسبة للقارة الأمريكية (الشمالية والجنوبية) فليست لنا نسبة للأقليات فيها ، اللهم إن معظمهم يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية ، أما في قارة أفريقيا فإن الأقليات المسلمة تشكل حوالي ١٢٪ من مجموع الأقليات المسلمة في العالم[٤] .

ويختلف توزيع المسلمين في القارة الواحدة من دولة إلىٰ أخرىٰ ، ففي قارة آسيا ستعيش معظم الأقليات المسلمة في الصين والهند ، ففي الصين يعيش حوالي ١٠٠ مليون مسلم (وإن كانت بعض المنظمات الإسلامية ترىٰ أنهم أكثر من ذلك بكثير ، ولكن لا سبيل لمعرفة أعدادهم الحقيقية) ، وتقول الاحصائيات الهندية الرسمية أن عدد المسلمين في الهند حوالي ٩٠ مليون مسلم ولكن المسلمين أنفسهم يعتقدون أن عددهم حوالي ١٥٠ مليون مسلم ، أما في قارة أوروبا فإن أبرز الأقليات المسلمة تعيش في يوغسلافيا (السابقة) ، وبلغاريا ، وفي أفريقيا توجد أكبر الأقليات المسلمة في أثيوبيا ، وتنزانيا ، وإلىٰ حد أقل في كينيا ، وأوغندا وغانا[٥] .

ويبدو واضحاً من خلال هذه التقديرات أن الأقليات المسلمة تشكل نسبة لا يُستهان بها من العدد الكلي للمسلمين في عالم اليوم ، كما أنهم

يمثلون من الناحية العددية مجموعاً لا يستهان به ، فهم على أقل تقدير «ثلث» عدد المسلمين ، والثلث ليس بالشيء اليسير ، وفقدانه من خلال الإهمال يشكل من الناحية العددية كارثة لايمكن التكهن بأبعادها .

إن احتمال حدوث مثل هذه الخسارة ليس بالأمر المستبعد كلياً ، ويمكن الاستدلال على ذلك بإلقاء نظرة على تاريخ المسلمين في الصين ، فطبقاً لإحصاءات رسمية متوفرة منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي والعقود الأولى من القرن العشرين يفترض أن يكون عدد المسلمين في الصين في الوقت الراهن قد تجاوز الـ ١٠٠ مليون نسمة (وبتقرير آخر ١١٥ مليون نسمة) ، بيد أن التقديرات الصينية الرسمية الراهنة تجعل عددهم ما بين ١٧ مليون والـ ٣٠ مليون نسمة فقط . .

ولتحديد مدى الخسارة النوعية التي قد تنجم عن ذلك ما على المرء إلا أن ينظر فقط في التاريخ الإسلامي ليتعرف على المساهمة التي لا تقدر بثمن التي قدمتها الأقليات المسلمة عبر الزمن لخدمة الدين الإسلامي وخدمة كيان الأمة الإسلامية .

وقبل الحديث عن المشاكل والتحديات التي تواجه الأقليات المسلمة ، وعن سبل علاجها ، لابد من تقرير بعض الحقائق العلمية الهامة الخاصة بموضوع الأقليات المسلمة ، والتي لا تجد من الكتاب ، ومن المهتمين بأمر مساعدة الأقليات المسلمة العناية والفهم الضرورين ، ولعل أول تلك الحقائق افتقاد المعلومات الدقيقة عن تلك الأقليات ، وبخاصة عن احتياجاتهم الاقتصادية ، والتعليمية والاقتصادية . . إلخ ، وبدون تلك المعلومات لا يمكن للمهتمين بأمر مساعدة تلك الأقليات التخطيط العلمي السليم لمواجهة المشاكل والمصاعب التي تواجههم ، ونقول ذلك ونحن نرى أن هناك اهتماماً واضحاً اليوم بأمر الأقليات المسلمة ، ولعل السبب في ذلك

هو ظاهرة إحساس الأمة الإسلامية بنفسها ، المتجلية في الصحوة الإسلامية التي تعم أرجاء الوطن الإسلامي ، فالأقليات المسلمة هي «ثلث» الأمة ، ولذا فإن شعور الأمة بنفسها وصحوتها لن يكون كاملاً ، ما لم تُحدَث معلوماتها عن ذلك الثلث ، ومحاولة معرفة أحواله معرفة عميقة وصحيحة ، وذلك بجمع الإحصاءات والمعلومات الدقيقة عن الأقليات المسلمة . . بدلاً عن المعلومات العامة ، والتعميمات عن أحوالها ، والتركيز الشديد على السلبيات في حياتها وبالذات عن مسألة الاضطهاد الذي تلقاه تلك الأقليات حتى يخيل للقارئ أن معظم ما كتب عنهم هو إبراز ذلك الجانب السلبي في حياتهم ، الذي يصور لنا أن الأقليات المسلمة تعاني من «عقدة الاضطهاد» ، الأمر الذي يقلل من اعتمادها على نفسها ، ويشل من حركتها ونشاطها الداخلي ، ويجعلها تعتمد دائماً على المساعدات الخارجية(٦) .

لابد من نظرة إيجابية للمشكلات التي تواجه الأقليات المسلمة ، فهي مشكلات عملية تحتاج لحلول علمية ، لذا ولابد من محاولة فهم أوضاع ومشكلات تلك الأقليات فهماً علمياً واقعياً ، ولابد من التخلص من نظرتنا للأقليات المسلمة على أنها جماعات مستضعفة ، مقهورة ، مضطهدة ، علينا نصرتها ، ومناصرتها على القوم الكافرين الذين تعيش في أراضيهم ولا يمكن حل مشاكل الأقليات دون تعاون وحسن نية ، وأهم من ذلك دون الحصول على المعلومات الدقيقة والموضوعية التي يمكن الاعتماد عليها لتشمل إحصاءات عن أعداد الأقليات ، وعن نسبة التعليم والأمية بينهم ، وعن أحوالهم الاقتصادية ، وظروفهم الاجتماعية والبيئية ، وعن حالة التعليم الإسلامي بينهم ، وفن لغة التعليم ، عن المادة والكتب الإسلامية الموجودة لديهم ، وعن حالة الذكور والإناث ، وعن نوع المساعدات التي يحتاجونها ، وعن أسبقيات احتياجاتهم ، هل حاجتهم لبناء المساجد أولاً ،

أم لإنشاء المؤسسات التعليمية الإسلامية ، أم بث تعاليم الدين فيهم وإرجاعهم من جديد إلى دائرة الإسلام . . وهكذا دواليك .

والأقليات المسلمة على اختلاف مواطنها تعاني من قضايا ومشكلات مشتركة ، هي باختصار مشكلات الانقسام الداخلي ، ومشكلة ضياع الهوية الإسلامية والذوبان الثقافي في المجتمعات المحيطة بهم ، وكذلك مشكلات تهتك النسيج الاجتماعي ، والتخلف التعليمي والثقافي ، والغياب الإعلامي في مواجهة طغيان أجهزة الإعلام المعادية لها ، وهناك مشكلة التنصير وبخاصة في أفريقيا وآسيا ، وهناك أيضاً مشكلات المعاناة من الوهن العام الذي تتبدى مظاهره في عدم المشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية في بلادهم . . أي أن ليس لها وجود في السلطة السياسية والخدمة المدنية ، وليس لها نفوذ اقتصادي فاعل أو دور مؤثر في صياغة القرارات المصيرية . . هذه هي مشكلات الأقليات المسلمة الرئيسية ، ولعل أهمها ، مشكلة الذوبان الثقافي وفقدان الهوية الإسلامية ، والتي تتجلى بوضوح في حالة الأقليات المسلمة العائشة في بلدان أوروبية وإلى حدٍ ما في بلدان أفريقيا .

١ ـ الأقليات المسلمة في أوروبا :

يتعرض المسلمون في أوروبا إلى مؤثرات وضغوط نابعة من طبيعة المجتمع الأوروبي ، تهدد ذاتيتهم وهويتهم الإسلامية ، فمثلاً تتجلى فكرة الدولة القومية الحديثة ، وهي فكرة ـ مهما قيل عنها ـ تتعارض مع فكرة السماح للأقلية ـ مسلمة أم غير مسلمة ـ بالعيش في ظل تلك الدولة التي تخضع لحكم الأغلبية التي تحتل المكانة المميزة في الدولة ، وتحاول دائماً وعن طرق عدة تذويب الأقليات الموجودة في إطار دولتها تلك لتكون جزءاً من الشعب ، وفي مثل تلك الدولة القومية العلمانية ، وبسبب تدهور الدين كقوة مؤثرة في المجتمع ، فإن تذويب الأقليات الدينية لم يعد أمراً صعباً ،

ويتم ذلك غالباً عن طريق التعليم ، وعن طريق «غسيل المخ» ، وعن طريق فرض وتعميم مبادئ الدولة العلمانية ، وقد ذوبت أقليات دينية كثيرة في الغرب الأوروبي على مر الزمن .

ولكن تبدأ المشاكل عندما توجد أقلية دينية لا يمكن تذويبها ، أو يصعب تذويبها ، فتصبح علاقة هذه الأقلية بالأغلبية المتحكمة مثل مسألة ذوبان الرمل في الماء ـ كما يقولون ـ وفي مثل هذه الحالة قد تلجأ الأغلبية إلى استعمال كل أساليب القهر للضغط على تلك الأقلية ، في محاولة لتذويبها ، وإذا ما فشلت في ذلك فربما تحاول طردها من بلدها ـ بلد الأغلبية ـ والأقلية المسلمة هي من تلك الأقليات التي يصعب تذويبها في المجتمع الذي نعيش فيه ، فالإسلام دين يسيطر على كل مناحي حياة المسلم ، ومن ثم فهو يعطيه ذاتيته الخاصة ، وهويته الإسلامية التي لا يستطيع الانفكاك عنها ، ومن ثم أصبح تذويب مثل هذه الأقلية المسلمة أمراً عسيراً ، الأمر الذي أدى إلى ظهور مشكلة الأقليات المسلمة في تلك المجتمعات الأوروبية .

ولابد من دراسة الأقليات المسلمة في أوروبا في إطار العلاقات التاريخية بين الإسلام والمسيحية عبر العصور ، منذ الوجود الإسلامي في إسبانيا ، ثم العلاقات العثمانية الأوروبية ، ثم مرحلة الوجود الاستعماري الأوروبي في البلدان الإسلامية ، ونتج عن كل ذلك ظاهرة «المواجهة» بين الإسلام وأوروبا ، والتي بلغت ذروتها أيام الحروب الصليبية والمرحلة الاستعمارية ، وتتجلى الآن في الدعوات الأصولية الحالية في عالم الإسلام ، والتي تخشاها أوروبا وتظنها دعوات موجهة ضدها ، وتولد عن هذه «المواجهة» سوء فهم لازال يحكم العلاقة بين الأكثرية الأوروبية والأقلية المسلمة التي تعيش في وسطها ، ودراسة الوضع الأوروبي أو البيئة

التي تعيش فيها تلك الأقليات المسلمة سيمكننا من فهم أعمق للظروف الحياتية والمعيشية ، لتلك الأقليات ، وللمشاكل التي تواجههم ، وربما إيجاد السبل الصحيحة لحلها . . إذ إن مثل تلك الدراسة ستضع قضية الأقليات تلك في محتواها الصحيح ، فمحاولة فهمنا مثلاً للعلمانية السائدة في أوروبا ، ونظرتها للدين ، وكذلك فهمنا لطبيعة الديمقراطية الأوروبية ، والحديث عن حقوق الإنسان ، إضافة إلى محاولة فهمنا لسلوك المسلمين في تلك المجتمعات الأوروبية ، الذين يحاولون العيش حسب مقتضيات دينهم ، في المأكل ، والمشرب ، والملبس (حجاب النساء مثلاً) ، وممارسة عباداتهم مثل الصلاة في أوقات العمل والدراسة ، وهي كلها ممارسات جعلت الأوروبيين ينظرون إليها بشيء من الاستغراب ، بل واعتبار المسلمين «أجانب» غرباء عن الحضارة والمفاهيم الغربية ، وغير متحضرين(٧) .

وواضح أن اختلاف نظرة المسلمين ، وتمسكهم بالدين ، وبتراثهم الإسلامي ، ورفضهم لكل ما هو أجنبي عن قيمهم وتقاليدهم وطباعهم ، كل ذلك قوى من الحساسية المفرطة ضد المسلمين ، والنظرة لهم كأناس غرباء عن المجتمع الأوروبي ، وغير متسقين ومنسجمين مع نظم وتقاليد ذلك المجتمع ، الذي ظل وسيظل ينظر للإسلام بكثير من العداء والخوف الموروث من علاقات أوروبا العدائية بالإسلام وأهله عبر القرون ، كما أن تمسك المسلمين الشديد بدينهم يكون تحدياً لأوروبا التي انهار فيها الدين وأصبح أمراً شخصياً .

والمسلمون في أوروبا يعانون من مشاكل عديدة : أهمها خطر فقدان هويتهم الإسلامية ، ثم شعورهم بأنهم غرباء عن المجتمع الأوروبي ، غرباء في العقيدة ، وفي التقاليد ، واللغة ، وحتى في الشكل والعرق ، وشعورهم بأن المجتمع الأوروبي يعاملهم وينظر إليهم كغرباء أيضاً ،

ويمارس ضدهم بعض التحزبات ، في العمل ، وفي السكن ، وفي الخدمات الاجتماعية ، وفي التعليم ، واللغة والمواطنة ، وهم يرون في تلك التحزبات والحواجز عقبات رئيسية تقف في طريق ممارستهم لحياة طبيعية في المجتمعات الأوروبية والتي تدعي حماية الحقوق الإنسانية ، ومن ثم فالمسلمون يشعرون بأنهم يعيشون على أطراف ذلك المجتمع ، وفي عزلة دينية وفكرية عنه ، وأن المجتمع يستغلهم في أحيان اقتصادياً، وأنهم يتعرضون لمعاملة عنصرية من بعض أفراده ، وأنه لا مشاركة لهم في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، والاقتصادية .

أما داخلياً فالمسلمون في أوروبا يعانون من عدم الوحدة ، فهم مجموعات عرقية مختلفة ، وقياداتهم ليست على رأي واحد ، فكل إمام مهتم بجماعته فقط ، ولا شأن له يذكر بأمر الجماعات الأخرى . . وهم إلى جانب شتاتهم العرقي ، يعانون من الانقسامات المذهبية والحزبية الضيقة ، فلكل فئة مسجدها وإمامها ، فهم شتات فكري وشتات عرقي في حاجة ماسة إلى قيادات واعية موحدة ، تعالج أمورهم كجاليات وأقليات ، وليس كجماعات عرقية ودينية مختلفة .

وكنتيجة للمعاملة التي تلقاها تلك الأقليات المسلمة في أوروبا على يد الأغلبية ، فإن شعورها بأنها «أقلية» مغلوبة على أمرها يتزايد باستمرار ، وهو ما يطلق عليه البعض «عقدة الأقلية» ، ولعل هناك أسباباً أخرى لهذا الشعور ، مثل : البحث عن الجذور ، والحنين للأوطان ، وعدم تقبل النساء للعادات والمثل السائدة في المجتمع الأوروبي ، وحواجز اللغة ، والفكر والثقافة ، وصعوبة الاتساق مع مطالب الحياة الأوروبية .

إضافة إلى كل هذا ، فإن الأقليات المسلمة في أوروبا تشكل معضلاً اجتماعياً كبيراً ، وبخاصة للجيل الجديد من أبناء المسلمين الذين يتربون

هناك في وسط مجتمع غريب عليهم ، فهم يعانون من شعورهم بأنهم لا جذور لهم ، وأنهم يعيشون بين عالمين . . واحد إسلامي والآخر أوروبي ، وفي أرض لا مالك لها ، فبعض أولئك الشباب المسلمين يجهل لغة أبائه و يحاول جاهداً تعلم اللغة الجديدة ، فينشأ جاهلاً باللغتين ، كما أن تجاهل النظم التعلمية لأبناء المهاجرين المسلمين تجعلهم يعيشون وهم يحسون من المرارة الشديدة ، والشعور بعدم الإنتماء ـ أما جهلهم بالإسلام يجعلهم ـ كما وصفهم أحد الكتاب بأنهم جرء من الأمة الإسلامية الضائع .

ولمواجهة كل هذه المصاعب والتحديات ، فهناك العديد من الحلول التي يقترحها المهتمون بأمر تلك الأقليات المسلمة ، ومجملها هو ضرورة عيش هذه الأقليات في إنسجام وسلام مع الأخرين ، فلابد لقادة وأفراد تلك الأقليات من هذا الإدراك ، ولابد أيضاً من تفاعل تلك الأقليات مع المجتمعات ، والبيئات التي تعيش فيها ، بدلاً من العيش في تقوقع وانفصال عنها ، حتى لا يكونون أجانب في تلك المجتمعات ، وحتى لا يشكلون كيانات منفصلة وقائمة بذاتها ، يكون همها دائماً المطالبة بمعاملة خاصة لها . فهم جزء من ذلك المجتمع ـ رضوا أم أبوا ـ ولابد لهم من المشاركة في أوجه الحياة السياسية والأكاديمية حتى يسهموا في التطورات المستقبلية لتلك المجتمعات ، بدلاً من العيش على أطرافها ، فقد لعب اليهود ـ كأقليات دينية ـ دوراً رئيسياً في البلدان التي عاشوا فيها ، والمسلمون العائشون في أوروبا ليسوا أقل مقدرة وكفاءة من أولئك اليهود (٨) .

ولتحقيق هذه الأمال ينبغي على المسلمين إدراك الحاجة إلى قيادة موحدة، ومدربة تدريباً جيداً ، وعليهم أن يتحدوا ويتعاونوا بدلاً من حالة التفرقة والتشتت التي يعيشونها الآن ، وعليهم الاعتماد على أنفسهم ، وهم قادرون ـ دون مساعدة الحكومات الإسلامية ـ على خلق جبهة متحدة ،

تمكنهم من العيش بفاعلية داخل مجتمعاتهم التي يعيشون فيها ، وعليهم خلق صلات فكرية حوارية مع جيرانهم المسيحيين ، وقد يؤدي ذلك إلى حوار إسلامي مسيحي لتحسين كل جانب للآخر ، ورغم سلبيات مثل هذا الحوار ، إلا أنه في النهاية وسيلة من وسائل زيادة وتحسين معرفة كل جانب بالآخر .

وأهم من كل ذلك محاولة مساعدة تلك الأقليات بالحفاظ على هويتها الإسلامية ، وعلى العيش على أسس إسلامية ، وذلك عن طريق : إيجاد التعليم الديني لأطفالها ، بإنشاء المدارس الإسلامية وإمدادها بالمعلمين الأكفاء ، وبالكتب الإسلامية ، وبإرسال الطلاب لتلقي تعليمهم العالي في البلاد الإسلامية ، وباستحداث برامج تبادل للطلاب والعلماء ، ومساعدتهم للمشاركة في التجمعات الإسلامية الثقافية ، والأكاديمية والدينية ، ثم محاولة الحفاظ على صلات تلك الأقليات بالعالم الإسلامي ، بالزيارات المتبادلة ، بمساعدتهم وتشجيعهم مثلاً على أداء فريضة الحج ، وكذلك تعضيدهم ومساندتهم من أجل الحفاظ على ذاتيتهم ، مثلاً ببذل المساعدة لهم من أجل محاربة محاولات امتصاصهم اجتماعياً ، بعدم تشجيع الزيجات المختلطة ، والتخلي عن الأسماء الإسلامية ، وعدم القبول فلسفياً لقوانين وفلسفات الدول غير المسلمة . . وأخيراً إذا أريد لهذه الجهود من إتيان ثمارها ، فلابد من مواصلة العمل ، والإصرار عليه ، والتخطيط المنظم ، وتوحيد الجهود والقيادات ، والاعتماد أولاً وأخيراً على الذات ، والإدراك الواعي لضرورة العيش في انسجام وسلام مع الآخرين ، والمشاركة في مجالات الحياة السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، حتى لا يتقوقع المسلمون ، وينفصلون عن المجتمعات التي يعيشون فيها ، فهم جزء مهم من ذلك المجتمع ، ولابد لهم من العيش فيه بفاعلية ، والمساهمة في جميع أنشطته .

ومشاكل الأقليات المسلمة سواء في أوروبا ، أو آسيا ، أو أفريقيا أو غيرها مشاكل متشابهة في جوهرها ، لا خلاف بينها إلا في بعض الجزئيات والتفاصيل ، والحلول التي تقدم لها حلول متشابهة أيضاً ، ولا تختلف إلا في بعض الأمور التي قد تكون من نتاج البيئة أو عوامل محلية ، ولننظر نظرة موجزة إلى الأقليات المسلمة في أفريقيا .

٢ ـ الأقليات المسلمة في أفريقيا :

يشكل المسلمون في أفريقيا ثقلاً ضخماً لا يمكن تجاهله رغم ما به من ضعف ، فهناك خمس عشرة دولة إفريقية جنوب الصحراء تفوق نسبة المسلمين فيها الـ ٧٠٪ ، وتليها عشر دول تزيد نسبة المسلمين فيها على الـ٥٠٪ ، والإسلام جبهة زاحفة بقوة في القارة الأفريقية ، ولذلك لا غرو إذا احتدم الصراع بين النصرانية والإسلام لتحويل قبلة القارة ودينها وحضارتها ، وقد عمل النصارى وفقاً لمخطط تصبح بموجبه أفريقيا قارة نصرانية في عام ٢٠٠٠م ، وها قد جاء هذا العام ولم يحدث ما خطط له النصارى ، بل حدث عكس ما أرادوا ، إذ إن الإسلام يزداد انتشاراً في القارة السمراء ، ورغماً عن ذلك فهناك أقليات مسلمة في أفريقيا تعاني من مشاكل ومصاعب معينة ، ونحن إذ نعرف الأقلية المسلمة لا نعرفها من حيث المعيار العددي ، وإنما من حيث إنها جماعات مستضعفة ـ رغم ثقلها العددي في بعض البلدان ـ لا تتمتع بوجود في السلطة السياسية ، والخدمة المدنية ، وليس لها نفوذ اقتصادي فاعل ، أو دور مؤثر في صياغة القرارات المصيرية ، فهم قابعون تحت سيطرة حكومات أقلية نصرانية ، تتحكم في مصائرهم ، وتعمل في معظم الأحيان على إبقائهم في حالة من التخلف والانحطاط ، ومن ثم فإن تلك الأقليات المسلمة في أفريقيا تواجه العديد من المشاكل والتحديات .

يعاني المسلمون في بلدان الأقليات المسلمة في أفريقيا من الجهل والفقر الذي وقف عقبة في عدم مشاركتهم في الحياة العامة ، بل ربما كان سبباً فيها ، نتيجة لعزوفهم عن التعليم المدني الحديث والذي احتكرته المؤسسات التنصيرية ، الأمر الذي جعلهم ينأون بأبنائهم عن ذلك التعليم ، خوفاً على دينهم ، وهويتهم الثقافية ، فأورثهم ذلك جهلاً وبعداً عن دفة الحياة الحديثة ، وفي ذات الوقت أتاح لغيرهم التحكم في مصائرهم ، ففي بلدٍ مثل تنزانيا غالبيته من المسلمين نجد أن عدد الطلاب المسلمين لا يتجاوز الـ ١٠٪ حتى الآن[٩] ، ولن يتمكن المسلمون الأفريقيون من مواجهة التحديات التي تواجههم إلا باللجوء إلى الإقبال على التعليم في مؤسساته الحديثة ، وذلك بإنشاء المدارس الحديثة التي تجمع في مناهجها بين العلوم الدينية والعصرية ، حتى لا ينغلق المسلمون في مدارسهم الدينية ، ويتخلفون عن ركب العلم والتقدم .

ولقد تضافرت عوامل أخرى إلى جانب التخلف التعليمي ، على إبعاد المسلمين في بلدان الأقليات المسلمة عن المشاركة السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية في أمور بلادهم ، ومن تلك العوامل كثافة حركة التنصير واستمراريتها ، وسيطرة الاستعمار الفكري والاقتصادي ، والعمل المستمر لوقف انتشار الإسلام ، وإبعاد أهله عن مراكز النفوذ ، ونشر الفكر المناقض للمثل والقيم الإسلامية ، وتشجيع الأفكار الهدامة كالماسونية ، والقاديانية والبهائية ، والأفكار الإلحادية ، كل ذلك بغرض حرب الإسلام ، وبث الفرقة والشتات بين أهله ، وكانت نتيجة كل ذلك أن أصبح المسلمون ـ رغم كثرتهم في بعض البلدان كأثيوبيا وتنزانيا . . إلخ ـ تحت هيمنة وحكم الأقليات النصرانية .

إضافةً إلى ذلك ، فإن الأقليات المسلمة في أفريقيا تعاني من مشكلة الذوبان الثقافي في المجتمعات من حولهم ، وضياع هويتهم الإسلامية ،

ولقد عمل الاستعمار على ذلك واجتهد فيه ، فعمل على فصلهم عن إسلامهم ، وحصر التعليم الإسلامي في نطاق ضيق لا يتعدى الخلاوي والمساجد ، والمدارس القرآنية ، وأبعد المواد الإسلامية ما أمكن عن مناهج التعليم النظامي الحديث ، وكذلك بإبعاد المسلمين عن اللغة العربية ـ لغة القرآن الكريم ، وذلك بتشجيعه للغته الأجنبية ، وتحويل معظم اللغات الأفريقية التي كانت تكتب بالأحرف العربية إلى الأحرف اللاتينية ، كاللغة السواحيلية ، ولغة الهوسا ، واللغة الصومالية ، وباختصار عمل الاستعمار على إبعاد الشباب المسلم عن تراثه الإسلامي العربي[١٠] .

كما عمل الاستعمار أيضاً ـ تساعده المؤسسات التنصيرية ـ على تشجيع التفسخ الاجتماعي في مناطق المسلمين عن عمد ، وذلك بإضعاف قيم الدين في نفوس الشباب ، وتصويرها على أنها قيم متخلفة لا تناسب متطلبات المجتمعات الحديثة المتطورة ، والعمل بشتى السبل على إضعاف ثقة المسلمين بأنفسهم ـ خاصة الشباب منهم ـ وثقتهم بهويتهم الإسلامية ، وقد نجحت تلك الجهود في بعض المناطق حيث بدأ بعض شباب المسلمين في أوغندا مثلاً يغيرون أسماءهم الإسلامية إلى أسماء أفرنجية ، إخفاءً ـ وربما خجلاً ـ من انتمائهم الإسلامي ، ـ بل إن الأمر تعدى ذلك إلى إقامة بعض الشركات الأوروبية للملاهي والمصايف السياحية التي تشجع الموبقات وتسعى لإفساد الشباب في بعض مناطق المسلمين ـ مثل ساحل كينيا الشرقي ـ كل ذلك بدعوى تشجيع السياحة وإنعاشها كمصدر من مصادر الدخل القومي .

ويعاني المسلمون في بلدان الأقليات المسلمة في أفريقيا من الفرقة والشتات ومن انقسامهم إلى طوائف وشيع متناحرة ، تختلف على قضايا هامشية لا قيمة لها ، مثل صحة صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة ، وجواز

قراءة خطبة الجمعة باللغة العربية أم باللغة المحلية ـ وغيرها من الأمور التي تنم عن جهل بالدين ، وغالباً ما تذكي نار الخلافات جهات خارجية ، همها نشر مذهبها الفقهي السياسي بغض النظر عن أثر ذلك على مجتمعات المسلمين ، الأمر الذي يؤدي إلى إضعاف المسلمين ، وتدخل الدولة في شئونهم كما هو الحال في أوغندا ، وتنزانيا وزنجبار وجيبوتي وغيرها ، ولقد نشأ عن تلك الخلافات أزمة قيادة واحدة تجمع شمل المسلمين ، وهذه الأزمة سمة من سمات حياة المسلمين في أفريقيا ، شرقها ، وغربها ، ووسطها وجنوبها ، وهي في نفس الوقت سبب أساس في تخلف المسلمين ، وعدم مقدرتهم على النهوض والأخذ بأسباب التطور حتى يتبوأوا المكانة التي تؤهلهم لها أعداؤهم في المجتمعات التي يعيشون فيها(١١) .

كما أن المجتمعات الإسلامية في أفريقيا تعاني من ضعف اتصالها ببقية أجزاء العالم الإسلامي ، نتيجة للعزلة التي ضربها الاستعمار عليها ، وأخذت بها الحكومات الوطنية اللاحقة بالحد من حرية الحج الذي يهيئ أسباب الاتصال بالعالم الخارجي ، والالتقاء ببقية المسلمين ، أضف إلى ذلك أن حكومات العالم الإسلامي مقصرة في إقامة المراكز الثقافية على غرار المراكز الأوروبية ، والأمريكية والبريطانية ، وكذلك عن تقديم المنح الدراسية للطلاب المسلمين الأفارقة ، حتى تتهيأ لهم فرص التعليم ، ومعرفة مبادئ الإسلام الحقة ، ثم يعودوا ليكونوا دعاة لهذا الدين في أوطانهم ومبصرين بمبادئه الصحيحة ، ولسنا بمبالغين إذا قلنا إن الاستعمار ، ومؤسسات التنصير هي من العوامل الأساسية ـ إن لم تكن هي العامل الأساسي كله ـ التي أدت لمشاكل الأقليات المسلمة في أفريقيا ، والتي تتلخص في تخلفهم التعليمي ، والاقتصادي ، وإقصائهم عن مواقع التأثير في الحياة العامة وتهميش دورهم(١٢) ، ثم العمل على تنصيرهم مستغلين فقرهم وأحوالهم الاجتماعية المتردية .

وتتشابه مشاكل الأقليات المسلمة في أفريقيا بحكم الظروف المتشابهة التي عاشت تحتها تلك الأقليات ، ظروف الاستعمار ثم الحكومات الوطنية النصرانية والعلمانية التي أعقبته ، وقد بدأ بعض قادة تلك الأقليات ، وبعض مؤسساتهم وجمعياتهم تحس بتلك المشاكل ، وتسعى من أجل العمل على حلها ، فهناك الآن إحساس بضرورة التعليم وسد الفجوة التعليمية التي تفصل المسلمين عن غيرهم من النصارى والوثنيين ، وهناك شعور قوي من أجل العمل على إيجاد قيادات توحد صفوف تلك الأقليات ، وتقوي من روابطها بإخوانهم في دول العالم الإسلامي ، إذ إن هناك رغبة أكيدة في تلك الدول لمساعدة الأقليات .

ولابد من فهم صحيح للواقع الذي تعيشه تلك الأقليات إن نحن أردنا مساعدتها المساعدة الصحيحة ، ولابد إذاً للمنظمات الإسلامية الخارجية التي تعمل في دول الأقليات المسلمة في أفريقيا من وضع خطط علمية مدروسة من أجل النهوض بالعمل الإسلامي في تلك البلدان ، ولابد مثلاً من الاعتناء بأمر الدعاة ، وبأمر تدريبهم التدريب العلمي المطلوب ، ووضع الدعوة على مسارها الصحيح حتى تكون نداً للمؤسسات التنصيرية ، وتتمكن من الوقوف أمام نشاطاتها التنصيرية ، ولابد من تحديث أساليب الدعوة التي توقفت زمناً طويلاً على ذات الأساليب الضيقة الموروثة من عهود موغلة في القدم ، حتى تتماشى وحاجات العصر ومقتضياته ، والحاجة للتخطيط ماسة من أجل تجاوز مرحلة العشوائية التي اتسم بها العمل في أوساط الأقليات ، فلابد من تنسيق العمل الإسلامي لتتكامل جوانبه ، وليتفادى التضارب في الوظائف والاختصاصات .

والاهتمام بالتعليم أمر أساسي في مساعدة تلك الأقليات ، فالتعليم أداة رئيسية من أدوات التحول الاجتماعي والحضاري التي حرم منها المسلمون

الأفارقة طيلة العهد الاستعماري ، والاهتمام به مفتاح لنهضتهم ، وسبيل لتنمية الوعي وتقوية الشعور بالهوية خاصة وأن معظم الحكومات الأفريقية ترحب بالمساهمة في هذا المجال ، وتسمح بقيام المؤسسات التعليمية الخاصة ولابد من التركيز على تعمير المدارس وتزويدها بالمعلمين المؤهلين ، والاهتمام بكليات تدريب المعلمين ، وبالتعليم الحديث عامة ـ الذي يسمح بالصعود للجامعات والمعاهد العليا بتخصصاتها المختلفة ـ وعدم حصر التعليم في التخصصات الدينية ، وكذلك لابد من الاهتمام بالقطاعات الاجتماعية كالشباب ، والأطفال والمرأة ، وأخيراً لابد من فتح الأبواب والنوافذ على المسلمين الأفارقة ، والانفتاح عليهم ، وتوطيد العلاقات الدبلوماسية والثقافية بين الدول الإسلامية والدول الأفريقية حتى لا يعيش أولئك المسلمون في العزلة التي ضربها عليهم الاستعمار .

وأخيراً يبقى القول إن الأقليات المسلمة العائشة في دول غير إسلامية ـ سواء كان ذلك في أوروبا ، أو أمريكا ، أو أفريقيا أو آسيا ـ وغيرها ، هي أهم عناصر تغيير واقعها ، وأكثرها جدوى في حل مشكلاتها والنهوض بمستواها في مواجهة التحديات التي تحاصرها .

ويخطئ من يظن أن إنقاذ الأقليات المسلمة ، وحمايتها يكون بانعزالها عن المجتمعات الذي تعيش فيها ، والتقوقع بحجة عدم التعامل مع المجتمع الكافر ، فذلك أمر مرفوض ، ويتنافى مع أبسط قواعد الدعوة الإسلامية ، ومن هنا فإن المسلمين العائشين في دول غير إسلامية مطالبون بإيجاد الصيغة المناسبة للحفاظ على هويتهم الإسلامية في إطار من المشاركة الفاعلة في أنشطة المجتمعات ، التي يعيشون في وسطها ، دون أن يذوبوا في تلك المجتمعات بمعنى أن يفقدوا هويتهم الدينية والثقافية ، ولاشك أن مشاركة تلك الأقليات مع التزامها بالسلوك الإسلامي القويم سيقدم أفضل خدمة

للدعوة الإسلامية ، وعليهم أيضاً العمل ـ وربما بمساعدة الدول الإسلامية ـ محاولة القضاء على مشكلة التخلف ، وكذلك العمل على درء الاختلافات ، فالخلاف يهدد وجود تلك الأقليات بالتفكك والتلاشي ، وذلك أحد التحديات الأساسية التي تواجه الأقليات ـ والتي وإن نظمت فإنها ستكون إحدى وسائل الدعوة الإسلامية الفاعلة . . وأخيراً لابد من العمل المدروس ، والقائم على أسس علمية صحيحة .

قضية فلسطين :

قيام دولة الصهاينة في فلسطين المسلمة في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨م كان نتيجة جهود كبيرة قامت بها الحركة الصهيونية السياسية ، بمؤازرة ودعم الاستعمار البريطاني الذي جثم على أرض فلسطين قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى عام ١٩٤٨م .

١ ـ الصهيونية وفلسطين :

بدأ التحضير لاغتصاب فلسطين على أيدي الصهيونين خمسين عاماً قبل إعلان دولة الكيان الصهيوني في فلسطين في مايو عام ١٩٤٨م ، وذلك عندما أقر المؤتمر الصهيوني الأول الذي انعقد في مدينة «بال» بسويسرا في مايو عام ١٨٩٧م ، وحضره أكثر من مائتي يهودي يمثلون الجاليات اليهودية في سبعة عشر دولة ، مبدأ إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي يحميه القانون العام .

ويعتبر ثيودور هرتزل ، وهو يهودي مجري ، ومؤلف كتاب «الدولة اليهودية» (باللغة الألمانية) أول من حول آمال العودة لدى اليهود إلى أرض الميعاد ـ فلسطين ـ من مجرد أمل وحلم ديني ، إلى هدف سياسي ينبغي الوصول إليه بشتى الوسائل والسبل ، وقد أيد هذه الفكرة يهود قوميون آخرون .

وقد قال هرتزل في كتابه المذكور بضرورة إنشاء وطن قومي لليهود في الأرجنتين أو في فلسطين تدعمه وتسنده بريطانيا ، إدراكاً منه أن الحركة الصهيونية لن تبلغ أهدافها إلا بدعم من أحدىٰ القوىٰ الأوروبية الفاعلة ، وذلك واضح في البرنامج الصهيوني الذي وصفه مؤتمر «بال» والذي يتلخص في النقاط الآتية :

١ ـ استيطان يهودي لفلسطين منظم ، وعلىٰ نطاق واسع ، وذلك عن طريق استعمارها بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود وفق أسس مناسبة .

٢ ـ تأمين حق شرعي للاستيطان معترف به دولياً .

٣ ـ إنشاء منظمة دائمة لتوحيد جهود اليهود من أجل خدمة القضية الصهيونية .

٤ ـ اتخاذ الخطوات التحضيرية للحصول علىٰ الضمانات الحكومية اللازمة لتحقيق أهداف الصهيونية .

٥ ـ تغذية الشعور والوعي القومي اليهودي .

ويتضح من برنامج مؤتمر «بال» أن الصهيونية حركة عنصرية ذات طبيعة استعمارية تهدف إلىٰ اقتلاع يهود العالم من مجتمعاتهم التي يعيشون فيها عبر هجرات متصلة لخلق دولة قومية يهودية في فلسطين ، ومعنىٰ ذلك أن الصهيونية قررت عامدة تحويل اليهود المضطهدين في المجتمعات الغربية إلىٰ مهاجرين إلىٰ فلسطين ، ثم مستوطنين فمحتلين لأراضي السكان المحليين بعد طردهم منها ، أما استراتيجية العمل الصهيوني فكانت الاعتماد علىٰ رعاية ومساندة الدول الاستعمارية التي كانت حينذاك تفرض «القانون الدولي العام» ، ومن ثم تستطيع أن تنزع من الحكومة العثمانية «الموافقة

الحكومية الضرورية لتحقيق غايات الصهيونية» . . وتدلنا جميع جهود هرتزل قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول وبعده على أن الصهيونية كانت تعتبر نفسها حركة قومية استعمارية حليفة للدول الإمبريالية ، وأنها بدون ذلك الحلف لا تستطيع تحقيق غاياتها(١٣) .

والواقع أن «هرتزل» قرر أن المسألة اليهودية ليست مسألة اجتماعية ، أو دينية ، بل هي مسألة «قومية» لا يمكن حلها إلا عن طريق تحويلها إلى قضية سياسية عالمية ، ثم تسويتها على يد الدول الكبرى مجتمعة ، ومن ثم كان لابد من أن يمنح اليهود السيادة فوق رقعة من الأرض «لم يكن هناك إصرار على فلسطين كاحتمال وحيد» ، كافية لتلبية متطلبات إقامة دولة قومية ، على أن يترك الباقي لليهود أنفسهم ، ولكي يحقق اليهود الصهيونية هدفهم اقترح «هرتزل» إنشاء «جمعية يهودية» تقوم بتنظيم اليهود ، وتعبئتهم ، وإنشاء شركة يهودية على غرار الشركات الاستعمارية الكبرى في المستعمرات الأوروبية في آسيا وأفريقيا تقوم بتوطين المستعمرين اليهود ، واستغلال موارد البلاد والسيطرة عليها . . وضرورة ربط كل هذه الجهود ، بل وربط كل الحركة الصهيونية بسند الدول الاستعمارية ، والعمل بشتى الوسائل على نيل ذلك السند .

ولم يكن غريباً أن يتجه «هرتزل» إلى القيصر الألماني ثم إلى السلطان العثماني «عبد الحميد الثاني» لنيل سندهما ، وعندما فشل في ذلك وجه جهوده الدبلوماسية نحو إنجلترا حيث كانت الحركة الصهيونية تلقي التشجيع والمؤازرة من بعض كبار الساسة البريطانيين ، وقد توجت جهود «هرتزل» تلك في ٢نوفمبر ١٩١٧م ، حينما أصدر وزير خارجية بريطانيا «بالفور» الوعد الشهير القاضي بمساندة بريطانيا لإقامة وطن يهودي قومي في فلسطين ، والوعد عبارة عن رسالة بعث فيها آرثر بالفور ـ وزير الخارجية

الذي عمل بحماس لصالح الصهيونية ـ إلى اللورد روتشيلد الثري الصهيوني المعروف ، فيما يلي نصها :

«عزيزي اللورد روتشيلد : يسرني جداً أن أنقل إليكم باسم حكومة جلالة الملك هذا التصريح المشوب بالعطف على الأماني اليهودية الصهيونية الذي رفع إلى الحكومة ووافقت عليه . .

«إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن للشعب اليهودي في فلسطين ، وسوف تبذل أقصى جهدها لتحقيق هذه الغاية على أن يفهم جلياً أن حكومة جلالة الملك لن تسمح بأي إجراء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية في فلسطين ، ولا بحقوق اليهود ، أو بمركزهم السياسي الذي يتمتعون به في البلدان الأخرى»(١٤) .

والوعد الذي تضمن مغالطات تاريخية ، وأفكار استعمارية ماكرة قصد بها الغموض والتضليل ، يعتبر من أغرب الوثائق الدولية في التاريخ ، إذ منحت بموجبه دولة استعمارية أرضاً لا تملكها (هي فلسطين) إلى جماعة لا تستحقها (هم الصهاينة) ، على حساب من يملكها ويستحقها وهم أهل فلسطين ، مما أدى إلى اغتصاب وطن وتشريد شعب بكامله على نحو لاسابقة له في التاريخ .

وقد كان لبريطانيا دوافعها الاستعمارية في إصدارها لهذا الوعد ، لعل من أهمها محاولة كسب اليهود وغيرهم إلى جانبها بغرض كسب الحرب العالمية الأولى بكل الوسائل ، فأرادت بريطانيا إيجاد تجمع يهودي في فلسطين تحت السلطة البريطانية يؤمن الطريق المؤدي إلى الهند ـ أهم مستعمراتها في الشرق ـ ويحمي مداخل قناة السويس ، ويمنع قيام وحدة بين المسلمين في آسيا وأفريقيا ، ويشغل العالم العربي والعالم الإسلامي ، كما

أن كسب سند اليهود سيكسب بريطانيا سندهم في الولايات المتحدة ، وسيكسبها رؤوس أموالهم ، وربما أثر ذلك كله على الحكومة الأمريكية فدخلت الحرب إلى جانب الحلفاء .

لم تكن الحركة الصهيونية حركة سياسية فحسب ، وإنما كان هناك مجموعة أخرى من زعمائها عُرفوا بالصهيونيين العمليين ، هدفهم الأول ضرورة العمل والمضي قدماً في استقدام المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، والاستيلاء على الأراضي فيها بكل الوسائل ، بغرض إنشاء المستوطنات الزراعية . . على أن يتم ذلك بشكل تدريجي منظم ، فأنشئت المؤسسات المالية مثل البنك الوطني اليهودي ، ومثل الوكالة اليهودية لدفع عملية الهجرة والاستيطان للأمام شيئاً فشيئاً ، حتى تتم السيطرة في النهاية على كل أراضي فلسطين وبكل الوسائل ـ المشروعة وغير المشروعة ـ من منطلق أن الغاية الصهيونية تبرر الوسيلة ، دليل آخر على عدم أخلاقية الحركة الصهيونية ، وخلو ضمائر قادتها من كل وازع أخلاقي أو ديني .

ونتج عن هذا الجهد العملي تزايد الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وتزايد الاستيطان ، وبدايات ظهور المسألة الفلسطينية ، وذلك عندما بدأ انتزاع الأراضي من أهلها بالإغراء بالمال رغباً ، ثم بالتخويف والبطش بعد ذلك رهباً ، وما نشهده اليوم من استلاب للأراضي الفلسطينية ، وهدم للمنازل ، وتهجير للفلسطينيين ، أدلة حية على تلك الممارسات الصهيونية اللاإنسانية التي اُغتصبت بها فلسطين المسلمة .

وغني عن الذكر أنه لا حق لليهود ـ تاريخياً ـ في أرض فلسطين كما يدعي الصهيونيون ، ففلسطين منذ السنة الخامسة عشرة الهجرية أرض إسلامية ، وهي قبل ذلك التاريخ أرض عربية ، وظلت كذلك على مدى

خمسة آلاف عام ، والواقع أن الوجود اليهودي في فلسطين لم يتجاوز المائة والأربعين سنة ، وكان ذلك على فترتين :

الأولى : بين عام ١٠٠٠ قبل الميلاد وحتى عام ٩٢٧ قبل الميلاد ، والفترة الثانية بين سنتي ١٤٢ قبل الميلاد وحتى سنة ٧٥ قبل الميلاد ، وواضح أنهما فترتان قصيرتان ، وعلى مدى زمني متباعد .

أما الأسباب التي دعت إلى نجاح اليهود لاستلاب الوطن الإسلامي في فلسطين ، فهي عدة ، من أهمها :

أ ـ التخطيط الصهيوني والصبر على المخطط :

أشرنا إلى هدف الصهيونيين في فلسطين ، وهو استيطانها ، عن طريق تنمية الهجرة ، وعن طريق شراء الأرض ، والبحث عن الحماية الدولية ، واستغلالها لمصلحتهم ، فهذا هو هدفهم ومخططهم والذي صبروا في سبيل الوصول إليه ، رغم الأحداث الجسيمة التي تواجه اليهود في شتى بقاع العالم ، مثل الاضطهاد الذي لقوه من ألمانيا النازية وغيرها من دول أوروبا ، ومثل المقاومة العربية التي كان يلقاها مشروعهم ونشاطهم الاستيطاني ، والي لقيها مشروعهم الصهيوني من قبل الدولة العثمانية وسلطانها عبدالحميد ، والذي ظل ـ حتى ساعة خلعه من الحكم ـ رافضاً لهجرة اليهود إلى فلسطين . . وقد صبر الصهيونيون على كل هذه المصاعب ، وغيرها في سبيل تنفيذ مخططاتهم(١٥) .

ب ـ غياب التخطيط لدى الأمة الإسلامية :

وفي مقابل التخطيط المحكم من قبل الحركة الصهيونية ، كان قادة الأمة الإسلامية يفتقدون التخطيط في محاولاتهم الوقوف أمام المطامع الصهيونية في فلسطين ، وكانت مواقفهم لا تخرج عن كونها ردود أفعال لبعض ما كان

يقوم به الصهيونيون من عمل منظم بغرض الهيمنة على أراضي فلسطين ، وطرد أهلها منها ، ثم إقامة دولتهم فيها ، ورغم توافر الإخلاص لدى بعض قادة الأمة الإسلامية والكثير من أفرادها ، إلا أن أفعالهم لم تتعد الاستنكار ، والشجب ، والتظاهر ، وغير ذلك من مظاهر الرفض ، وحتى هذا بغير تخطيط منظم ، ولعلنا الآن نشهد نفس الشيء يتكرر حيال ما تقوم به دولة الكيان الصهيوني من بطش وتقتيل للفلسطينيين ، ومن هدم لمنازلهم ، واستلاب لأراضيهم ، بل ولاحتلال أراضي بعض الدول العربية المجاورة لها ، وإقامة المستوطنات عليها ، ورفض مبادلتها مقابل بالأرض وفق مبدأ الأرض مقابل السلام ، كل هذه العربدة الصهيونية ، ولا يوجد من يقف في وجهها ، أو حتى يحاول الحد من تلك الغطرسة ، وما ذلك إلا لغياب العمل المدروس المنظم .

جـ ـ إبعاد الإسلام عن المعركة :

كان واضحاً للصهيونيين وحلفائهم الاستعماريين أن الإسلام هو الخطر الأول لو أُدخل معترك القضية الفلسطينية ، وذلك بما ينطوي عليه من دعوة للجهاد ، واعتباره فرض عين إذا ما غزيت ديار الإسلام ، وبما يدعو إليه من تخطيط ، وإعداد معنوي ، وإعداد عسكري ، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ، وغير ذلك من الأوامر الربانية التي تدعو لمحاربة أعداء الله ، وبخاصة اليهود والذين كانوا ومازالوا أشد الناس عداوةً للإسلام والمسلمين .

أضف إلى كل ذلك أن دخول الإسلام ميدان المعركة الفلسطينية يعني إدخال ثقل بشري هائل لاقبل للصهيونيين به ، فالأمة الإسلامية اليوم تفوق ألف مليون من البشر ، عوضاً عن الثقل الإسلامي السياسي والاقتصادي والذي لا طاقة للصهيونيين بمواجهته ، فمصالح الدول الاستعمارية التي

تساند الصهيونية ، مثل أمريكا وبريطانيا مصالح في عالم الإسلام ، وتحت سيطرة قادة ذلك العالم .

د ـ إقصاء الشعب الفلسطيني عن المعركة :

عندما أدرك الاستعمار البريطاني ، وكذلك الصهيونيون بسالة الشعب الفلسطيني ، وتصميمه الذود عن أرضه ومقدساته الإسلامية ، قرروا إقصاءه عن المعركة ، وإدخال العرب والجيوش العربية إلى أطراف تلك المعركة مع علمهم وإدراكهم لمدى ضعف تلك الجيوش ، ومدى تخاذلها ، وكان ذلك عندما قامت سبعة جيوش عربية لتخوض المعركة ضد الصهيونيين، وبالنيابة عن الشعب الفلسطيني ، وكانت النتيجة التي خطط له الاستعمار الغربي سلفاً أن هزمت تلك الجيوش ، وسلمت أراضي فلسطين جزءاً جزءاً إلى دولة إسرائيل المزعومة ، وعندما انتهت حرب فلسطين عام ١٩٤٨م تلك ، كان الشعب الفلسطيني قد تم إقصاؤه حربياً عن المعركة ، وتم بعد ذلك إقصاؤه سياسياً عنها ، فتحولت قضية فلسطين أمام هيئة الأمم المتحدة إلى نزاع بين دول ذات سيادة : دول عربية مع دولة الكيان الصهيوني . . . أضف إلى ذلك عمليات التصفية والإبادة التي تعرضت وتتعرض لها القيادات الفلسطينية ، خاصة المقاتلة منها ، على أيدي العصابات الصهيونية ، وعلى أيدي حكام إسرائيل ، وكذلك على أيدي بعض الحكام العرب ، فهناك المذابح التي تعرضت لها تلك العناصر الفلسطينية الوطنية في أيلول الأسود في الأردن ، وفي تل الزعتر ، وفي أثناء الحرب الأهلية في لبنان وغيرها ، ولاتزال عمليات الإبادة للقيادات الفلسطينية المقاتلة تتم على مرأى ومسمع من كل دول العالم ، خاصة في أثناء الانتفاضات الفلسطينية ضد الوجود الصهيوني في أرض فلسطين المسلمة ، ويجب أن لاننسى هنا ما تفعله دولة الكيان الصهيوني من إبادة

مادية ومعنوية لتلك القيادات في سجونها ومعتقلاتها ، بما تمارسه ضدهم من أقسىٰ أنواع التعذيب وأبشعه ، الجسدي والنفسي . . وذلك أمر لايحتاج لبرهان .

وهكذا تتم عملية إقصاء الفلسطينيين عن معركتهم مع الدولة الصهيونية، وتحويلها إلىٰ معركة خاسرة بين تلك الدولة وجيرانها العرب ، وذلك لعلم المستعمرين وربيبتهم إسرائيل أنه لو اتحدت جهود الفلسطينيين في الداخل ، مع جهود المخلصين من أبناء الأمة العربية والإسلامية ، فسيجد زعماء دولة إسرائيل أنهم أمام قوىٰ فاعلة لاقبل لهم بها[١٦] .

٢ ـ مرحلة العمل الصهيوني ـ البريطاني لتهويد فلسطين ـ ١٣٣٧ـ١٣٥٨هـ/١٩١٨ ـ ١٩٣٩م :

تعتبر هذه المرحلة من أدق مراحل القضية الفلسطينية ، إذ تمكنت بريطانيا خلالها من فرض انتدابها علىٰ فلسطين ، وفيها وقعت البلاد العربية في الشام والعراق تحت قبضة الاستعمار البريطاني والفرنسي ، وتمكنت الصهيونية والعلمانيون من أبناء الأتراك من إسقاط الخلافة العثمانية وإلغائها، وتبنت دول الحلفاء في مؤتمر السلام وعد بلفور ، وضمنته صك الانتداب البريطاني علىٰ فلسطين ، فأصبحت السياسة البريطانية تقوم علىٰ تنفيذ وعد بلفور ، بعد أن ضربت بوعودها للعرب وللشريف حسين عرض الحائط ، وبرزت في هذه المرحلة الملامح الواضحة لطبيعة الصراع العربي ـ الصهيوني في ظل الحكم البريطاني المباشر الملتزم بدعم المطامع الصهيونية وإقامة وطن قومي لليهود فوق أرض فلسطين وعلىٰ حساب أصحابها الشرعيين ، وكانت الظروف السائدة في العالم العربي الإسلامي مواتية للصهيونيين ، فقد كان كل قطر مشغولاً بمشاكله ، الأمر الذي مكنهم ـ

ومكن الإنجليز معهم ـ من الانفراد بفلسطين يؤسسون لقيام دولة صهيونية فيها . . وكان ذلك عن عدة طرق :

أ ـ تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين :

تزايدت الهجرة اليهودية إلى فلسطين تحت الانتداب ، وشجعت السلطات البريطانية في فلسطين تلك الهجرة ، ففتحت لها الباب على مصراعيها ، فبعد أن كان عدد اليهود في فلسطين عام ١٣٣٩هـ/ ١٩١٩م خمساً وخمسين ألفاً ، تزايد حتى وصل في عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م حوالي ٦٥٠ ألفاً ، ورأى أهل فلسطين سيول المهاجرين اليهود الغرباء تغزو بلادهم دون أن يستطيعوا وقفها ، وكان اليهودي يمنح الجنسية الفلسطينية قبل أن يطأ أرض فلسطين .

ب ـ انتقال ملكية الأراضي إلى المهاجرين اليهود :

عملت الحكومة البريطانية على تشجيع انتقال ملكية الأراضي لليهود ، بحيث سنت القوانين والتشريعات التي تجعل الزراع الفلسطينيين في حالة من الفقر ، بحيث يتخلون عن أراضيهم للوكالة اليهودية ، والمنظمات الصهيونية الأخرى التي عمدت إلى شراء تلك الأراضي الزراعية ، مع العمل على طرد المزارعين الفلسطينيين منها ، وإحلال المستوطنات اليهودية مكانهم ، كما أن الحكومة منحت اليهود أراضي واسعة مما كان أيام العثمانيين أملاكاً للدولة ليقيموا عليها مستعمراتهم ، فرفعت بذلك نسبة الملكية اليهودية للأراضي في عام ١٩٤٨م إلى ١٤٪ ، بينما كانت النسبة في القدس لا تتعدى ٤٪ .

جـ ـ اعتراف بريطانيا بالوكالة اليهودية :

اعترفت بريطانيا بالوكالة اليهودية ورئيسها حاييم وايزمان تشرف على أمور اليهود السياسية ، والتعليمية ، والاقتصادية والعسكرية ، فكانت دولة

داخل دولة ، في الوقت الذي حرمت فيه العرب أي إشراف على أمورهم ، كما عملت بريطانيا على تهويد الإدارات الحكومية بجعلها في أيدي يهود صهيونيين ، أو إنجليز يهود ، أو إنجليز معروفين بتعاطفهم ومساندتهم للصهيونية ، من أمثال هربرت صموئيل ـ المندوب السامي البريطاني في فلسطين في عام ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م ليشرف بنفسه على تهويد فلسطين ، فازدادت الهجرة ، حيث دخل اليهود المهاجرون فلسطين عن عدة طرق مستفيدين من قانون الهجرة الأول الذي أصدرته الحكومة البريطانية لينظم عملية دخولهم رسمياً لفلسطين ، الأمر الذي أدى إلى زيادة أعدادهم بعد أن كانوا أقلية ، ففي القدس مثلاً كان عددهم عام ١٩١٨م عشرة آلاف ، أي ما يعادل ٢٥٪ من سكان القدس ـ وقدر عددهم ما بين أعوام ١٩٢٠ ـ ١٩٢٥م بـ ٣٠,٠٠٠ ، أي بنسبة ٣٣٪ من جملة سكان القدس[١٧] .

وقامت حكومة الانتداب بتوفير الحماية الاقتصادية لليهود ، وذلك بتقديم المساعدات المالية اللازمة للتنمية ، فخفضت رسوم المواد الخام التي تحتاجها الصناعة اليهودية من الخارج ، كما منحتهم امتيازات أخرى مثل السماح بتسليحهم ، وتجفيف بحيرة الحولة ، والحصول على امتياز من الحكومة البريطانية لمدة سبعين عاماً ، لاستغلال مياه نهر الأردن واليرموك عام ١٩٢٦م ، وعدلت الحدود الشمالية لفلسطين لتسهيل عملية تحويل مجرى نهر الأردن[١٨] ، إضافة إلى كل ذلك مكنتهم حكومة الانتداب من الإدارات الحكومية في فلسطين ، فمثلاً اعترفت باللغة العبرية لغة رسمية إلى جانب العربية والإنجليزية ، ومنحت اليهود حق الإشراف على شئونهم التعليمية ، بينما ظلت شئون الفلسطينيين في أيدي الموظفين الإنجليز واليهود .

٣ ـ موقف أهل فلسطين :

أدرك أهل فلسطين منذ الوهلة الأولى أبعاد خطر تصريح بلفور الرامي إلى إقامة دولة يهودية في بلادهم ، فعارضوه بشدة ، كما عارضوا انتداب بريطانيا على فلسطين ، وتضمين وعد بلفور صك ذلك الانتداب ، وكانت آراء عرب فلسطين ـ كما صورتها المنشورات التي كانت تصدرها جمعياتهم ـ مثل الجمعية الإسلامية المسيحية تتلخص في :

١ ـ وحدة سوريا وأن فلسطين ـ سوريا الجنوبية ـ جزء لا يتجزأ من سوريا .

٢ ـ الرفض بالسماح بأن تتحول فلسطين إلى وطن قوي لليهود ، ومن ثم معارضة الهجرة اليهودية ، والحركة الصهيونية بصفة عامة .

٣ ـ التفريق بين اليهود الفلسطينيين ، واليهود القادمين من الخارج ـ واعتبار اليهود الفلسطينيين مواطنين يتمتعون بالحقوق والواجبات التي يتمتع بها بقية سكان فلسطين .

وكان واضحاً للإدارة البريطانية العسكرية في فلسطين آنذاك أن عداء السكان الفلسطينيين للصهيونية عداء ذو جذور عميقة ، وأنه آخذ في التحول إلى عداء للبريطانيين ، وأن فرض البرنامج الصهيوني بالقوة عليهم سيؤدي إلى انفجار خطير ، وأن الفلاحين كانوا أكثر استعداداً من سائر فئات المجتمع للثورة والتضحية ، وذلك للأضرار التي لحقت بهم من برامج ومطامح الصهيونية ، فقد قاطع اليهود اليد العربية العاملة في المستعمرات اليهودية ، كما عارضوا برنامج القروض الزراعية للفلاحين ، وبدأت هجرتهم اليهودية وتملكهم للأراضي تعرض أولئك الفلاحين للتشرد ، والإفقار تمهيداً لإجلائهم عن وطنهم .

وبحلول عام ١٩٢٠م أصبح واضحاً لجميع الأطراف في فلسطين أن وقوع انفجار مناهض للصهيونية غدا أمراً وشيكاً ، وقد حدث الانفجار فعلاً في نيسان ١٩٢٠م/ ١٣٤٠هـ فيما عرف بانتفاضة ١٩٢٠م ، والتي كانت موجهة ضد اليهود بسبب السخط الشديد الذي يهيمن على أهل فلسطين جراء شعورهم بالغبن وخيبة الأمل ، والذعر بشأن مستقبلهم بسبب النشاط الصهيوني الرامي إلى تهويد بلادهم ، ومساندة الإدارة البريطانية لذلك النشاط .

وفشلت هذه المعارضة العنيفة في إحداث أي تغييرات جوهرية في السياسة البريطانية في فلسطين ، بل ظلت الإدارة البريطانية ملتزمة بتنفيذ وعد بلفور ، خاصة بعد تعيين صموئيل كأول مندوب بريطاني سامٍ لفلسطين ، وهو الرجل المعروف بميوله الصهيونية ، وقد زاد ذلك من تصميم أهل فلسطين على مقاومة الصهيونية وتصريح بلفور ، وهكذا دخل الكفاح ضد الصهيونية والاستعمار مرحلة جديدة ، فعقدت مؤتمرات فلسطينية ، كان أحدها المؤتمر الفلسطيني الثالث في حيفا في ديسمبر ١٩٢٠م والذي حضره ممثلون عن الجمعيات الإسلامية المسيحية والجمعيات الأخرى من مختلف أنحاء فلسطين ، وأشار البيان الصادر عن ذلك المؤتمر إلى عدم شرعية الإدارة البريطانية لأنها تمارس سلطاتها دون مجلس تمثيلي ، واعترض الأعضاء على اعتراف الحكومة بالمنظمة الصهيونية هيئة رسمية ، وباللغة العبرية لغة رسمية وكذلك استخدام العلم الصهيوني ، وقبول المهاجرين الصهيونيين ، وأعلنوا عن ميثاق وطني للحركة العربية في فلسطين يقوم على ثلاثة مبادئ :

١ ـ شجب السياسة الصهيونية التي تنطوي على إقامة وطن قومي لليهود، والمبنية على تصريح بلفور .

٢ ـ رفض مبدأ الهجرة اليهودية .

٣ ـ إقامة حكومة تمثيلية وطنية .

وانتخب المؤتمر لجنة تنفيذية من الوجهاء الفلسطينيين المعتدلين برئاسة موسى كاظم الحسيني ، عهد إليها بالإشراف على تنفيذ مقررات المؤتمر[١٩] . التي أصبحت الأسس الرئيسة للمقاومة الفلسطنيية للمشروع الصهيوني ـ البريطاني في فلسطين ، الذي كانت الحكومة البريطانية تسعى لتنفيذه مسترشدة بنظرية «الالتزام المزدوج» .

شهدت الفترة الواقعة بين سنة ١٩٢٤م ، سنة ١٩٢٨م فترة من الهدوء والشلل في الصراع الفلسطيني ضد الصهيونية والانتداب البريطاني ، لعل من أهم أسبابها التسوية النهائية لأمر الانتداب في عصبة الأمم ، ثم عدم أحراز الوطن القومي اليهودي في فلسطين قدراً كبيراً من النجاح العملي ، وبدأت الحركة الوطنية تركز أكثر وأكثر على المطالبة بحكومة وطنية ، وأعطيت لهذه الفكرة الأسبقية حتى بالنسبة لإلغاء تصريح بلفور .

وقبل نهاية عام ١٩٢٨م بدت هناك دلائل تشير إلى أن فترة الركود السياسي تشرف على نهايتها ، وذلك بسبب تجدد النشاط الصهيوني ، والذي أدى بدوره إلى تجدد التوتر بين الجانبين العربي واليهودي ، والذي أسفرت عنه حوادث سنة ١٩٢٩م ، على الرغم من أن مسببها المباشر كان هو إعتداء اليهود على حائط البراق ، بأن تظاهر اليهود قربه ورفعوا العلم الصهيوني ، وأنشدوا النشيد الصهيوني ، وشتموا المسلمين ، فهب المسلمون يدافعون عن مقدساتهم وقد بلغ مجموع القتلى من اليهود ١٣٣ قتيلاً ، وبلغ عدد الجرحى ٣٣٩ جريحاً ، أما العرب بلغ عدد قتلاهم ١١٦ قتيلاً بينما بلغ عدد الجرحى ٢٣٢ جريحاً ـ وقدم للمحاكمة ما يزيد عن ألف

شخص ، حوالي ٩٠٪ من العرب ، وصدر الحكم بإعدام ٢٦ شخصاً بينهم ٢٥ عربياً ويهودي واحد .

كانت أحداث عام ١٩٢٩م نقطة تحول في العلاقات العربية البريطانية في فلسطين ، فقد وضح للفلسطينيين أن الصهيونية والوطن القومي اليهودي كانا يعتمدان في النهاية على السند البريطاني ، ومن ثم فمن الضروري محاربة بريطانيا إذا أريد للصراع ضد الصهيونية أن يحقق أهدافه ، فازدادت المعارضة الفلسطينية ، وازدادت عنفاً للشراكة البريطانية الصهيونية ، وأصبحت أكثر شعبية ، ميالة إلى شن صراع مسلح كوسيلة لإحداث تغيير جذري في السياسات البريطانية الموالية للصهيونية في فلسطين ، وهكذا بدأ الصراع الفلسطيني ضد الصهيونية يتحول نحو المجابهة بين العرب وحكومة الانتداب والصهيونية في آن معاً . . إلى المطالبة بالاستقلال الوطني ، والتخلص من الحكم البريطاني المؤيد للهجرة اليهودية ، واستيطان اليهود في الأراضي الفلسطينية .

وفي ظل الهجرة الصهيونية المتزايدة إلى فلسطين بسبب الاضطهاد النازي لليهود في أوروبا ، وتجاهل الإدارة البريطانية للمطالب الفلسطينية وانحيازها التام للصهيونية ، ظهرت دعوات للجهاد ضد الحكومة الحامية الحقيقية للصهيونية في فلسطين ، كدعوة الشيخ عز الدين القسام ، التي تطورت في عام ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م إلى ثورة مسلحة ضد البريطانيين والصهيونيين كبديل وحيد للحيلولة دون إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، ولكن قبل أن يتمكن «القسام» من تدعيم حركته استشهد قرب حنين أثر صدام عرضي وقع بين جماعته وقوات من الجيش والبوليس ، واستشهد معه أثنان من أتباعه ، وأسر خمسة آخرون واختفي الباقون في الجبال وسرعان ما أصبحت ذكرى حركته رمزاً للتضحية والفداء ، وغدت

كل محاولة لأقامة تقارب بين الفلسطنيين والسلطات الحكومية مكتوباً عليها بالفشل ، وظهرت روح ثورية جديدة وبخاصة بين الشباب الفلسطيني ، وأصبحت المجابهة بين البريطانيين والعرب الفلسطينيين مسألة وقت فقط خاصة وأن الهجرة اليهودية كانت في تزايد ، وكذلك تحول الأراضي للمهاجرين اليهود(٢٠) .

أ ـ الثورة الفلسطينية الكبرى : ١٣٥٥هـ ـ ١٣٥٨هـ /١٩٣٦م ـ ١٩٣٩م:

كان التوتر بين العرب واليهود يزداد حدة طوال عام ١٩٣٥م وذلك نتيجة لاعتراض الصهيونية على إنشاء المجلس التشريعي الذي اقترحته الإدارة البريطانية ، وكذلك بسبب استمرار الهجرة اليهودية ، وبيع الأراضي على نطاق واسع ، ومن ثم فقد أدى حادث بسيط إلى إندلاع الثورة ، وهو إنه في الخامس عشر من أبريل عام ١٩٣٦م قُتل رجل يهودي ، وأصيب يهودياً بجروح خطيرة في الطريق بين نابلس وطولكرم ، وأتُهم العرب بأنهم وراء هذا الحادث ، ورد اليهود بقتل عربيين ، وبهجمات على العرب وتفاقم الموقف ، ووقعت صدام بين العرب واليهود عند حدود يافا ـ تل أبيب ، وأصيب عدد من كلا الجانبين بجروح ، وتطور الأمر أكثر عندما أعلنت بعض الجمعيات العربية في نابلس الإضراب العام في البلاد كلها ـ على أن يستمر الإضراب حتى تستجيب الحكومة للمطالب العربية ، وذلك هو الإضراب الذي استمر ستة شهور ، ثم تحول إلى حركة مسلحة شملت كل أنحاء فلسطين ، واشترك فيها مجاهدون من مختلف البلاد العربية والإسلامية .

وقد عجزت بريطانيا بقواتها العسكرية ، ووسائلها القمعية عن القضاء على هذه الثورة ، فلجأت إلى مناشدة الزعماء العرب بالتدخل ، وبالفعل

تدخل الملوك والحكام العرب ، وأوقف أهل فلسطين الثورة ، وأنهوا الإضراب ، بعد أن وعدهم أولئك الزعماء بأن بريطانيا ستحل قضيتهم حلاً عادلاً .

وأكد القادة الفلسطنيون أمام لجنة التحقيق الملكية البريطانية التي أُرسلت إلىٰ فلسطين لتحري أسباب الثورة عدم شرعية وعد بلفور ، وكذلك الانتداب البريطاني علىٰ فلسطين ، وطالبوا بإلغاء الانتداب وبإقامة حكم وطني مستقل ، وقالت اللجنة الملكية في تقريرها أن أسباب ثورة عام١٩٣٦ م تعود إلىٰ رغبة العرب في الظفر بالاستقلال الوطني من جهة وخوفهم من إقامة وطن قومي يهودي في بلادهم من جهة أخرىٰ . . وقالت أن الطابع المتطرف للقومية اليهودية زاد من مخاوف العرب من السيطرة اليهودية عليهم ، وانتهت اللجنة في تقريرها إلىٰ ضرورة التخلي عن الانتداب وتقسيم فلسطين إلىٰ ثلاثة أقسام : دولة عربية ، ودولة يهودية ، ومنطقة ثالثة تشمل القدس وبيت لحم إلخ تظل تحت الانتداب البريطاني .

رفض أهل فلسطين مشروع التقسيم ، وناشدت اللجنة العربية العليا الحكام العرب ، وكذلك العالمين العربي والإسلامي الذي تنتمي إليهما فلسطين بالتضامن مع الفلسطينيين ، وأبلغت رفضها إلىٰ عصبة الأمم ، وطلبت منها إلغاء الانتداب البريطاني ، وإقامة دولة فلسطينية مكانه ترتبط مع بريطانيا بمعاهدة تضمن لها مصالحها المعقولة كما تضمن مصالح الأقلية اليهودية .

وكانت الحرب العالمية الثانية علىٰ الأبواب ، وبدأت بريطانيا تحس بالخطر الصهيوني ، وأرادت التخلص من المشكلة ، فأصدرت كتابها الأبيض عام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م عدلت فيه عن مشروع التقسيم ، وحاولت فيه تحديد الهجرة اليهودية ، وتحديد انتقال الأراضي إلىٰ اليهود ، ثم منح

البلاد الاستقلال بعد عشرة سنوات وعارض الفلسطنيون الكتاب الأبيض، بوصفه لا يحقق مطالب العرب التي تتلخص في أن تظفر فلسطين باستقلالها ضمن اتحاد فيدرالي عربي ، وتبقى عربية للأبد وعارض الصهيونيون كذلك الكتاب الأبيض ، وتعاهدوا على مقاومته بالعنف والأرهاب ، فقامت عصاباتهم مثل «شتيرن» ، و«الأرغون» بغارات على الثكنات العسكرية البريطانية ، والمستودعات والمطارات وأخذت تنسف دور الحكومة والمرافق العامة ، وقتلت عدداً من الضباط والجنود البريطانيين، واغتالت اللورد «موين» وزير الدولة البريطانية في القاهرة . . كما قامت وسائل إعلامهم خارج فلسطين بحملة دعائية ضد الكتاب الأبيض مستغلة في ذلك سلاح «اللاسامية» واضطهاد النازية لليهود ، وغيرها من الأمور التي حاولوا عن طريقها كسب الرأي العالمي ، وتعاطفه مع آمالهم القومية في فلسطين .

واهتمت الصهيونية أثناء ذلك بالتجنيد والتدريب العسكري فكونوا «الهجاناه» وهي قوة عسكرية تابعة للوكالة اليهودية ، وألفوا المنظمات السرية الإرهابية من أجل إقامة دولة إسرائيل الكبرى الممتدة من الفرات إلى النيل ، وقد أتحدت هذه العصابات لتكون في عام ١٩٤٧ م جيش الدفاع الإسرائيلي . . وفي مقابل هذه الاستعدادات العسكرية لم يكن للفلسطنيين أي منظمات عسكرية مسلحة ، أو حتى جماعات مسلحة ، وبدأ الفارق العسكري بين اليهود والعرب في فلسطين واضحاً ، وهو فارق استمر وتزايد حتى يومنا هذا وعليه تعتمد إسرائيل في تجاهلها للحقوق الفلسطينية ، بل ولجيرانها العرب الآخرين[٢١] .

ب ـ الجهود الصهيونية لإقامة الدولة :

فضلاً عن كل الاستعدادات العسكرية التي قام بها الصهيونيون ، فقد

بدأوا مجهوداً سياسياً «دبلوماسياً» من أجل إقامة دولتهم في فلسطين ، وذلك حينما اتجهوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ـ بدلاً من بريطانيا ـ وركزوا عليها سياسياً وإعلامياً ، واستطاعوا أن يضربوا طوقاً صهيونياً قوياً حول رؤسائها من أمثال «روزفلت» و«ترومان» ، وذلك حينما ألتقت أهداف الصهيونية مع أهداف الولايات المتحدة الأمريكية ، زعيمة الإمبريالية الجديدة التي بدأت تحل محل دول الاستعمار القديم بريطانيا وفرنسا ، وايطاليا ، وألمانيا في استعمار البلاد الإسلامية ، واستغلت الصهيونية الثقل اليهودي في أمريكا والسيطرة اليهودية على وسائل الإعلام الأمريكية ثم المال اليهودي ، واستطاعت عن طريق التضليل الإعلامي أن تكسب الحكومة الأمريكية ، وهي ما زالت تفعل حتى يومنا هذا .

ولم يكن غريباً إذن أن يساند الرئيس الأمريكي «روزفلت» الحركة الصهيونية في مسعاها لإقامة دولة صهيونية في فلسطين ، فاجتمع بالملك عبد العزيز آل سعود عاهل المملكة العربية السعودية في البحيرات المرة في عام ١٩٤٥م محاولاً إقناعه بالموافقة على تلك الدولة الصهيونية ، ولكن الملك المسلم رفض ذلك رفضاً تاماً لأن موقفه كان دائماً إلى جانب الحق العربي في فلسطين وإلى جانب رفض الهجرة اليهودية ، فقد كان مدركاً لمطامع الحركة الصهيونية وإلى خطرها على فلسطين وعلى البلاد العربية أيضاً . . بل إنه كان دائماً يحاول وبكل السبل إثناء بريطانيا عن مساندتها للصهيونية ، وكان يمثل بموقفه هذا موقف كل مسلم غيور على دينه ومقدساته . . المسلم الرافض لتأسيس الكيان الصهيوني على أقدس بقعة من أرض الإسلام بعد الحجاز .

واندفع الرئيس «ترومان» الذي خلف «روزفلت» في تأييد الصهيونية ، وممارسة الضغط على بريطانيا من أجل إعلان الدولة اليهودية وزيادة الهجرة

اليهودية إلىٰ فلسطين حتىٰ يتحقق لليهود الغلبة العددية ، وقد خضعت الحكومة البريطانية لتلك الضغوط وظهرت ذلك فيما أوصت به لجنة تحقيق بريطانية ـ أمريكية في عام ١٩٤٦م بالسماح لمائة ألف يهودي بالدخول إلىٰ فلسطين .

ثار العرب علىٰ مثل هذه التوصيات ، وحاولت بريطانيا احتواء الموقف بعقد مؤتمر لندن ، ثم باقتراحها تقسيم فلسطين إلىٰ أربعة مناطق إدارية هي :

١ ـ المنطقة اليهودية وتشمل معظم الأراضي التي حل فيها اليهود حتىٰ ذلك اليوم .

٢ ـ المنطقة العربية ـ ذات حدود إدراية ، ولكل منطقة فيها إدارة محلية .

٣ ـ القدس ـ وتشمل القدس وبيت لحم والأراضي القريبة منها .

٤ ـ النقب .

ولكن العرب رفضوا هذه الاقتراحات كما رفضها أيضاً اليهود ، ساعتها قررت بريطانيا نقل قضية فلسطين إلىٰ هيئة الأمم المتحدة ، وأعلنت إنها ستتخلىٰ عن مهمة الانتداب علىٰ فلسطين ، وأنها ستسحب قوتها من فلسطين في ٢٥ مايو ١٩٤٨م / ١٣٦٧ هـ .

وعرضت القضية علىٰ هيئة الزم المتحدة في ١٩٤٧م / ١٣٦٦ هـ فاقترحت تقسيم فلسطين إلىٰ ثلاث مناطق : دولة عربية ، وأخرىٰ يهودية وتدويل منطقة القدس وضواحيها ، وفتحت باب الهجرة لمائة وخمسون ألف مهاجر إلىٰ فلسطين .

عارض العرب والمسلمون قرار التقسيم ، ووقعت مصادمات بين العرب واليهود ، وفجأة أعلنت بريطانيا من جانبها إنهاء الانتداب علىٰ فلسطين في ١٤ مايو عام ١٩٤٨م ، وأخذت بريطانيا تجلو بطريقة تساعد

اليهود على تثبيت أقدامهم في المدن الكبرى ، فكانت تجلو من الأحياء المسلمة أولاً لتمكين اليهود من احتلالها وقام الصهيونيين بإحداث مجازر رهيبة لإجبار الفلسطينيين على ترك ديارهم ـ كمجزرة دير ياسين ، وقبية ، وناصر الدين على مرأى ومسمع السلطات البريطانية ، وأدت هذه المجازر إلى نزوح أفواج من الفلسطنيين إلى شرقي الأردن ، وسوريا ، لبنان ، وكان ذلك بداية ظاهرة اللاجئين الفلسطنيين التي تشهدها اليوم .

٤ ـ قيام إسرائيل :

بانسحاب بريطانيا ، أعلن به جوريون قيام دولة إسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨م ، واعترفت بها بريطانيا لحظات بعد إعلانها ، وأعقبها الإتحاد السوفيتي ، ثم كل دولة أوروبا الغربية ، كما اعترفت بها تركيا ، وإيران الشاه ـ فكانتا أول دولتين إسلاميتين تعترفان بدولة الكيان الصهيوني .

ثم تلت من بعد ذلك مرحلة تثبيت الدولة الصهيونية التي امتدت من عام ١٣٦٨ هـ إلى عام ١٣٨٧هـ / ١٩٤٨م ـ ١٩٦٧م ، وكانت أولى أحداث تلك الفترة دخول الجيوش العربية أرض فلسطين ، من الأردن ، وسوريا ، ولبنان ، والعراق ، ومصر ، والمملكة العربية السعودية ، وقد لاقت تلك الجيوش بعض النجاح في الطور الأول ، ولكن الضغط الدولي أجبرها على قبول الهدنة ، التي استغلها اليهود في تسليح جيشهم في حين طبق خطر على تسليح الدول العربية ، وعندما استؤنف القتال أصيبت الجيوش العربية بانتكاسات وهزائم متوالية ، ثم كانت هدنة «رودس» مع كل من مصر ، ولبنان ، والأردن وسوريا عام ١٩٤٩م ، والتي سيطرت إسرائيل بموجبها على ٧٧٪ من أراضي فلسطين عوضاً عن ٥٦٪ من الأراضي التي خصصت لليهود بموجب قرار التقسيم ، وفي مارس ١٩٥٠م أصدرت الدول الاستعمارية الثلاث : الولايات المتحدة ، بريطانيا ، وفرنسا التصريح

الثلاثي بضمان حدود إسرائيل ، والمحافظة على كيانها الصهيوني من أي خطر محتمل يتهددها ، كما قامت تلك الدول بدعمها اقتصادياً وعسكرياً من أجل خدمة المصالح الاستعمارية في المنطقة العربية ، وتعهدت بجعل قوة إسرائيل الحربية أقوى من قدرة الدول العربية مجتمعة ، أما روسيا فقد أمدت إسرائيل بأهم من ذلك بالعنصر البشري المدرب على القتال ليتم الغزو الصهيوني الاستيطاني .

مرحلة التوسع اليهودي ١٣٨٧ ـ ١٤٠٩هـ/ ١٩٦٧ ـ ١٩٨٨م :

اشتركت إسرائيل في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م وقد كسبت فيه : فتح خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية ، والاتصال بأفريقيا ، وهو أمر هام جداً لإسرائيل .

ثم قامت إسرائيل بتحويل مياه نهر الأردن إلى النقب ، لاستيعاب مهاجرين جدد هناك ، وليصبح النقب قاعدة انطلاق لليهود الصهيونيين صوب شبه الجزيرة العربية ، ووادي النيل .

ثم جاءت حرب أكتوبر ١٩٦٧م ـ حرب الأيام الستة ، ونتائجها ماثلة أمام أعيننا الآن ، احتلال القدس الشرقي ، والضفة الغربية وهضبة الجولان ، وشبه جزيرة سيناء ، ومحاولات الصهيونية إزالة المسجد الأقصى ، وبناء الهيكل المزعوم مكانه .

ثم كانت حرب رمضان ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م ـ وعبور الجيش المصري خط بارليف ، والسند الأمريكي العاجل والهائل لإسرائيل .

ثم جاءت اتفاقيات كامب دافيد ـ سبتمبر ١٩٧٨م ، وما نتج عنها ، من توقيع اتفاق السلام بين مصر ودولة الكيان الصهيوني ، وتمزق الوحدة

العربية الذي تلى ذلك السلام ، وتداعيات الأحداث التي تشهدها ونعيشها اليوم(٢٢) .

وتبقى في النهاية النتيجة المرة ، وهي : أن الشعب الفلسطيني اليوم موزع لاجئ ، يعيش أبناؤه مرارة اللجوء ، وفلسطين غير موجودة على الخريطة السياسية ، ومكانها دولة الكيان الصهيوني التي أدخلت في روع العرب أنه لابد من الاعتراف بها ، فهي ـ كما يدعي قادتها ـ أمر واقع ، وأنه لا قبل للعرب من استرجاع فلسطين ، فالدولة الصهيونية قوية لا يمكن قهرها ، وأنه لابد من السلام معها ، شاء العرب أم أبوا .

وتلك كلها حجج مضللة واهية ، فليس هناك قوة في هذا العالم لا يمكن قهرها والتغلب عليها ، والتاريخ يحدثنا عن أمثلة كثيرة ، انتصر فيها الضعفاء ـ بقوة الإيمان ـ على أعتى وأقوى الدول ، وربما انطلت كذبة السلام مع إسرائيل على البعض ، فتوهموا أن إسرائيل ستقنع بذلك السلام بعد الاعتراف بها ، وهم في ذلك لا يدركون طبيعة برنامج الحركة الصهيونية الذي يرمي إلى إقامة دولة إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل ، وهم عندما يفعلون ذلك إنما يستردون أرض أجدادهم ، وتلك هي فرية الحركة الصهيونية الكبرى .

ولن يكون هناك مستقبل للإسلام وأهله في فلسطين أو في غيرها من بلدان العالم الإسلامي حتى يغير المسلمون ما بأنفسهم ، ويعودوا إلى دينهم الحنيف ، يعتصمون به ، ويستمدون منه القوة والعون على أعدائهم ، بالإعداد لهم بالقوة ، والأخذ بكل ما هو مفيد وفاعل ، ولن يكون هناك نصر إلا إذا عاد الإسلام إلى المعركة ، وملأ الإيمان القلوب ، وارتفعت رايات الجهاد من جديد ، وعادت للمسلمين ثقتهم بأنفسهم ودينهم .

هوامش الفصل السادس

(١) عبد الرحمن حسن سوار الذهب ـ أوضاع الأقليات المسلمة في القارة الأفريقية ـ من بحوث المؤتمر الحادي عشر لمجمع البحوث الإسلامية ـ الأزهر ـ القاهرة ـ ١٤٠٨ ـ ص ٥ .

(٢) سيد زين العابدين ـ الأمة الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم ـ مقال في النفس المطمئنة ـ مجلة الطب النفسي الإسلامي ـ عدد ٣٢ ـ أكتوبر ١٩٩٢ ـ ص ٢٥ .

(٣) الإحصائية حديثة وموجودة في جريدة اليوم ـ عدد ٨٢٦٠ ـ الجمعة ٦ رمضان ١٤١٦ هـ الموافق ٢٦ يناير ١٩٩٦ م ـ وهي من أحدث الإحصائيات التي عثرنا عليها .

(٤) رابطة العالم الإلامي ـ تقرير «المسلمون في أفريقيا» ـ غير منشور ـ مكة المكرمة ـ ١٩٩٥ .

(٥) محمود شاكر ـ العالم الإسلامي ـ ط ١ ـ دمشق ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ـ ص ١٧٣ .

(٦) M.Kuro Kowa, Minority Responses, N. York, 1970, PP. 34-42 .

(٧) Journal of Institute of Muslim Minority Affairs, Summer 1979, 1399 PP. 5 ff .

(٨) Ibid ـ نفس المرجع .

(٩) محمد مرسي محمد مرسي ـ الأقليات المسلمة في القارة الأفريقية ـ مجلة منار الإسلام ـ العدد السادس ـ جمادى الآخرة ١٤١٢هـ/ ديسمبر ١٩٩١م ـ ص ٨٣ .

(١٠) عون الشريف قاسم ـ «الدعوة الإسلامية في أفريقيا» ـ دراسات أفريقية ـ العدد السادس ـ رجب ١٤١٠هـ/ فبراير ١٩٩٠م ـ ص ٣٢ .

(١١) محمد مرسي محمد مرسي - مرجع سابق - ص ٨٣ - ٨٤ .

(١٢) عبد الرحمن حسن سوار الذهب - مرجع سابق - ص ٨ - ١٥ .

(١٣) عبد الوهاب الكيالي - تاريخ فلسطين الحديث - الطبعة التاسعة - بيروت ١٩٨٥م - ص ٢٨ - ٣٤ .

(١٤) نفس المرجع - ص ٨٤ .

(١٥) علي جريشة - حاضر العالم الإسلامي - ط ٤ - القاهرة - ١٤١١هـ/ ١٩٩١م - ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(١٦) نفس المرجع - ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(١٧) اللجنة الملكية لشئون القدس - تطورات النشاط الاستعماري الاستيطاني في الضفة الغربية - والقدس وقطاع غزة - اللجنة الملكية - نشرة خاصة - ١٩٨٥م - ص ٢٢ .

(١٨) محمد عوض الهزايمة - مرجع سابق - ص ٢٨٦ .

(١٩) عبد الوهاب الكيالي - مرجع سابق - ص ١٢١ - ١٤٠ .

(٢٠) نفسه - ص ٢٠٢ - ٢٠٦ .

(٢١) للثورة الفلسطينية الكبرى انظر : عبد الوهاب الكيالي - مرجع سابق - ٢٦٠ - ٣٠٤ .

انظر أيضاً : أحمد طربين - فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - ١٩٧٣م - صفحات ٣٤ - ٤٤ .

(٢٢) جميل عبد الل محمد المصري - مرجع سابق - ص ٣٣٠ - ٣٥٨ .

الفصل السابع
المسلمون
في آسيا وشرق أوروبا

المسلمون في الفلبين

الفلبين مجموعة من الجزر يزيد عددها عن ٧١٠٠ جزيرة منتشرة في مياه المحيط الهادي في أقصىٰ شرقي آسيا بين الجزر الإندونيسية والجزر اليابانية ، بعضها معروف ، وبعضها صغير مجهول لا يكاد يعرفه إلا ساكنوه ، ومنها المسكون ، ومنها غير المسكون من البشر ، وأكبر هذه الجزر «لوزون» في المنطقة الشمالية ، وأغلب سكانها نصارىٰ ووثنيون ، وفيها العاصمة «مانيلا» ، وتليها في المساحة جزيرة «مندناو» في المنطقة الجنوبية ، ويتركز فيها المسلمون بالإضافة إلىٰ جزر «بالاوان» و«صولو» ، ويطلق عليها اليوم اسم «مورو الإسلامية» ، وتكون حوالي ٣٨٪ من مساحة الفلبين ، وتعتبر امتداداً لجزر إندونيسيا ، وتصل مساحة جزر الفلبين إلىٰ نحو (٢٩٩,٦٨١) كيلو متر مربع ، ويبلغ امتدادها من الشمال إلىٰ الجنوب ١٨٠٠ كيلو متر .

أما السكان فيبلغ عددهم حوالي ستين مليوناً تقريباً ، وعدد المسلمين بينهم يصل إلىٰ (٦,٥) مليون مسلم ، أي بنسبة ١١٪ ، وهذه هي تقديرات الحكومة الرسمية في مانيلا ، التي قد تتعمد تقليل أعداد المسلمين، ويتكلم أهل الفلبين (٧٨) لغة محلية ، بالإضافة إلي الإسبانية والإنجليزية اللتين دخلتا البلاد أثناء الاستعمار الإسباني والأمريكي ، ويتكلم المسلمون لغتين من اللغات السائدة في البلاد وهما : لغة «ثاصو» ، وهي قريبة من الإندونيسية ، ولغة «مراتاو» ، وهي الغالبة في جزيرة «مندناو» ، وتضم ألفاظاً عربية كثيرة ، وتكتب بالحرف العربي .

وبالنسبة لمعتقدات السكان الدينية في الفلبين ، فتبلغ نسبة النصارىٰ حوالي ٨٥٪ ، والمسلمون ١١٪ ، والبوذيون ٢٪ ، ويتألف السكان من

عنصرين أساسيين هما :

١ ـ العنصر القديم وهم سكان البلاد القدماء ، ومنهم «النجريتو» ، وهم الأقزام الآسيويون ، لونهم أسود وقامتهم قصيرة ، وجسمهم قصير ، وهم جماعات بدائية تعيش في الغابات ، والمناطق المنعزلة ، ولا دين لهم . . ومنهم من إندونيسيا والملايو ، ويرجع دخولهم إلى البلاد إلى ما قبل الميلاد .

٢ ـ عنصر المورو ، والذين قدموا إلى البلاد على موجتين ، حملت الثانية منها الإسلام ، وتوزعت في البلاد ، وقد أطلق عليهم الإسبان اسم المورو إذ شبهوهم بمسلمي المغرب والأندلس[١] .

وقد وصل الإسلام إلى تلك البقاع عن طريق الدعاة والتجار الذين وصلوا من جزيرة العرب ، ومن الهند ، وإندونيسيا ، والملايو ، وقد جاءها الإسلام ولاسيما إلى الجزر الجنوبية منذ القرن الثامن الهجري ، وما أن حل القرن التاسع الهجري حتى تأسست عدة إمارات إسلامية ، أهمها إمارة الشريف أبي بكر في «صولو» عام ٨٥٤هـ ، وإمارة الشريف محمد بن علي في «مندناو» عام ٩٠٦هـ ، ثم إمارة «مانيلا» التي تشمل اليوم عاصمة البلاد .

وازدهرت الحياة الإسلامية في تلك البلاد التي أطلق عليها العرب المسلمون اسم «عذراء ماليزيا» زهاء قرن كامل ، وكاد الإسلام يعم البلاد ويقضي على الوثنية التي كانت قائمة في تلك الجزر ، وكان عدد المسلمين يقدر آنذاك بخمسة ملايين ونصف ، أي أنهم كانوا يمثلون نسبة ٥٥٪ من تعداد السكان ، ولكن نسبتهم اليوم هبطت إلى ١٢٪ من عدد السكان بسبب ما تعرضوا له من إبادة عن طريق الحروب مع الإسبان ، ثم مع الاستعمارين الياباني والأمريكي ، وأخيراً مع الاستعمار الفلبيني النصراني الذي مافتئ

يحارب الإسلام والمسلمين ، إذ تولى النصارى المتعصبون حكم الفلبين بعد أن نالت استقلالها من أمريكا ، وتابعوا مهمة الإسبان والأمريكيين في التنصير ، ومحاولة إفساد المجتمع المسلم ، وإبادة المسلمين بشتى الأساليب البشعة ، وخاصة في عهد «ماركوس» المخلوع الذي كان يفتخر بأن «الفلبين» هي الدولة الوحيدة ذات الأغلبية النصرانية في آسيا[٢] .

الغزو الصليبي وجهاد المسلمين :

تعرضت الفلبين إلى الغزو الإسباني ، وذلك عندما وصل «ماجلان» الإسباني إلى تلك الجزر في عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م ، وحاول فرض سيطرته ونشر عقيدته ، فتصدى له المسلمون في جزيرة «ماكتان» وقتلوه ، ونجا بعض جماعته ، ورجعوا إلى إسبانيا ، وسير ملك إسبانيا بعد ذلك جيشاً تمكن من الاستيلاء على المناطق الشمالية والوسطى ، وعجز عن السيطرة على المناطق الجنوبية ، حيث يكثر المسلمون ، وأخذ الإسبان يطاردون المسلمين ويحاولون نشر عقيدتهم في المناطق التي سيطروا عليها ، واستمرت الحرب بينهم وبين الفريقين حتى عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م ، حيث خلفت الولايات المتحدة إسبانيا في استعمار الفلبين . . واستمرت في سياستها الرامية إلى تنصير السكان عن طريق الإكراه ، فقاوم المسلمون هذه السياسة واستمر القتال حوالي أربعة عقود استشهد فيها الآلاف من المجاهدين ، ولكن الغزاة شنوا على المسلمن حرب الجرائيم فمات الألوف في جزيرة مندناو وارخبيل صولو بالكوليرا ، والجدري ، والطاعون ، وبلغ ضحايا الأوبئة أكثر من ٢٠٠ ألف ، حسب التقارير الغربية نفسها ، وأدركت أمريكا عبث المحاولات تلك فلانت وعقدت معاهدة مع المسلمين ، فتكونت لهم دولة تحت الإدارة الأمريكية وازدهرت المدارس ، وهدأت الأحوال .

وفي عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م احتل اليابانيون المناطق الإسلامية من

الفلبين ، وقاوم المسلمون الغزاة الجدد ، وقاوم معهم سكان البلاد حتى حصلوا على الاستقلال عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٥م ، حيث سلمت أمريكا زمام الأمور إلى حكومة نصرانية على رأسها نصراني ، وضم الجنوب الإسلامي إلى هذه الحكومة ، ومرة أخرى كان على المسلمين الجهاد ، وهكذا ظل المسلمون ولمدة أربعة قرون يحملون السلاح دفاعاً عن عقيدتهم وكرامتهم ، ضد الإسبان ، ثم ضد الأمريكيين واليابانيين ، والآن ضد حكومات الفلبين النصرانية المعادية للإسلام والمسلمين .

ولكن محنة الإسلام في جزر الفلبين بدأت بعد استقلال البلاد ، وقيام حكومة وطنية على رأسها رئيس كاثوليكي ، إذ إن رجال الكنيسة اهتموا بإثارة الحكومة ضد المسلمين ، حيث مارست سياسة البطش والإرهاب ضدهم منتهجة عدة أساليب منها :

١ ـ تشجيع النصارى على الاستيطان في المناطق الإسلامية ، وتأييدهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين وأملاكهم ، إضافةً إلى إبعاد المسلمين عن المشاركة في المشاريع الاقتصادية الهامة ، وإبقائهم فقراء .

٢ ـ تبني الحكومة عمليات التنصير المنظمة بين المسلمين وخاصة في المناطق ذات الكثافة السكانية الفقيرة .

٣ ـ العمل على دفع المسلمين لترك أراضيهم الزراعية وإرغامهم على اللجوء إلى مجاهل الغابات وشعاب الجبال ليتحولوا إلى عمال وحطابين للأشجار ، وسقائين .

٤ ـ عدم فتح المدارس الإسلامية ، أو أي مؤسسات تعليمية أخرى حتى يبقى المسلمون جهلاء وأميين ، وغير مؤهلين للمشاركة في الحكم .

٥ ـ إرهاب المسلمين بغرض احتلال أراضيهم ، وذلك بتأسيس

منظمات إرهابية يقوم عليها بعض المتعصبين من النصارى ، مثل منظمة «أيلاجاس» الإرهابية والتي تجد الدعم المادي من إسرائيل ومن اليهود ، حيث أخذت منذ عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م تقتل المسلمين ، وتحرق دورهم ، ومساجدهم ومدارسهم ، وتهدد زعماءهم ليقبلوا تنصير السكان .

وكان قد صدر من قبل قرار ضم جنوب الفلبين الإسلامي إلى هذه الحكومة النصرانية ، وأخذت حكومة «ماركوس» تضغط على المسلمين حتى تراجع الإسلامي في «مندناو» ، ولم يبق له من مناطقه القديمة إلا جنوبها ، وارخبيل «صولو» ، وجزيرة «بالوان» ، وتوزع عدد من المسلمين في مناطق متناثرة وبخاصة حول العاصمة «مانيلاً» ، وتناقصت أعداد المسلمين في البلاد ، بعد أن كانت ٥٥٪ ، وذلك على أيدي الإسبان حتى وصلت إلى ٤٠,٥٪ ، وصلت وعلى أيدي الأمريكيين إلى ٣٢٪ ، وعلى أيدي اليابانيين إلى ١٧,٥٪ ، وعلى أيدي الحكومة النصرانية الجديدة في عهد الاستقلال إلى ١٢٪ ، وكان المسلمون يسيطرون على ٩٢٪ من مجموع مساحة جزيرة «مندناو» ، فتضاءلت هذه الملكية إلى ٣٨٪ ، وتعمل الحكومة الآن إلى تجريد المسلمين من أراضيهم كلية ، وتشريدهم ، وتوطين المزارعين النصارى مكانهم ، وذلك بدعم من أمريكا واليابان ، ولا عجب في ذلك ، فلأمريكا خمسين قاعدة حربية ومطاراً معظمها في المناطق الإسلامية[٣] .

حركة النضال :

وبالمقابل اشتد وعي المسلمين ، وشعورهم بالانتماء إلى الأمة الإسلامية الكبيرة ، ونتيجة تعرضهم للقهر ، والإعتداء والتنصير أنشأوا عدداً من الجمعيات الإسلامية ، مثل «الجمعية المسلمين الفلبينية» في مانيلا في عام١٣١٥م ، وجمعية «هداية الإسلام» ، و«مؤتمر الإسلام» ، و«النهضة الإسلامية» ، وغيرها وغيرها ، وأخيراً اضطر المسلمون إلى إعلان ثورتهم

الإسلامية الحديثة في منطقتهم المعروفة «مورو» في جنوب الفلبين ، وكان ذلك في عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م على أثر إعلان حكومة «ماركوس» الأحكام العرفية في البلاد ، وإصدارها الأوامر إلى الجيش بشن الحملات العسكرية على المناطق الإسلامية ، وجمع أسلحة المسلمين ، فتدفق الجيش الذي بلغ تعداده حوالي ربع مليون جندي إلى الجنوب «مناطق المسلمين» ، وارتكب النصارى أفظع الجرائم من قتل جماعي ، وإحراق للأحياء ، وانتهاك للأعراض والحرمات ، ولكن المسلمين صمدوا في وجه تلك الفظائع تحت قيادة جبهتهم «جبهة تحرير بنجاسا مورو الوطنية» برئاسة نور ميسواري ، التي كانت تعمل على إقامة دولة إسلامية مستقلة عن باقي الجزر الفلبينية ، وكانت نواتها الأولى قد تكونت عام ١٩٦٢م باسم «لجنة تحرير مورو» وضمت مجموعة من الطلاب الذين كانوا يدرسون في الجامعات والمعاهد الإسلامية في الشرق الأوسط .

وتوالت المعارك بين الجانبين ، وتفاقمت ، وازداد تعرض المسلمين للقتل والإبادة إلى الحد الذي جعل القضية تعرض على مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية الأول في عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م في جده ، وقد كشف الملك فيصل للمؤتمر ما يتعرض له المسلمون في الفلبين من إرهاب وقمع وتقتيل ، الأمر الذي جعل المؤتمر يرسل لجنة رباعية لتقصي الحقائق ، وبعد مفاوضات واتصالات وافق «ماركوس» رئيس جمهورية الفلبين على لسان وزير دفاعه الذي حضر مؤتمر طرابلس الغرب في ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م الخاص بالقضية على وقف إطلاق النار ، ومنح المسلمين الحكم الذاتي في ثلاثة عشر ولاية ، وقد جرى التصديق على هذه الإتفاقية من قبل اللجنة الرباعية التي شكلها المؤتمر الإسلامي .

لم يكن هذا الاتفاق إلا مناورة من «ماركوس» استهدف بها كسب الوقت من أجل القضاء على حركة الجهاد الإسلامي في جنوب الفلبين ، فعاد الصراع من جديد ، ولكن «جبهة تحرير مورو» إنشقت أثر تلك الأحداث إلى قسمين ، وكان ذلك عام ١٩٧٧م وهما :

١ ـ جبهة تحرير مورو الإسلامية بزعامة سلامات هاشم ، وهي ذات توجه إسلامي ، ينشد الإبقاء على حركة الجهاد حركة إسلامية بحته .

٢ ـ جبهة تحرير مورو الوطنية بزعامة نور ميسوري وتضم إلى جانب بعض الإسلاميين ، عناصر علمانية ووطنية ، وتبادل القسمان الأتهامات مما وسع الفجوة بينهما .

واستغل «ماركوس» هذا الوضع المتأزم بين قسمي حركة مورو الوطنية ، فلجأ إلى المناورات ، حيث أعطى المسلمين استقلالاً داخلياً بسيطاً لا يذكر ، مع تمسك السلطات العسكرية بزمام الأمور كان ذلك في عام ١٩٧٩م ، وفي عام ١٩٨٠م أعلن «ماركوس» رفع الأحكام العرفية عن المناطق الإسلامية وعن غيرها من مناطق البلاد ، وكان ذلك مجرد إدعاء كاذب إذ أنه أبقى المناطق الإسلامية تحت الأحكام العرفية ، ومن ثم ظلت المعارك قائمه بين جيشه وبين المسلمين ، كما أن «ماركوس» حاول عزل القضية بإبعادها عن الصعيدين الإسلامي والدولي ، واعتبارها نزاعاً داخلياً وليس إسلامياً حتى تفقد حساسيتها وخطورتها ، فحاول إنشاء لجنة وساطة للاتصال بقادة المجاهدين تحت ستار إيجاد حل سلمي للنزاع القائم ، دون اشتراك منظمة المؤتمر الإسلامي ، ولكن المجاهدين رفضوا هذه الوساطة ، واشترطوا أن تكون المفاوضات مباشرة بين المجاهدين والحكومة الفلبينية ، وأن يكون ذلك تحت إشراف منظمة المؤتمر الإسلامي ، وعلى أساس اتفاقية طرابلس ، وأن تعقد المفاوضات في إحدى العواصم الإسلامية ، وذلك حفاظاً على

طبيعة القضية الإسلامية ، ولكن «ماركوس» لم يكن جاداً في مناوراته تلك ، فتوقفت المفاوضات بين الجانبين .

كما أن حكومة «ماركوس» عملت على تفريق كلمة زعماء «جبهة تحرير مورو» ، فظهر الشقاق بين زعمائها ، ولكن الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي سارعت لتصفية الخلافات ، وتقريب وجهات النظر ، إضافة إلى ذلك فقد ظهرت طائفة شيوعية يسارية تدعى الحرص على الحرية وعلى الإسلام ، وهي في الواقع عميلة لموسكو ، وتعمل على احتواء حركة الجهاد الإسلامي ، والقضاء على الإسلام والمسلمين ، وقد استغل «ماركوس» ظهور هذه الطائف الشيوعية ، فادعى إنه إنما يحارب الخطر الشيوعي ، وتحت هذا الإدعاء استطاعت حكومته أن تحصل على مساعدات أمريكية هائلة لاستخدامها ضد المسلمين ، وأخذت الصحف الرسمية وغيرها تنشر أخبار المعارك مع المجاهدين على إنها معارك بين الحكومة والشيوعيين .

وقد تطور صراع المجاهدين مع الحكومة ، ودخل طوراً جديداً خطيراً ، وذلك عندما بدأت عناصر حكومية متعصبة تتعاون مع بعض الخبراء الصهيونيين والقوى الاستعمارية من أجل القضاء على الحركة الإسلامية في الفلبين ، فقام بعض الزعماء الصهيونيين بزيارات متعددة للفلبين لمساعدة الحكومة في حربها ضد المسلمين ، بل أن وزيرة خارجية دولة الكيان الصهيوني آنذاك «غولدا مائير» قامت بزيارة الفلبين وتعهدت في تلك الزيارة بتقديم المعونات المادية والمعنوية في مجال الشرطة والجيش من أجل الاستمرار في حرب الإبادة ضد المسلمين ، وهكذا بدأت بعض الجهات الخارجية المعادية للإسلام والمسلمين تتدخل في قضية مسلمي الفلبين ، والذين ما زالوا يقدمون الشهداء والضحايا من أجل تحقيق مطالبهم العادلة .

وقد أدت تلك العمليات الإرهابية المستمرة للقضاء على المسلمين إلى انتشار الفقر والجهل والمرض بين المسلمين ، وإلى تأخرهم ، مما جعلهم

فريسة لحملات التنصير والشيوعية ، ورغم ذلك فلا زال الجهاد الإسلامي مستمراً ، فالمجاهدون يسيطرون على جميع المناطق الإسلامية ما عدا بعض المدن ، ولقد سارعت بعض الدول مثل المملكة العربية السعودية وغيرها ، والمؤسسات الإسلامية كرابطة العالم الإسلامي ، ومنظمة المؤتمر الإسلامي ، وكالأزهر الشريف إلى تقديم المساعدات التعليمية لمسلمي الفلبين ، فهناك الآن عدة مدارس ومعاهد إسلامية ، مثل مركز الملك فيصل للدراسات العربية والإسلامية الموجود ضمن جامعة «مندناو» ، كما أن عدد المساجد في الفلبين يقدر بحوالي ٢٥٠٠ مسجد ، وهذا دليل آخر على الوجود الإسلامي هناك(٤) .

ولا تزال حركة الجهاد الإسلامي في الفلبين تواجه أعداءً ثلاث هم : الجيش الفلبيني ، وأعداء الإسلام الذين تستغلهم الحكومة ، والشيوعيين والعلمانيين المتظاهرين بالحدب على الإسلام ـ فقد استمرت الحكومة في حربها ضد المسلمين بعد سقوط «ماركوس» في فبراير عام ١٩٨٦م ، واغتيال «بنينو أكينو» من بعده ، وتولى زوجته «كورازون أكينو» والتي أعلنت عن إعطاء المسلمين الحكم الذاتي ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، بل استمرت في أسلوب المراوغة والمناورات ، وسياسة فرق تسد بين المسلمين ، وبقيت الحالة متوترة بين الجانبين حتى وقعت الحكومة الفلبينية والثوار المسلمون اتفاق سلام وصف بأنه نهائي في حفل أقيم في قصر الرئاسة ، وقعه مندوب الحكومة ، إلى جانب «نور ميسواري» زعيم جبهة مورو الوطنية ، كما وقعه علي العطاس وزير خارجية أندونسيا التي ساهمت في جهود الوساطة من أجل التوسط للاتفاق ، وقد وقع عليه الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي ، وشهد التوقيع الرئيس الفلبيني «فيدل راموس» وعدد من الدبوماسيين الأجانب .

ولعل الأمر الأساسي الذي اتفق عليه الطرفان في هذا الاتفاق الموقع في ٢٣ يونيو عام ١٩٩٦م هو إنشاء «مجلس السلام والتنمية في جنوب الفلبين»، والذي يدير على مدى ثلاث سنوات أربعة عشر أقليماً وتسع مدن كبرى ، ويتألف المجلس من «٨١» عضواً بينهم «٤٤» عضواً تسميهم جبهة تحرير مورو الوطنية . كما تتولى رئاسة المجلس شخصية من الجبهة ، وبعد إنتهاء فترة الثلاث سنوات يجرى استفتاء لسكان المنطقة البالغ عددهم عشرة ملايين والذين يشكل النصارى أكثر من ثلثيهم ليتقرر في هذا الاستفتاء رسم الحدود الجغرافية النهائية لمنطقة إسلامية ذات حكم ذاتي في جنوب الفلبين ، كما إنه سيجري استيعاب مقاتلي جبهة مورو في صفوف الشرطة والجيش الفلبيني ، وستكون منظمة المؤتمر الإسلامي هي المراقب لعملية التنمية وإقرار السلام في المنطقة .

وليس هذا هو أول اتفاق أو أخر اتفاق يوقع بين الجانبين ، فقد وقعت اتفاقات عدة ، ولكنها لم تفد ، وربما كان ذلك هو مصير هذا الاتفاق ، فالدلائل كلها تشير إلى ذلك ، وإلى أن حركة الجهاد الإسلامي في الفلبين ماضية في سبيلها ـ فأساليب الحكومة في المراوغة باقية لم تتغير .

قضية كشمير

الأرض والسكان :

تقع ولاية كشمير في الطرف الشمالي من شبه القارة الهندية (في الطرف الغربي من جبال الهملايا) ، وتحيط بها الصين من الناحيتين الشرقية والشمالية ، وباكستان من الغرب والشمال ، والهند من الجنوب ، فهي متاخمة لخمس دول هي : باكستان ، وافغانستان ، وروسيا ، والصين ، والهند وتمتد حدودها مع باكستان إلى أكثر من سبعمائة كيلو متر ، بينما

تصل حدودها مع الهند إلى ثلاثمائة كيلو متر فقط ، وتقع كشمير ما بين خطي عرض ٣٢ و٣٨ وبين خطي طول ٧٢ و٨٠ ، وهي بلاد جبلية فيها واديان هما وادي «جامو» ووادي «كشمير» ، وهي ذات مناخ بارد لدرجة أن الثلوج تغمر بعض أماكنها شهوراً طويلة من السنة ، كما أنها بلاد كثيرة الأنهار ، وأكبر أنهارها هي : السند ، وجليم وجناب ـ وهذه الأنهار الثلاثة الكبرى تنبع من كشمير وتنساب إلى باكستان ، وبلاد كشمير من أجمل بلاد العالم، وكثيراً ما توصف بأنها جنة الله في الأرض وتبلغ مساحتها ٢٤٠,٣٠٠ كيلو متر مربع .

وقد كانت كشمير مقسمة في زمن الاحتلال البريطاني إلى ثلاثة أقسام هي : جامو ، وكشمير ، ومنطقة الحدود ، أما اليوم فهي مقسمة إلى قسمين فقط هما : كشمير الحرة ، وهو القسم الذي أعلن استقلاله وانضمامه إلى باكستان ، ويتمتع حالياً معها بحكم فيدرالي ، أما القسم الثاني فهو كشمير المحتلة الذي استولت عليه الهند واستعمرته ، وهو القسم الأكبر إذ يكون حوالى ٦٠٪من مساحة ولاية كشمير ، وتتكون كشمير المحتلة من اثنى عشر محافظة : ست في إقليم كشمير ، وست في إقليم جامو ، وهناك ثلاث محافظات في إقليم جامو هي : محافظة بونش ، ومحافظة راجوي ، ومحافظة دودا ـ تسكنها أغلبية مسلمة أما المحافظات الأخرى فتتركز فيها الأغلبية الهندوسية .

ويبلغ عدد السكان في كشمير ـ بشقيها ـ حوالي ١٢ مليون نسمة منهم ما يقرب من ٨٥٪ من المسلمين ، والباقي من الهندوس ، والسيخ والبوذيين ، ويبلغ عدد سكان الجزء التي تحتله الهند حوالي عشرة ملايين نسمة ، والجزء الحر التابع لباكستان نصف مليون نسمة ، وهناك أكثر من مليون لاجئ ، وربع مليون مغترب . . والمسلمون في كشمير سنة أحناف ، وبينهم أقلية شيعية(٥) .

إلى جانب طبيعتها الخلابة ، وأنهارها الكثيرة ، ومراعيها الخصبة ، وثروتها الحيوانية الكبيرة ، تتمتع كشمير بموقع استراتيجي متميز ، لكونها أحد الأبواب التي تصل بين الهند والصين وما جاورها من أرض التبت .

كشمير والإسلام :

أهل كشمير مسلمون منذ سبعة قرون ، ففي عهد الخليفة الأموي هشام ابن عبد الملك مدّ المسلمون نفوذهم ، ونشروا الإسلام في أقليم كشمير وكنجرا ، وأتم فتحها والي الخليفة العباسي المنصور ، ثم زاد الإسلام انتشاراً في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله (٢١٨هـ-٢٢٧هـ) وفي القرن الثامن الهجري / أوائل القرن الرابع عشر الميلادي استطاع أحد الدعاه إقناع حاكم كشمير بإعتناق الإسلام ، فكان أول حاكم مسلم لكشمير ، واستمر العهد الإسلامي في كشمير حتى القرن الثالث عشر الهجري / بداية القرن التاسع عشر الميلادي عندما بدأ نجم المسلمين في الهند في الأفول ، ففي عام ١٨١٩م دخل المسلمون في حرب طاحنة مع طائفة السيخ استولى على أثرها السيخ على ولاية كشمير ، واستمرت سيطرة السيخ عليها حتى عام١٢٦٣هـ/ ١٨٤٦م ، وقد ارتكب السيخ أيام حكمهم للمسلمين في كشمير أنواعاً من الظلم ، والاستبداد والوحشية تتحدث عنها كتب التاريخ في كثير من التفصيل المحزن .

السياق التاريخي والسياسي لقضية كشمير :

في خلال سيطرة السيخ على كشمير احتلت بريطانيا الهند ومعها كشمير ، فطردوا الحكام السيخ من ولاية كشمير ثم باعوها بموجب اتفاقية «ارميستار» في عام ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م ، بأرضها وشعبها إلى أحد الإقطاعيين الهندوس ، واسمه «غولاب سنغ» من عائلة اسمها «دوجرا» بمبلغ ٧,٥ مليون «تانك شاهي» (العملة الرائجة آنذاك) ، وهو ما يعادل

مليون دولار ، وكأن قيمة كل فرد من أفراد الشعب الكشميري لم تتجاوز سبع روبيات ، ومن هذا التاريخ بدأ حكم «دوجرا» الهندوسي لولاية كشمير المسلمة وبدأت مأساة كشمير تظهر على مسرح التاريخ نتيجة للسياسة الجائرة التي حكم بها الهندوس أهل كشمير ، سياسة ضرائبية ظالمة ، وحكم غاشم، قاسى فيه المسلمون أقسى أنواع الظلم والاستبداد على أيدي الهندوس .

وتوالت المؤامرات ضد كشمير ، فبعد مرور قرن على بيع كشمير ، وفي عام ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م أصدر البرلمان البريطاني قانون استقلال الهند ، والقاضي بإقامة دولتين مستقلتين هما : الهند ، وباكستان ، وكان القرار ينص على أن المناطق التي يشكل فيها المسلمون أغلبية السكان تذهب لباكستان ، ومناطق الأغلبية الهندوسية تذهب للهند ، وعليه كان يتعين على كشمير أن تنضم إلى باكستان نظراً للروابط العرقية ، والدينية والمصالح المشتركة بين البلدين ولكن مهراجا «حاكم» كشمير الهندوسي كان يحيك مؤامرة لضم كشمير إلى الهند ، وذلك بالتنسيق مع الهند ، واللورد «منباتن» الحاكم العام للهند ، ونفذت المؤامرة بطريقة كانت معدة سلفاً ، ففي الوقت الذي كان فيه المهراجا يصانع الشعب الكشميري ، ويوهم باكستان بإنه يعد العدة لإنضمام كشمير لها ، كان يعمل في الخفاء مع زعماء حزب المؤتمر الوطني الهندي ، ومع الإنجليز لضم كشمير إلى الهند ، وقد أثبت سوء نيته تلك عندما قام بنزع سلاح المسلمين العاملين في الشرطة ، وأطلق يد الجماعات الهندوسية المعادية للمسلمين ، فأخذت في إبادة القرى والحارات الإسلامية ، وفي نهب أموال المسلمين وممتلكاتهم ، وساعتها فقط أدرك المسلمون في ولاية كشمير حقيقة نوايا حاكم البلاد المهراجا الهندوسي وخططه الرامية إلى عدم انضمامهم إلى باكستان ، وبدأ المسلمون يعملون ، فنشأت حركة التحرير لولاية جامو وكشمير بقيادة مؤتمر مسلمي الولاية في

عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م بغرض التخلص من حكم المهراجا ، وتحقيق مبدأ الانضمام إلى باكستان ، وفي أغسطس من نفس عام ١٩٤٧م قام الأهالي بثورة عارمة ، فاستعان المهراجا عليهم بغلاة الهندوس وإرهابييهم ، وقد استطاع هؤلاء قتل وذبح أكثر من ٢٧٠ألف مسلم ، وفر أكثر من مليون إلى باكستان ، وأمام هذه المذبحة سارع سكان باكستان الغربية ولا سيما رجال قبائل الحدود الشمالية لنجدة أخوانهم الكشميرين في محنتهم ، واستطاعوا هزيمة المهراجا وقواته ، وتحرير قسم من كشمير ، أعلن فيه الثوار حكومتهم باسم «حكومة جامو وكشمير الحرة» أو «أزاد كشمير» أي «كشمير الحرة» وذلك في ٢٤ أكتوبر عام ١٩٤٧م[٦] .

قصة الانضمام :

حاول المهراجا مقاومة الثوار بكل الوسائل ، ولكنه اضطر إلى الفرار إلى الهند أمام انتصارات الثورة ، حيث طلب المعونة من حكومة الهند ، ووقع معها اتفاقية تقضي بضم كشمير إلى الهند ، وذلك في ٢٦ أكتوبر ١٩٤٧م ، فسارعت الهند إلى إعلان الموافقة على الاتفاقية «بصورة مؤقتة» ، وأرسلت جيشها لاحتلال تلك الولاية المسلمة ، أما باكستان فقد رفضت هذه الوثيقة ، واعتبرت دخول القوات الهندية إلى كشمير عدواناً صريحاً مكشوفاً . . وهكذا بدأت كشمير تظهر كبؤرة للصراع بين الهند وباكستان .

مارست القوات الهندية عند دخولها كشمير أبشع وأفظع الجرائم ، فقد كانت تواجه بأسلحتها الحديثة الثوار الكشميريين وكتائب المتطوعين المسلحين بأسلحة عادية وأسلحة تقليدية ، ولكنهم كانوا يقاومون الجيش الهندي مقاومة باسلة ، واستطاعوا أكثر من مرة إعاقة تقدمه ، ولكن القوات الهندية تمكنت في النهاية من تثبيت حكم المهراجا ، وفي عضون ذلك كانت المعارك قد امتدت إلى حدود باكستان مما اضطرها إلى دخول المعركة علماً

بأن جيشهاً لم يكن منظماً بعد ، ولكنها أرسلت قوة من رجال قبائل «الباتان» القوية إلى كشمير حيث شبت بينهم وبين الجيش الهندي حرباً طاحنة تمكنت الهند خلال من السيطرة على الجزء الأكبر من كشمير ، وأعلنت إن ذلك الجزء أصبح جزءً لا يتجزأ من بلادها ، ثم تقدمت بشكوى إلى مجلس الأمن تشكو فيها من تدخل رجال القبائل الباكستانية في كشمير ، وأرسل مجلس الأمن لجنة للنظر في الأمر ، وبعد اجتماعات مطولة أصدرت اللجنة قرارين في عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م وعام ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م ينصان على ثلاثة مواد :

١ ـ وقف القتال .

٢ ـ تجريد الإمارة من السلاح .

٣ ـ إجراء استفتاء حر محايد تحت إشراف هيئة الأمم لتقرير مصير إمارة كشمير ، وأمر انضمامها إلى الهند أو باكستان .

وعلى هذا الأساس توقف القتال في ١/ ١/ ١٩٤٩م ، ولكن المشكلة لم تحل ، وذلك لأن الهند لا تريد التخلي عن كشمير ، ولا تريد إجراء استفتاء حر محايد فيها ، بل أن نهرو أعلن في ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م إلغاء اتفاقية الاستفتاء ، وأعلن بالنيابة عن أهل كشمير ، انضمام الولاية إلى الهند على أساس سياسة الأمر الواقع ، وهي السياسة التي آثرت الهند إنتهاجها فيما يخص كشمير ، وهي نفس السياسة التي يتبعها الصهيونيون في فلسطين(٧) وهكذا ظلت الهند مسيطرة على الجزء الأكبر من كشمير ، وأطلقت عليه اسم ولاية «جامو كشمير» ، في حين ظلت باكستان مسيطرة على الجزء الشمالي الغربي ـ وهو ثلث أراضي كشمير ـ وأطلقت عليه اسم «كشمير أزاد»أي كشمير الحرة (٧) .

السياسة الهندية في كشمير :

هي سياسة ترمي في مجملها إلى طمس هوية كشمير الإسلامية ، وذلك عن طريق عدة سبل ترمي كلها للقضاء على الإسلام وحضارته في كشمير ، فبدأت الحكومة الهندية بإتخاذ إجراءات مشددة وقاسية لإنهاء جهاد الشعب الكشميري ، واستخدمت في ذلك كل أنواع الأسلحة الفتاكة ، ثم قامت بوضع خطة للقضاء على الإسلام والمسلمين هناك ، تمثلت في تبديل المنهج التعليمي بمنهج هندوسي يشتمل على المعتقدات الهندوسية ، ويتجاهل تماماً المعتقدات والمبادئ الإسلامية ، وكذلك تشجيع الزواج بين المسلمين والهندوس لإيجاد جيل مسلم بالاسم ، هندوسي العقيدة والفكر ، وتجريد لغة كشمير من الألفاظ العربية لقطع صلة المسلمين بتراثهم الإسلامي ، وترويج حركة تحديد النسل بين المسلمين لتكون الأغلبية السكانية للهندوس ، وطمس تاريخ الولاية الإسلامي ، وغيرها من الأساليب الرامية إلى إضعاف الإسلام في نفوس المسلمين ، والتضييق على المسلمين بكل الوسائل ، وقد نتج عن تلك السياسة أن اضطر بعض المسلمين لإتخاذ أسماء هندوسية ليتسنى لهم كسب قوتهم .

وقد تفشى الجهل الديني عندما عطلت المؤسسات التعليمية الإسلامية ، وتم الإستيلاء على أحسن أراضي المسلمين ، وفرضت عليهم القوانين الجائرة ، والضرائب التعسفية ، وأصبحت المعاملة الوحشية سمة الحكم الهندي في الولاية ـ كل ذلك بغرض إزالة الإسلام ، والمسلمين عن الولاية . فهناك مثلاً ضريبة الأضحية على المسلمين ، ومنع ذبح البقر في كشمير ، ومنع المسلمين من حمل السلاح ولو بترخيص ، وإصدار القوانين القائلة : بأن الهندوسي إذا أرتد عن دينه فقد كل حقوقه في الميراث ، في حين إذا أرتد المسلم عن دينه تركت له كل أملاكه ، إضافة إلى ذلك فإن الحكومة

أبعدت المسلمين عن كل وظائف الدولة ، وحصرتهم في أداء الأعمال الحقيرة ، وفوق هذا كله تعرض المسلمون للعديد من المذابح التي راح ضحيتها الالاف منهم ، وتعرضت مساجدهم للهدم ، وتعرضوا إلي هتك أعراضهم ، وحرق دورهم ومقدساتهم ، وأكبر شاهد علىٰ ذلك هدم مساجد البابري في عام ١٩٩٢م علىٰ أيدي الهندوس المتطرفين ، وفي مايو عام ١٩٩٥م حرق مسجد شرار شريف بعد ٦٦ يوماً من الحصار ، كما أن السجون مليئة بالمسلمين حيث بلغ عددهم في سجون السلطة الهندية أكثر من أربعين ألف معتقل ، كما بلغ عدد شهداء المذابح الهندية أكثر من ٤٤ ألف شهيد ، وعدد الجرحي أكثر من ٦٧ ألف جريح(٨) .

الموقف الدولي من القضية :

هناك تجاهل دولي واضح لمسألة كشمير ، وللإنتهاكات التي تمارسها الهند في تلك الولاية ، وهناك تواطؤ دولي واضح يسند المؤامرة الهندوسية في كشمير ، ويتجاهل حق أهلها في تقرير مصيرهم ، ولا تعليل لهذا التجاهل وذاك التواطؤ إلا أن الكشميرين مسلمون ، وإن السياسة الغربية والأمريكية في ظل النظام العالمي الجديد تكيل بمكيالين ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالمسلمين ، وليس بمصالحها الذاتية ، من ذلك أن معارضة الهند ، وعدم تنفيذها ، وتجاهلها لقرارات الأمم المتحدة الخاصة بكشمير ، مع تزويدها بالقوة الكافية والرادعة من قبل الدول الغربية ـ تماماً كما هو الحال مع إسرائيل الآن . وعلىٰ الرغم من رغبة الغرب الأوروبي وأمريكا لإبقاء منطقة شرق اسيا منطقة مستقرة ، وذلك لعلم الغرب أن لدىٰ كل من باكستان والهند أسلحة نووية ، إلا أن هناك عدم رغبة ظاهرة في تطبيق قرارات المتحدة عام١٩٤٨م ـ ١٩٤٩م الخاصة بقضية كشمير ، وبخاصة

القرار الخاص بإجراء استفتاء في كشمير لتقرير مصيرها ، بل الواضح أن التحرك الأمريكي الجديد يسير في اتجاه كشمير المحتلة التي لا تربطها صلة بباكستان وبغض الطرف عن انتهاكات الهند لحقوق الإنسان في تلك الولاية ، بل الأغرب من ذلك التهديد بوضع باكستان على قائمة الدول الراعية للإرهاب إن هي ظلت على موقفها الداعم لقضية المسلمين في كشمير [٩] والرافض لقرار الضم الجبري للولاية إلى الهند ، الذي لا يقوم على سند قانوني إضافة إلى أن مجلس الأمن قد رفض هذا القرار عدة مرات ـ إحداها في عام ١٩٥٣م وكذلك في عام ١٩٥٧م ، لأنه لا بديل من إعطاء الكشميرين الحق في تقرير مصيرهم ، ولذلك لم تتمكن الهند حتى الآن من إلحاق كشمير بها قانونياً على الرغم من محاولاتها المتكررة للقيام بذلك عن طريق تزوير الانتخابات أحياناً ، وعن طريق القوة المحضة أحياناً أخرى .

كان موقف باكستان دائماً هو الموافقة علي جميع قرارات الأمم المتحدة الخاصة بقضية كشمير ، بينما كانت الهند ترفض تلك القرارات .

اندلاع الحرب في عام ١٩٦٥م :

كانت نتيجة فشل كافة المساعي الدولية لحل مسألة كشمير إزدياد التوتر بين الهند وباكستان ، وزاد من هذا التوتر الإعلانات الصادرة من وزير الداخلية الهندي وغيره من المسئولين في يناير عام ١٩٦٥ م بأن كشمير جزء لا يتجزأ من الهند ، وعلى أثر ذلك إندلعت الحرب بين البلدين في ٥ أغسطس عام ١٩٦٥م ، واستمرت سبعة عشر يوماً ، توقف القتال بعدها بموجب قرار من مجلس الأمن في ٢٢ سبتمبر عام ١٩٦٥م يقضى بوقف إطلاق النار ، وسحب قوات البلدين عن المواقع التي كانت تحتلها وبمحاولة تقصي أسباب النزاع ، وقد حاول الإتحاد السوفيتي آنذاك منفرداً حل الأزمة

سلمياً ، ولكن الهند لم تنفذ البنود التي اقترحها الزعماء السوفيت ، في حين إلتزمت باكستان بتنفيذها ، وقد جرت محاولة أخرىٰ لحل المسألة الكشميرية في اتفاقية «شملا» في عام ١٩٧٢م الموقعة بين الرئيس الباكستاني ذو الفقار علي بوتو ، ورئيسة وزراء الهند أنديرا غاندي ، ولكن مصيرها كان الفشل ، حيث بقيت المسألة دون حل حتىٰ الآن .

الجهاد الكشميري :

استمر المسلمون في كشمير يقاومون إجراءات القمع الهندية منذ عام ١٩٤٧م ، ولكن تلك المقاومة لم تأخذ شكلها المنظم إلا في يناير عام ١٩٩٠م ، بعد أن تأكد لأهل كشمير إن الحل السلمي لن يجدي شيئاً ، وإن الاعتماد علىٰ الأمم المتحدة لن يعطيهم حريتهم ، ولذا تشكلت حركة تحرير كشمير المتمثلة في «مؤتمر الحرية» الذي انضوت تحت لوائه جميع أحزاب كشمير المحتلة البالغ عددها ٣٣ حزباً .

وحركة المؤتمر هذه حركة جهادية ، يسساندها جناحها السياسي والإعلامي المسمىٰ «حركة تحرير كشمير العالمية» والذي يهدف إلىٰ إيصال القضية الكشميرية إلىٰ المحافل الإقليمية ، والشعبية والدولية الرسمية ، فالجهاد الكشميري جهاد بالسلاح في الداخل ، وجهاد بالكلمة والطرح الموضوعي العادل للقضية في الخارج ، ولقد حققت الحركة نجاحاً في ذلك ، إذ إن منظمة المؤتمر الإسلامي تتبنىٰ القضية الآن ، وتعمل بشتىٰ الوسائل علىٰ محاولة منح الشعب الكشميري حق تقرير مصيره ، وقد نددت في بيانات متعددة بالإنتهاكات الهندية الفظيعة لحقوق الإنسان في كشمير ، وهي تدعم الموقف الكشميري داخل الأمم المتحدة ، وتعمل علىٰ حل القضية ، وفقاً لقرارات الأمم المتحدة .

وكان الاهتمام الإسلامي والعالمي ، بالجهاد المسلح في كشمير أولاً بسبب الوحشية والعنف التي تتعامل بهما القوات الهندية مع ذلك الجهاد ، وكذلك لأن الكفاح المسلح في الداخل كان يوازيه كفاح سياسي وإعلامي في الخارج ، ومن ثم لم يكن غريباً أن اهتمت منظمة المؤتمر الإسلامي بالقضية الكشميرية ، وأصدر وزراء خارجيتها عدة قرارات حول وجوب حلها سلماً ووفقاً للقرارات الدولية ، ولكن مواقف الهند المتشددة كانت دائماً العقبة الكؤود أمام مثل تلك الجهود ، ذلك أن الهند كانت ترىٰ إن أي حل لقضية كشمير تحت رعاية العالم الإسلامي سيكون لصالح باكستان ، وأن أي جهد في هذا الاتجاه سيؤدي إلىٰ تدويل القضية ، وذلك ما لا تريده الهند(١٠) .

ويبقىٰ القول أن دور حكومة الهند في قضية كشمير هو إبادة من تستطيع إبادتهم من المسلمين ، ثم إجبار الباقين علىٰ الهجرة إلىٰ باكستان ، لتمكن بذلك من تحويل الأغلبية المسلمة في كشمير إلىٰ أقلية ، وخطة الإبادة هذه فاقت ما جاء به النازيون والصهيونيون من خطط لإبادة الشعوب ، فالهند ذات مطامع تسلطية واستعمارية ، فقد غزت ولايات إسلامية مثل «جوناكره» ، و«ماناودور» ، و«حيدر آباد» ، واستولت عليها ، كما سيطرت علىٰ ولاية كشمير بنفس الرغبة ، ويشجعها علىٰ ذلك عجز مجلس الأمم عن حل قضية كشمير ، كما أن الدول الكبرىٰ في العالم لا تعطي القضية ما تستحقه من اهتمام ، بل أن أمريكا وروسيا قامتا بدور فعال في تشجيع الهند ومؤازرتها في موقفها الباطل بدلاً من أن الضغط عليها واجبارها علىٰ قبول الحل السليم، فقد ساندتاها بمساعدات حربية واقتصادية، وأما روسيا فقد حابت الهند علىٰ طول الخط ، ولها مواقف

شنيعة من قضية كشمير ، وما زالت تقيم العراقيل في سبيل حلها باستعمال حقها في الفيتو في مجلس الأمن .

إن قضية كشمير لا تقل أهمية من القضايا الإسلامية الأخرىٰ ، وهي لا زالت تنتظر الحل ، وحلها ـ في ضوء الحقائق التي قدمنا ـ يتطلب الجهاد الذي ارتضاه أهلها متوكلين في ذلك علىٰ الله العلي القدير ، وهم في حاجة شديدة إلىٰ مؤازرة العالم الإسلامي لهم حتىٰ يخرجوا من المعركة منتصرين بإذن الله تعالىٰ ، وعلىٰ المسلمين المخلصين والمهتمين بهذه القضية مساندتها إعلامياً بنشر الحقائق عنها ، محاولين في ذلك كسب تأييد الرأي العالمي لها ، حتىٰ يتم الضغط علىٰ حكومة الهند للتخلي عن أطماعها الاستعمارية في كشمير ، ولابد أخيراً من مد يد العون المادي والمعنوي للثوار الكشميرين حتىٰ يتابعوا نضالهم ، ويحرروا وطنهم من الاستعمار الهندوسي ، ويقرروا مصيرهم حسب رغبتهم[١١] ، وما يعانيه المسلمون في كشمير . هو جزء بسيط من معاناة مسلمين آخرين في بلدان أخرىٰ ، فالإسلام وأهله مستهدفين من قبل أعدائهم الكثر الذين ما فتئوا يعملون بشتىٰ الوسائل من أجل حرب الإسلام وهدمه ، وأخيراً نقول إن قضية كشمير [١١] . ليست نزاعاً بين الهند وباكستان علىٰ ملكية أراضٍ ، بل قضية تتعلق بحق الكشميرين في تقرير مصيرهم .

المسلمون في الدول الشيوعية

المسلمون في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) :

تكون الاتحاد السوفيتي قبل إنهياره من خمس عشر جمهورية ، فيها ست جمهوريات يشكل المسلمون أغلب سكانها ، وهي مناطق المسلمين في هذا الاتحاد ، وهي :

١ ـ تركستان الغربية :

وهي بلاد واسعة في اسيا الوسطى ، وتحدها من الشمال سيبريا ، وشرقاً تركستان الشرقية «وقد احتلتها الصين واسمتها سينكيانغ» ، ويحدها من الجنوب افغانستان وإيران ، وتطل من ناحية الغرب على بحر قزوين وتركستان الغربية مع تركستان الشرقية كانت تكون أرض تركستان الواسعة والتي هي موطن الترك الأصلي ، وكانت تعرف ببلاد ما وراء النهر ، مع جزء من أقليم خراسان (والذي هو مقسم بين الاتحاد السوفيتي السابق ، وافغانستان وإيران) وبلاد ما وراء النهر هي الأراضي الواقعة وراء نهر جيحون، ومن أشهر مدنها : بخاري ، وطشقند ، وسمرقند وقد كانت في يوم من الأيام درة في العالم الإسلامي .

وقد احتلت روسيا القيصرية هذه البلاد منذ أكثر من قرن ، ثم قسمت بعد الثورة الشيوعية إلى خمس جمهوريات اتحادية هي : أوزبكستان ، وطاجستان ، وقازاقستان ، وقيرغيزيا ، وتركمانستان ، ويسكن كل هذه المنطقة حوالي ٤٥ مليون نسمة من القبائل التركية : القازاق ، والأوزبك ، والتركمان ، والقيرغيز ، والطادجيك ـ ويكون المسلمون تسعة أعشار

السكان ، ومعظمهم من أهل السنة ، وبينهم حوالي ثلاثة ملايين شيعي يعيش أغلبهم في طادجيكستان(١٢) .

٢ ـ منطقة حوض الفولجا :

وتقع شرقي روسيا ، وغالبية سكانها مسلمون ، ويتكلم معظمهم لغات تركية، مع اللغة الروسية وتشتمل المنطقة على سبع جمهوريات ذات حكم ذاتي ، ترتبط جميعاً بجمهورية روسيا الاتحادية التي عاصمتها موسكو ، ومن أهم هذه الجمهوريات : باشكيريا ، وتتاريا ، والجوفاش ، وموردوف ومن أهم مدنها أوفا وقازان .

٣ ـ سيبريا :

وهي أراضي واسعة تمتد بين روسيا والمحيط الهادي ، وتسكنها قبائل من الجنس المغولي قليلة العدد لطبيعة بلادها ، حيث لا زالت سيبريا الواسعة المجاهل هي البلاد التي ينفى إليها الروس خصومهم ، وقد تسرب الإسلام إلى هذذ المنطقة عن طريق الدعاة ، ولا سيما أهل بخاري .

ويقدر عدد سكانها بعشرة ملايين نسمة ، تصل نسبة المسلمين بينهم حوالي ٢٥٪ وكانت فيها حضارة إسلامية قضت عليها روسيا في أواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر ـ السابع عشر الميلادي ، وأصبحت سيبريا اليوم منفى للمسلمين المتمردين على الظلم الشيوعي .

٤ ـ بلاد القفقاس ـ قفقاسية :

القفقاس منطقة جبلية تفصل بين آسيا وأوروبا ، والبلاد الواقعة شمالها تدخل ضمن أوروبا ، وما يقع جنوبها ضمن آسيا ، وتمتد مع جبال القفقاس (القوقاز) من بحر قزوين (الخزر) إلي البحر الأسود ، وينتشر على سفوحها الشمالية الداغستان ، وسركسيا (الشاشان) وعلى سفوحها الجنوبية

جمهورية اذربيجان ، وجورجيه وأرمينية .

وسكان داغستان ، وسركسيا (الشاشان) ، واذربيجان مسلمون ، وسكان جورجيا وأرمينيا من النصارىٰ ، وقد جعلت اذربيجان جمهورية اتحادية .

وتبلغ مساحة قفقاسيا ٣١٤,٤٠٠ كيلو متر مربع ، ويسكنها أكثر من ١٥ مليون هم مجموعة من القبائل أهمها : الجراكسة ، والشاشان ، والقوشحة ، والداغستان ، إضافة إلىٰ الكرج ، والأرمن ، والأكراد ، وكل هذه البلاد كانت من ديار الإسلام ، وقد وصلها الإسلام عن طريق الفتح والدعاة في القرن الأول الهجري .

وبعد أن ضعفت الدولة العثمانية أخذت روسيا بالتوسع في بلاد القفقاس ، فضمتها بالتدريج بعد مقاومة عنيفة من أهلها ، وقد قسمها الشيوعيون إلىٰ أربعة عشر قسماً من أجل إمكانية السيطرة عليها ، خاصة المناطق الجبلية منها والتي قسمت إلىٰ أربع ولايات ذات حكم ذاتي ، كما قسمت باقي المناطق إلىٰ جمهوريات ذات حكم ذاتي في شمال القوقاز هي : داغستان ، وشاشان إنجوشيا ، واوستينا الشمالية ، وابخاريا وغيرها ، وهناك جمهوريات اتحادية في جنوب القوقاز هي : اذربيجان ، وجورجيا ، وأرمينيا .

وأهم مدن قفقاسية هي :

ـ باكو : عاصمة اذربيجان ، وهي مدينة البترول ، وميناء علىٰ بحر قزوين .

ـ مجح قلق : عاصمة الداغستان ، وهي كذلك ميناء هام علىٰ بحر قزوين .

ـ دربنت : في داغستان ، وهي على بحر قزوين ، وقد سماها العرب الباب أو باب الأبواب .

ـ تفليس : عاصمة جورجيا .

٥ ـ شبه جزيرة القرم :

القرم شبه جزيرة تمتد من البر الأوروبي في البحر الأسود ، وتعد من أوروبا و تحيط بها مياه البحر الأسود من الجنوب والغرب ، وتبلغ مساحتها ٢٦,١٥٠ كيلومتر مربع ، وصلها الإسلام عن طريق التتار الذين سكنوا المنطقة حوالي عام ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م ، وسيطروا عليها في عهد العثمانيين وكانوا عمالاً موالين لهم وكان بينهم وبين الروس صراع مستمر كان النصر فيه للتتار أولاً حتى يقال أنهم وصلوا إلي موسكو عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م ونهرها ، ولكن الروس انتصروا عليهم في عام ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م ، الأمر الذي جعل العثمانيين ينزلون شبه جزيرة القرم ، ويسيطرون على جنوبها ، ولكن عندما ضعفت الدولة العثمانية تخلت عن القرم في عام ١١٩٨هـ/ ١٧٨٣م ، وحل محلها الروس ، واضطهدوا التتار المسلمين ، وطردوا منهم حوالي نصف مليون ، وقد عانى التتار من القمع والتجويع بعد الثورة الشيوعية في عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م ، وعانوا من بطش الألمان بهم أثناء الحرب العالمية الثانية ، ثم نكل بهم الروس من بعد ذلك فقتلوا منهم حوالى نصف مليون ، ونفوا الباقي إلى سيبريا وعملوا على طمس معالم الإسلام ، فهدموا المساجد ، وأحرقوا المصاحف في الميادين العامة ، ثم أعلن مجلس السوفيت الأعلى إلغاء جمهورية تتار القرم من الوجود ، وضمت إلى جمهورية أوكرانيا السوفيتية .

وفي عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م قرر مجلس السوفيت براءة تتار القرم من تهمة التعاون مع الألمان ، ولم يسمح لهم بالعودة إلا بعد انهيار النظام

الشيوعي ، وهم الأن يسعون للاستقلال في حين تتنافس روسيا وأوكرانيا على إحتواء هذا البلد المسلم(١٣) .

هذه هي مناطق المسلمين في الاتحاد السوفيتي المنهار ، وهذا الوجود الإسلامي يوضح حقيقة هامة قد يجهلها كثير من الناس ، وهي أن العنصر الإسلامي في بلاد الاتحاد السوفيتي ليس عنصراً غريباً دخل البلاد فاتحاً ثم استقر فيها ، بل المسلمون هم أهل البلاد وسادتها ، وهم يكونون حوالي ستين مليون أي ما يعادل ربع السكان حسب إحصاء عام ١٩٧٠م ، وهم يمتلكون أهم الثروات في الاتحاد السوفيتي ، وبدونهم يصبح في عداد الدول التي تعتبر من الدرجة الثالثة .

الروس وموقفهم من المسلمين :

كانت سياسة روسيا تجاه المسلمين منذ عهد القياصرة سياسة قائمة على محاربة الإسلام والمسلمين ، تلك السياسة التي بدأها القيصر إيفان الرهيب واستمرت حتى بعد قيام الثورة الشيوعية عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م وهي تتلخص فيما يلي :

١ ـ سياسة التنصير الإجباري :

وخاصة في روسيا الأوربية ، فكان على المسلمين الارتداد إلى النصرانية ، أو الطرد ، أو التصفية الجسدية لمن سيبدي أقل مقاومة ، إضافة إلى إغلاق مدارس القرآن ، وهدم المساجد والإستيلاء على أوقاف المسلمين ، فقد هدم الروس مثلاً في بلاد قازان وحدها خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي ٤١٨ مسجداً من أصل ٥٣٦ مسجداً وأغلقوا كل مدارس القرآن الكريم ، وفتحوا بدلاً منها مدارس تنصيرية لأبناء المسلمين ، وشجعوا التنصير بإعفاء المرتدين عن الإسلام من دفع الضرائب ، ومن الخدمة العسكرية ، وكانت العقيدة الإسلامية جريمة يُعاقب عليها بالإعدام(١٤) .

٢ ـ التهجير والإبادة :

بالتضيق على المسلمين بمختلف الوسائل ، كطرد علماء الدين من المدن، ومصادرة الأوقاف ، وفرض الضرائب الباهظة على المسلمين ، والتصفية الجسدية للقادة المسلمين ، ثم باحلال الروس في أراضي المسلمين، مثلاً في حوض الفولجا وفي أراضي القفقاس الخصبة ، وبالعمل على إثارة القوميات والقبليات ، وسياسة فرق تسد ، وعزل المناطق الإسلامية عن بعضها البعض ، والعمل على جعل المسلمين في حالة من التأخر والفقر ، حتى يضطروا للهجرة من بلادهم إلى أماكن أخرى طلباً للرزق ، نظراً إلى سياسة تفتيت الجماعة الإسلامية ، وإقامة مكانها مجتمعات إقليمية ، ولغوية وعرقية ، بهدف استئصال الوحدة الإسلامية ، ثم استئصال الإسلام ذاته من بعد ذلك .

روسيا الشيوعية وموقفها من الإسلام :

وحين قامت الثورة الشيوعية عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م لم ينتبه المسلمون إلى أهميتها ، فوقفوا منها موقف المتفرج ، وظن قلة منهم أن فيها خلاصاً لهم من الظلم القيصري .

وقد حاول رجال الثورة كسب المسلمين إلى جانبهم بتذكيرهم بظلم القياصرة لهم ، وبوعدهم منحهم السيادة القومية ، واحترام معتقداتهم ، فوجهوا نداءً للمسلمين في نوفمبر عام ١٩١٧م ، وقعه كل من لينين وستالين جاء فيه دعوتهم إلى الثورة ، وفيه :

«يا مسلمي روسيا من تتار الفولجا ، والقرم ، وقرغيز سيبريا ، وتركستان ، وشاشان . . إلخ الذين هدم قياصرة روسيا المستبدين مساجدهم ، وبيوت عبادتهم ، والذين أهينت معتقداتهم . . أعلموا أن معتقداتكم ، وعاداتكم ، ومعاهدكم القومية والثقافية ستكون بعد الآن حرة

ومحترمة ؛ نظموا حياتكم القومية بحرية تامة ، وبلا معارضة من قبل أحد ، فهذا حقكم . . . ثوروا من أجل دينكم ، وقرآنكم وحريتكم في العبادة . . إننا نحن نعلن احترامنا لدينكم ومساجدكم ، وأن عاداتكم وتقاليدكم حرة لا يمكن المساس بها . . . وأعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية مصونة بقوة الثورة[١٥] .

ولكن حين استتب الأمر للشيوعيين حاولوا أول الأمر عن طريق الجاليات الروسية التي كانت تعيش في بلاد المسلمين نشر الشيوعية ، وأخذوا يخدعون المسلمين ويحدثونهم عن مجتمع الحرية والرفاهية ، فاستجاب لهم بعض أبناء البلاد ، ثم بدأت موسكو تتدخل في بلاد المسلمين ، وحين رفضت الحكومات المسلمة ذلك عزمت حكومة موسكو على احتلال البلاد بالقوة ، وفي إبريل عام ١٩١٨م أصدر لينين أمراً بالزحف على البلاد الإسلامية دون سابق إنذار ، وتمكنت قواته من الاستيلاء على على معظم البلاد وذلك لعدم تكافؤ القوى بينها وبين جيوش الحكومات الإسلامية الوليدة ، فازالوا عنها الصفة الدينية واستبدلوا بها جمهوريات اتحادية شعبية كل منها جزء من الاتحاد السوفيتي ، وبدأ الشيوعيون يمارسون سياسة إلغاء كل ما له صلة بالإسلام .

وظهرت الشيوعية على حقيقتها كعدوٍ للدين ، ذلك إن هذا العداء هو مبدأ من مبادئ الشيوعية الملحدة ، فالدين في نظرهم أفيون الشعوب ، وأنه على منظمات الحزب أن تكافح وجود الإسلام لأنه دين بدائي ورجعي ، وأنه سلاح «في أيدي الطبقات المستغلة ووسيلة في أيدي المستعمرين الأجانب للضغط على العمال لإخضاع الشعوب الشرقية[١٦]» .

لذا أنصرف السوفيت إلى حرب الإسلام بطرق مختلفة ومتنوعة ، وأيضاً مرنة ولبقة ، ففي السنوات الأولى للثورة كانت سياسة الحزب

الشيوعي تجاه المسلمين سياسة مذبذبة ومترددة ، وكانت تقوم على ثلاثة أسس هي :

١ ـ إلغاء الوقف الإسلامي إعتباره قوة مادية في يد رجال الدين .

٢ ـ إلغاء المحاكم الشرعية لأنها تعطي المسلمين سلطة على حياتهم اليومية ، وتقوي كيانهم .

٣ ـ إلغاء المدارس الإسلامية لأن التربية الإسلامية هي أساس حياة المسلمين(١٧) .

والحديث عن الأوقاف حديث هام لأن أوقاف المسلمين في القرم ، والقفقاس وآسيا الوسطى كانت عبارة عن ثمانية أعشار الأراضي المزروعة في البلاد المذكورة ، وبمعنى اخر فإن المسلمون كانوا بأوقافهم في غنى عن كل عون حكومي ، ولذا رأي الشيوعيون سلب المسلمين هذه القوة المادية .

وسرعان ما اتضحت سياسة العداء للإسلام أكثر فأكثر ، فانصرف السوفيت إلى حرب الإسلام على الصعيد الفكري ، ونشطت المنظمات الثقافية الشيوعية في إلقاء المحاضرات ، ونشر الكتب ضد الإسلام ، وحوربت اللغات المحلية لتحل محلها اللغة الروسية ، واستخدمت الحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية في التعليم داخل المناطق الإسلامية ، ثم استبدلت بالحروف الروسية منذ عام ١٣٥٩هـ/ ١٩٣٨م ، ومن أمثلة حربهم الفكرية للإسلام ، إنشائهم «الإلحاد» في موسكو عام ١٣٤١هـ/ ١٩٢١م ، وهي دار نشر مهمتها نشر ورعاية كل ما يتصل بمعاداة الدين ، وتصوير الإسلام على إنه دين بدائي ، وخليط عجيب من العقائد النصرانية ، واليهودية ، والوثنية ، وإنه دين محافظ يقف ضد التجديد ، وأنه يأمر بالظلم وعدم المساواة ، وأنه يدعو إلى اضطهاد المرأة إلى آخر الدعايات والترهات التي بثوها إلى كتبهم ونشراتهم ، وحتى في إذاعاتهم ، وأفلامهم

المعادية للإسلام ، إضافة إلى ذلك فقد منع التعليم الديني منعاً باتاً في مدارس الدولة ، وإلغيت المدارس الإسلامية إلغاءً تاماً ، وكانت تقدر بثمانية آلاف مدرسة .

وقد حددت السلطات السوفيتية أربع إدرات للإشراف على الشئون الدينية بشكل يتلاءم مع سياسة الدولة ، وأولى هذه الإدارات وأهمها كانت في طشقند حيث يشرف المفتي شمس الدين خان على مسلمي آسيا الوسطي، وقازاقستان ، وتشرف الثانية على شئون مسلمي شمال القفقاس، والثالثة على شئون مسلمي سيبريا وأوروبا ، والرابعة على ما وراء القفقاس ـ وقد استقبل زعماء المسلمين في روسيا ، وفي خارج روسيا هذه التدابير بسرور بالغ ، ولكن سرعان ما اتضح لهم أنها جزء من سياسة مهادنة المسلمين الذين كانت الدولة في حاجة ماسة لمساندتهم وهي تواجه الغزو النازي لأراضيها ـ ولم توقف هذه التدابير سياسة ترحيل أكثر من مليون مسلم ، اتهموا[١٨] بالخيانة ، إلى مجاهل سيبريا .

وتابع الشيوعيون سياسة القياصرة المعادية للإسلام ، فطبقوا سياسة فرق تسد ، حيث عمدوا إلى تجزئة المناطق الإسلامية إلى وحدات قومية لغوية صغيرة متنافسة ، وقاموا بتفتيت المسلمين ، منعاً للوحدة الإسلامية ، كما أنهم أتبعوا سياسة تهجير المسلمين من مناطقهم حتى يصبحوا أقليات في عقر دارهم ، إضافة إلى أساليب الإبادة حيث أباد الشيوعيون خلال خمسين عاماً حوالي ٢٠ مليون مسلم ، ويُقال أن ستالين وحدة قتل ١١ مليوناً ، فمثلاً أصدر أوامره في عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٤م بسبي جميع الشاشان ونفيهم إلى سيبريا ، وإلغى جمهوريتهم ووزع أراضيها على جمهورية جورجيا ، كما نفى آلاف المسلمين من منطقة القرم ، والداغستان وغيرها .

وبعد موت ستالين أشرف الأمين العام السابق للحزب الشيوعي خروتشوف بنفسه على تنفيذ مخطط يرمي إلى تصفية المسلمين في التركستان، عن طريق تهجيرهم، ودمجهم في المجتمعات الشيوعية الإلحادية، كما فرض الشيوعيون سياسة عزل المناطق الإسلامية بعضها عن بعض من ناحية، وكلها عن العالم الإسلامي من ناحية أخرى، فقد عاش المسلمون فترة طويلة تحت الستار الحديدي بعيدين عن كل ما يجري في العالم الإسلامي، الأمر الذي مكن للحكومات الشيوعية من الإنفراد بهم، والعمل بكل الوسائل على إبعادهم عن الإسلام، ومحوه من نفوسهم.

ورغم كل ما قامت به الشيوعية من حرب ضد المسلمين، إلا أنها لم تنجح في أن تذيب المسلمين في مجتمعها الجديد، فلا تزال تركستان واوزبكستان، وبخاري، وطقشند، وسمرقند مناطق إسلامية، وهم وأن جهل أبناءهم الكثير من مبادئ الإسلام إلا إنهم ما زالوا مسلمين في جوهرهم، ولا زالوا متمسكين بهويتهم الإسلامية، ولا زالت أعدادهم في تزايد، ويمكن أن يصل في بداية الألفية الثالثة إلى ثلث عدد سكان الاتحاد، وهو أمر تخافة السلطات الروسية، كما تخاف من الولاء الذي يكنه المسلمون لأخوانهم خارج روسيا، واعتبار أنفسهم جزء من العالم الإسلامي الكبير ومن الأمة الإسلامية[١٩].

الجمهوريات الإسلامية في «كومونولث» الدول المستقلة:

بعد انهيار الشيوعية والاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١م تم تأسيس رابطة الدول المستقلة (الكومنولث)، فوجدت المجموعات الإسلامية في تركستان نفسها فجأة دولاً مستقلة، منفصلة عن السيطرة الشيوعية، وهي جمهوريات: أذربيجان، أوزبكستان، وطاجكستان، وتركمنستان، وكازاخستان، وقرغيزستا، وقرغيزستان.

وأحس المسلمون بزوال كابوس السيطرة السوفيتية القاسية الذي كان يحيط بهم ، ويسبب لهم التخلف ، وبدأوا محاولاتهم لاستعادة هويتهم الإسلامية في وجه التحديات الاقتصادية ، والسياسة ، وتحديات النظام العالمي الجديد ، وتراكمات السياسات الشيوعية ، والمعركة أمامهم لا زالت قاسية ، والطرق ما زالت طويلة ، وستكون عودتهم إلىٰ الإسلام متوقفة علىٰ عوامل عدة منها : مدىٰ المساعدة التي ستقدمها الدول الإسلامية الأخرىٰ لهم ، واستعداد المتطوعين من الدعاة للانتشار في تلك الجمهوريات لبذر بذور الإسلام الصحيح من جديد ، بعد أن غيبتها السياسات الشيوعية ، ثم مدىٰ استعداد تلك الجمهوريات للتفاعل مع الحكومات والشعوب الإسلامية الراغبة في مساعدتهم .

فالمسلمون في تلك الجمهوريات الإسلامية يحتاجون إلىٰ اليقظة والتحرك الهادئ ، فلا زال الاستعمار الروسي أمامهم ، ولقد صرح «يلتسين» رئيس روسيا السابق أكثر من مرة بأنه علىٰ روسيا في الحاضر كما كان عليها في السابق أن تحصن نفسها ضد الإسلام القادم من الجنوب ، وماتزال سياسة الكرملين هي العداء للإسلام ، والحذر منه ، والعمل بشتىٰ الوسائل علىٰ احتوائه ، فالدعاية ما زالت تبث عبر وسائل إعلام معاديةً للعرب والإسلام وهناك من يرجع ذلك لنفوذ اليهود ، ولكن الروس لا يقلون حقداً علىٰ الإسلام من اليهود ، وللفريقين مصلحة واحدة .

وللأسف الشديد فما زال معظم رؤساء هذه الجمهوريات الإسلامية ينتمون إلي العقيدة الشيوعية القديمة ، حتىٰ ولو أظهروا غير ذلك ، وهؤلاء الرؤساء يشاطرون الغرب وقادة الكرملين آراءهم بأن الخطر الذي يهددهم إنما هي الأصولية الإسلامية .

ومن أكثر الدول حرصاً في تعاملها مع هذه الجمهوريات الإسلامية هي إيران التي أقامت لها سفارات في هذه البلاد ، وأقامت معها خطوط اتصالات جوية ، فسيرت طائراتها إلىٰ مطاراتها ، وقامت شخصيات إيرانية بارزة بزيارة هذه الجمهوريات كما أستقبلت طهران بعض مسئوليها البارزين ، وتحاول إيران إشاعة الثقافة الإسلامية ولكن من منظورها الإيراني .

وإذا كانت إيران تسعىٰ جاهدة في هذا الإطار فإن تركيا تبذل من جانبها محاولات أخرىٰ وإن كانت محاولات في اتجاه آخر ، فقد أعلنت تركيا علىٰ لسان زعمائها بأنها مكلفة من قبل الولايات المتحدة والغرب بأن تقود هذه الجمهوريات التي ترتبط معها بروابط اللغة ، والتاريخ والتراث ، أن تقودها لطريق العلمانية ، وإبعادها عن الأصولية الإسلامية . ولأن الجمهوريات هي أقرب إلىٰ تركيا منها إلىٰ أي بلد آخر ، فهناك قوىٰ داخلية في تلك الجمهوريات تناصر تركيا كما صرح مسئولون آتراك أن لتركيا علاقات وطيدة غير قابلة للانفصال مع الجنوب السوفيتي الإسلامي .

ويبدو أن هناك نوعاً من التنافس بين إيران وتركيا علىٰ خطب ود تلك الجمهوريات الإسلامية الوليدة ، وهما تمثلان في الوقت الحاضر علىٰ الأقل ثقافتين ونظرتين وهدفين مختلفين .

أما البلاد العربية التي كانت لها صلات بالاتحاد السوفيتي السابق من قبل ، والروسي بعده ، فلم تفكر في إقامة أي نوع من العلاقات مع سكان هذه البلاد التي تعتبر عمقاً استراتيجياً للمنطقة العربية والإسلامية ، ولقد زكي هذا المجال لدولة الكيان الصهيوني التي تبذل جهوداً جبارة في التغلغل إلىٰ هذه المناطق ، حيث أفتتح اليهود العديد من المراكز ، وصدروا عشرات الصحف والمجلات ، وكلها تدعو إلي الصداقة والتعاون مع إسرائيل .

إن الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي ـ سابقاً ـ تستطيع أن تقدم للدول الإسلامية الأخرىٰ التكنولوجيا المتقدمة ، وفرصاً عظيمة للاستثمار وإقامة سوق اقتصادية متكاملة ، وذلك عندما تدرك الشعوب في كلا المنطقتين مصالحها المشتركة[٢٠] .

وسنتناول ـ في إيجاز ـ هذه الجمهوريات الإسلامية .

١ ـ جمهورية اذربيجان :

تقع علىٰ ساحل بحر قزوين الجنوبي الغربي ، ويحدها من الجنوب إيران ، ومن الشمال بحر قزوين ، والداغستان وجورجيا ، ومن الشرق بحر قزوين ، ومن الغرب أرمينيا .

انفصلت عن الاتحاد السوفيتي السابق عام ١٩٩١م ، ونظام الحكم فيها جمهوري ، لغتها لغة تركية هي «الاذرية» ، وتأتي اللغة الروسية في الدرجة الثانية ، وسكانها يعودون إلىٰ عدة أصول ـ أهمها : الاذريبجانيون (٧٨,١٪) والداغستان (٤,٣٪) ، والتاليس ، والتتار (أقل من ١٪) ، وهؤلاء جميعاً مسلمون ويعيش إلىٰ جانبهم الروس (٩,٧٪) ، والأرمن (٩,٧٪) ، والأوكرانيون (٥,٠٪) وجميعهم نصارىٰ ، أما اليهود فنسبتهم (٥,٠٪) .

يشكل المسلمون في أذربيجان (٣,٨٣٪) ، والنصارى (٢,١٦٪) واليهود (٥,٠٪) ، ويشكل الشيعة (٧٠٪) من المسلمين ، والسنة حوالي(٣٠٪) ، ويعيش الشيعة في المناطق الجنوبية القريبة من إيران ، وهم كأهل إيران شيعة اثنا عشرية ، وأهم الأخطار التي تحيق بالمسلمين في اذربيجان «البهائية» ويتواجدون في العاصمة باكو .

مناخها معتدل ، ماطر طوال العام ، وبارد في الأجزاء الوسطى ، ويعتمد اقتصادها علي الصناعات كصناعة الأنابيب المعدنية ، والمضخات ،

والسجاد ، والصناعات الخفيفة ، ومعدات استخراج البترول ، وبناء السفن وعلى المحاصيل الزراعية كالحبوب ، والقطن ، والخضروات ، والعنب ، والشاي الأخضر ، وفيها عدد من المعادن كالبترول ، والغاز الطبيعي والحديد ، ونسبة الأمية بين الكبار حوالي (٦٥٪) وأهل الجمهورية حريصون علي العودة إلى الإسلام من جديد ، وخاصة بعد تجربتهم المرة التي عاشوها زمن الشيوعيين(٢١) .

٢ ـ جمهورية طاجكستان :

تقع في وسط آسيا ، ويحدها من الشمال قيرغيزيا واوزبكستان ، ومن الجنوب أفغانستان ، ومن الشرق الصين ، ومن الغرب اوزبكستان ، وعاصمتها «دوشانبي» ، لغتها الطاجكية ، وهي قريبة من اللغة الفارسية ، وهناك من يتكلمون اللغة الروسية ، والإيرانية .

سكانها هم : الطاجيك (٥٨,٥٪) ، والأوزبك(٢٣٪) والتتار ، والقرغيز ، والتركمان بنسب ضئيلة (بين ٣٪ ـ ١٪) وجميعهم مسلمون ، وهناك الروس ونسبتهم (١٠,٥٪) ، والأوكرانيون ويشكلون (١٪) من السكان ، وهؤلاء من النصارى .

يشكل المسلمون (٨٤,٢٪) من السكان الأصليين ، والنصاري (١١,٥٪) ، وكانت نسبة المسلمين في عام ١٣٥٨هـ حوالي (٩٨٪) ، ولكنها تقلصت بفعل أساليب البطش الشيوعي ، والمسلمون سنة في معظمهم من أصحاب المذهب الحنفي ، وتوجد جماعات من الشيعة ، أكثرها من عنصر الطاجيك .

نظام الحكم في طاجكستان جمهوري ، ومناخها قاري ما عدا المناطق الغربية التي يسودها مناخ صحراء آسيا الوسطى و اقتصادها يقوم علي صناعة الأسلاك الكهربائية ، والنحاس ، والصناعات الجلدية والقطنية ،

وفيها عدد من المعادن كالفحم والبترول ، والغاز الطبيعي ، والنحاس . ونسبة الأمية بين سكانها مرتفعة قد تصل إلى ٦٠٪ .

ويؤكد الطاجيكيون الذين يتحدثون اللغة الفارسية ، أن لهم تاريخاً وأصولاً فارسية ، ويقولون أن دولتهم الأولى كانت هي الدولة السامانية ، وأنه تعاقب على حكم منطقتهم الغزنويون والسلاجقة ، ويقولون أن طاجكستان الحالية ألحقت بالأمبراطورية الروسية في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي ، وأن طاجكستان حصلت على الحكم الذاتي عام ١٩٢٤م ، لتغدو كياناً داخل أوزبكستان ، ثم انفصلت عنها عام ١٩٢٩م لتصبح واحدة من الجمهوريات الخمس عشرة الأعضاء في الاتحاد السوفيتي ، وأنها انفصلت من الاتحاد عام ١٩٩١م ، ويدور الآن في الجمهورية صراع حول السلطة بين العناصر العلمانية متمثلة في الحزب الوطني الديمقراطي الطاجيكي ، وبين حزب (راستاخيز) أي «الانبعاث» ، والذي يدعو إلى إحياء الترث القومي المرتبط بالثقافة الفارسية ، وبين حزب النهضة الإسلامي والذي يتمتع بشعبية هائلة بين سكان الريف والذين يشكلون حوالي سبعين بالمائة من سكان الجمهورية ، ويعتبر صاحب أفضل مستقبل بين القوى السياسية في طاجكستان(٢٢) .

٣ ـ جمهورية أوزبكستان :

تقع في إقليم تركستان في وسط آسيا ، ويحدها شمالاً كازخستان ، وجنوباً أفغانستان ، وتركمانستان ، ومن الشرق قيزغيزيا وطاجكستان ، ومن الغرب تركمنستان .

عاصمتها طشقند ، ولغة الجمهورية الرسمية هي اللغة الأوزبكية وهي قريبة من اللغة العثمانية ، أهم عناصرها السكان الأوزبك (٧ , ٦٨٪) ، والتتار (٢ , ٤٪) ، والطاجيك (٩ , ٣٪) ، ومجموعات صغيرة أخرى ،

وكل هؤلاء مسلمون ، أما النصارىٰ في الجمهورية فهم الروس (٨ , ١٠٪) والأوكرانيون (١ , ١٪) والكوريون (٧ , ٪) ، وتوجد أقلية ضئيلة من اليهود بين السكان .

المسلمون هم أغلبية سكان الجمهورية ونسبتهم (٨ , ٨٦٪) ، والنصارىٰ يشكلون حوالي (٦ , ١٢٪) ، واليهود (٦ , ٪) . . والمسلمون سنة أحناف ، وهناك مجموعة من الشيعة الاثنا عشرية .

وتعتبر هذه الجمهورية بمثابة القائد الروحي لبقية الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي السابق ، لأن طشقند العاصمة كانت تحتضن مقر المجلس الإسلامي الأعلىٰ الذي كان يشرف علىٰ شئون المسلمين هناك .

نظام الحكم فيها جمهوري ، وقد انفصلت عن الاتحاد السوفيتي في أواخر عام ١٩٩١م ، مناخها صحراوي ، حار صيفاً ، بارد قليل الأمطار شتاءً ، تعتمد في اقتصادها علىٰ الصناعات الخفيفة ، وصناعة الورق والبلاستيك ، وعلىٰ المحاصيل الزراعية كالحبوب ، والأرز ، والخضروات والفواكه ، وفيها من المعادن الفحم والغاز ، والملح ، ونسبة الأمية بين سكانها تصل إلىٰ حوالي ٧٠٪ .

وقادة الجمهورية وممثلوها في البرلمان مهتمون بإقامة علاقات مع دول العالم الإسلامي ، وقد أخذت بوادر ذلك التواصل تظهر للعيان الآن[٢٣] .

٤ ـ جمهورية تركمانستان «تركمانيا» :

تقع في وسط آسيا ، تحدها كازاخستان من الشمال ، وأفغانستان وإيران من الجنوب ، وأوزبكستان من الشرق ، وبحر قزوين من الغرب .

عاصمتها (عشق آباد) ، ويتكلم سكان الجمهورية اللغة التركمانية واللغة الروسية وهناك لغات أخرىٰ خاصة ببعض العناصر القاطنة داخل

حدود الجمهورية ، يشكل التركمان العنصر الرئيسي في البلاد وتصل نسبتهم إلى (٤ ,٦٨٪) ، ثم الأوزبك (٥ ,٨٪) ، والقازاق (٩ ,٢٪) ، ويشكل الروس حوالي (٢ ,٢٠٪) من السكان .

المسلمون هم أغلبية السكان ويشكلون (٨ ,٧٩٪) ، والنصارىٰ حوالي (٢ ,٢٠٪) . . والمسلمون سنيون معظمهم أحناف ، وهناك قلة من الشيعة الاثنا عشرية تعيش في المناطق الجنوبية القريبة من الحدود الإيرانية والأفغانية .

مناخها متباين قاري ، ثم معتدل في الشمال ، وصحراوي في الأجزاء الجنوبية ، اقتصادها يقوم علىٰ الصناعات الثقيلة مثل صناعة الجرارات ، وعلىٰ الصناعات المعدنية والبلاستيك ، وبها محاصيل زراعية كالقمح ، والسكر ، وبذور عباد الشمس ، والفواكه . . إلخ ، وبها ثروة حيوانية ، وكانت تمد الاتحاد السوفيتي بالقمح ، ولذا سميت بسلة الخبز ، ومن أهم معادنها البترول والفحم والغاز الطبيعي ، والحديد والنحاس والملح ، ونسبة الأمية بين سكانها حوالي ٧٠٪ .

٥ ـ جمهورية كازاخستان :

إحدىٰ جمهوريات وسط آسيا ، تحدها روسيا من الشمال وجزء من الصين وقيزغيزستان ، وأوزبكستان وتركمانستان من الجنوب ، والصين من الشرق ، وجزء من روسيا وبحر قزوين من الغرب .

عاصمتها (ألما ـ آتا) ، ولغة البلاد الرسمية هي القازاقية وهناك الروسية التي فرضاها الشيوعيين عليهم ، وأهم عناصرها السكانية : القازاق (٣٦٪) ، وهناك التتار ، والأوزبك ، والألغور ، والأذريبجان بنسب ضئيلة وهم كلهم مسلمون ، ويوجد بجانبهم الروس بنسبة (٩ ,٤١٪) ، والأوكرانيون

(١,٦٪) ، والكوريون (٦,٠٪)وهؤلاء كلهم من النصارىٰ ، وهم غرباء عن البلاد ، وكانوا مستعمرين لها حتىٰ عام ١٩٩١م سنة إنفصال الجمهورية عن الاتحاد السوفيتي السابق .

ومعظم سكان الريف من المسلمين في حين يسكن النصارىٰ المدن ويشكل النصاري معظم السكان إذ يبلغ نسبتهم (٦,٥٨٪) ، في حين أن نسبة المسلمين تصل إلىٰ (٤,٤١٪) ، إلا أن الروس بدأوا يعودون إلىٰ روسيا حيث تزايدت نسبة المسلمين إلىٰ (٥٠٪) والمسلمون سنة أحناف وهناك قلة من الشيعة الاثنا عشرية .

وقد أكد رئيس الجمهورية نور سلطان نزار بايف ، أنه يشارك الغرب مخاوفه من الأصولية الإسلامية ، ولكن الشعب يحاول جاهداً الرجوع إلي الإسلام بعد أن أبعدته عنه السلطات الشيوعية ولسنوات طويلة(٢٤) .

٦ - جمهورية قرغيزستان :

موقعها في الجزء الشرقي من آسيا الوسطىٰ ، تحدها كازاخستان من الشمال ، والصين وطاجكستان من الجنوبً ، والصين من الشرق وأوزبكستان وجزء من طاجكستان من الغرب .

عاصمتها (فرونزة) ، ولغة سكانها القرغيزية التي تكتب بالأحرف الروسية ، وهناك اللغة الروسية ، ولغات الأقليات الأخرىٰ .

وأهم عناصر السكان : القرغيز (٩,٤٧٪) ، والأوزبك (٩,٢٥٪) والتتار (٢٪)، وأقليات أخرىٰ مثل الأويفور ، والقازاق ، والطاجيك ، وجميع هؤلاء مسلمون ، وهناك الروس ويشكلون (٣,٢٠٪)والأوكرانيون (٣,٢٪)وهم نصارىٰ .

والمسلمون يشكلون ما نسبته (٤ , ٧٧ ٪) وهم من أهل السنة ، ومذهبهم المذهب الحنفي ، وكالعادة هناك أقلية ضئيلة من الشيعة الاثنا عشرية ، ونسبة النصارىٰ(٦ , ٢٢٪) .

مناخ البلاد بارد ، وأمطاره معظم أيام السنة ، وفي وسط البلاد مناخ حار جاف صيفاً ، اقتصادها يقوم علىٰ الصناعات الخفيفة والثقيلة ، وعلىٰ بعض المحاصيل الزراعية كالحبوب ، والقطن ، والبطاطا ، والخضار والفواكه ، والعنب ، ونسبة الأمية عالية حوالي ٧٠٪ .

وهناك الآن اتجاه رسمي وشعبي في الجمهورية إلىٰ بناء المؤسسات الدينية ، وإقامة علاقات ثقافية واقتصادية وسياسية مع دول العالم الإسلامي(٢٥) .

المسلمون في شرق أوروبا

لم يكن حال المسلمين في شرق أوروبا بأسعد أو أحسن منه في الاتحاد السوفيتي السابق ، ذلك إن دول أوروبا الشرقية كانت حتىٰ حين خاضعة لنفوذ الاتحاد السوفيتي الذي كان يهيمن عليها ، ويوجه سياساتها كلها ، سواء كانت تجاه المسلمين أو تجاه أمور أساسية أخرىٰ ، ومن ثم فإن سياسة تلك الدول تجاه الإسلام هي نفس سياسة الاتحاد السوفيتي السابق تجاهه .

دخول الإسلام إلى شرق أوروبا :

انتشر الإسلام في بلاد شرق أوروبا بوسيلتين :

١ ـ التجار المسلمون الذين كانوا يتاجرون بالفراء والسلع التي كانوا يحصلون عليها من البلاد الشمالية ، وفي القرن الثالث الهجري وأوائل

الرابع / العاشر الميلادي اتخذ هؤلاء التجار مراكز لهم على ضفاف نهر الفولجا .

٢ ـ عن طريق القبائل التتارية في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي التي أسلمت واستقرت في شمال البحر الأسود وفي أسفل حوض نهر الفولجا .

ولكن دخول الإسلام إلى جنوب شرق أوروبا تأخر بسبب مناعة القسطنطينية التي حاول المسلمون دخولها منذ عام خمسين للهجرة ، وفي أواخر القرن الرابع الهجري بدأ المسلمون البلغار الذين سكنوا حوض نهر الفولجا يهاجرون إلى جهات بلغاريا ، ويوغسلافيا ، وألبانيا ، والمجر ـ لكن أثرهم في تلك البلاد كان ضعيفاً ، أولاً لقلة عددهم بالنسبة لسكان البلاد ، والثاني لعدم تمكنهم من معرفة الدين الإسلامي لنشره بين الناس ، ومن ثم لم يذكر المؤرخون الكثير عن أثرهم في تلك البلاد ، بل أن بعض المصادر تؤكد إن بعضهم ذاب في المجتمعات التي هاجروا إليها كالمجموعة التي هاجرت إلى المجر وذابت في مجتمعه النصراني .

ولم يدخل الإسلام بصورة واضحة وفاعلة ، ولم يتعزز وجوده إلا حينما فتح السلطان العثماني محمد الفاتح عاصمة الدولة البيزنطية (القسطنيطنية) في عام ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م ، وأصبحت عاصمة للدولة العثمانية ، ومركزاً لانطلاق حملات الفتح العثماني لبقية أراضي شبه جزيرة البلقان ، فإحتاجت جيوش العثمانيين فاتحة وناشرة للإسلام في تلك الأصفاع من جنوب شرقي أوروبا ، واستطاعت تلك الجيوش أن تحاصر (فينا) مرتين، كانت أخراها في عام ١٠٩٥هـ / ١٦٨٣م .

وبفضل جهود العثمانيين صارت معظم أقطار شرق أوروبا مقراً لجاليات إسلامية ، وأصبحت بعضها دولاً إسلامية ، كدولة ألبانيا التي لا زال أكثر

سكانها من المسلمين ، ووجدت جاليات إسلامية كثيرة في يوغسلافيا ، وفي رومانيا ، وبلغاريا ، والمجر ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبولنده .

ثم عندما ضعفت الدولة العثمانية ، وعندما انهارت تماماً بعد الحرب العالمية الأولى بدأ نفوذ الإسلام ينحسر عن تلك الجهات ، وعندما وقعت تحت السيطرة الشيوعية شهد الإسلام والمسلمون فيها ما شهدوه في الاتحاد السوفيتي ، فكانت معاناتهم كمعاناة إخوانهم المسلمين العائشين تحت سلطان البطش الشيوعي السوفيتي .

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي ، وتفكك جمهورياته انهار الحكم الشيوعي في كل دول أوروبا الشرقية ، وتفككت العديد من دولها ، وأصابت بعضها الحروب الأهلية ، وتمزقت إلي دويلات صغيرة ، كما هو الحال في يوغسلافيا السابقة . نستعرض فيما يلي الوجود الإسلامي في بعض دول أوروبا الشرقية :

١ ـ ألبانيا :

هي جمهورية اشتراكية في نظام حكمها ، استقلت إدارياً عام ١٩١٢م وتقسم إدارياً إلى ٢٦ مقاطعة ، وتقع ألبانيا في جنوب أوروبا ، في الجزء الغربي من شبه جزيرة البلقان بين يوغسلافيا واليونان وبحر الأدرياتيك ، وعاصمتها (تيرانا) .

دخلها الإسلام في أخريات القرن الثامن الهجري / أخريات الثالث عشر الميلادي من الفتح العثماني ، الذي أخضعها لسلطان الدولة العثمانية في معركة «قوصوا» في عام ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م ، وانتشر الإسلام فيها خلال فترة وجيزة فصارت البلد الأوروبي الوحيد الذي يتمتع بأغلبية مسلمة ، إذ وصلت نسبة المسلمين فيه أكثر من (٨٥٪) من السكان الذين يبلغون اليوم

حوالي ٢ مليون نسمة ، أما النصارىٰ الكاثوليك والأورثودكس فأقلية لا تتعدىٰ الـ (١٤٪) والمسلمون من أهل السنة الأحناف وتنتشر بين المسلمين الطرق الصوفية مثل البكتاشية ، والخلوتية ، والرفاعية .

وحين ضعفت الدولة العثمانية وانفصلت عنها دول البلقان ، تبعتها ألبانيا ، ونالت استقلالها التام في أواخر الحرب العالمية الأولىٰ ، ثم وصل الشيوعيون في أعقاب الحرب العالمية الثانية إلىٰ السلطة ، وحكم أنور خوجه البلاد مدة إحدىٰ وأربعين عاماً عزلها تماماً عن العالم حتىٰ عن جارتها الشيوعية يوغسلافيا ، وسام المسلمين العذاب كما فعل الشيوعيون في الاتحاد السوفيتي والصين وعمل علىٰ حرب الإسلام ، واقتلاعه من جذوره ، وأعلنت حكومته في عام ١٩٦٧م أنها أغلقت ٢١٦٩ مبناً دينياً ، معظمها مساجد ، وأعدمت عدداً كبيراً من الأئمة ورجال الدين بتهم الدعاية ضد الدولة ، أو التحريض أو حيازة كتب دينية ، وفي دستور ١٩٦٧م نصت المادة الثالثة علىٰ أن الدولة لا تعترف بأي دين ، وتعمل علىٰ بث الدعاية الإلحادية بغرض غرس النظرة المادية في نفوس المواطنين .

وحين مات أنور خوجة في سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م خلفه رامز عاليه ، وبدأ شيئاً من الانفتاح علىٰ العالم ، ولكن المسلمين لا يزالون في بلاء عظيم ، فالشباب المسلم هناك يعيش في غربة مؤلمة عن الإسلام ، وليس في ألبانيا مؤسسة إسلامية واحدة تتولىٰ تعليم المسلمين أمور دينهم ، فقد هدم الحكام المساجد ، ومنعوا المسلمين من اتخاذ أسماء إسلامية ، ومنعوا مراسم الزواج الشرعية ، والصلاة علىٰ الأموات ، وغرسوا المبادئ الإلحادية في كافة المناهج التعليمية .

وبانهيار الشيوعية أعيد فتح المساجد ، وحرية العبادة ، والسفر والهجرة ، وألبانيا الآن في حاجة ماسة لمساعدة العالم الإسلامي لها حتىٰ

تبني مساجدها ، وتعيد للأمة هويتها الإسلامية ، وتتحرر من قبضة الفكر العلماني والإلحادي ، ومن السيطرة التي تفرضها عليها دول الجوار[٢٦] .

٢ ـ يوغسلافيا (السابقة) :

انهارت وتفككت في أعقاب الانهيار الشيوعي ، ومازالت دولها المتفككة تشهد عدم الاستقرار حتى اليوم ، وقد كانت قبل ذلك دولة بلقانية تتاخم حدودها جميع الدول البلقانية : المجر ، رومانيا ، بلغاريا ، اليونان وألبانيا ، وكانت مجموعة جمهورية اتحادية تتكون من ست جمهوريات صغيرة هي : صربيا ، وهي أكبر الجمهوريات وعاصمتها بلغراد العاصمة الاتحادية ، وكرواتيا وعاصمتها زغرب ، والبوسنة والهرسك وعاصمتها سيراجيفو ، ومقدونيا وعاصمتها سكوبيا ، وسلوفينيا وعاصمتها ليوبليانا ، وأخيراً جمهورية الجبل الأسود وعاصمتها تيتوجراد وهي أصغر الجمهوريات .

وصل الإسلام إلى هذه الجمهورية التي يبلغ عدد سكانها أكثر من ٢٢ مليون نسمة (حتى عام ١٤٠١هـ) ، بعد فتح صقلية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، إلا أنه ازداد بشكل كبير مع الفتح العثماني ، ويشكل المسلمون حالياً حوالي ٢٠٪ من السكان في يوغسلافيا ، أي أن عددهم أكثر من ٤,٥ مليون نسمة ، يكون البشناق نصف عددهم ، ثم يليهم الألبان وعددهم حوالي ١,٥ مليون نسمة ، معظمهم في إقليم كوسوفا حيث اجتزئ هذا الإقليم من ألبانيا في الحرب العالمية الأولى ، ثم الأتراك وقد قل عددهم بسبب هجرتهم إلى تركيا ، ولكل قومية من هذه القوميات لغتها ومدارسها الإسلامية .

وعندما ضعفت الدولة العثمانية استولت النمسا على مناطق عديدة من يوغسلافيا ، واستقل بعضها مثل الجبل الأسود وصربيا ، واضطرت الدولة

العثمانية للتخلي عن إدارة البوسنة والهرسك سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م ، لإمبراطورية النمسا والمجر .

وبعد الحرب العالمية الثانية تسلم الشيوعيون الحكم بزعامة «تيتو» ، وتعرض المسلمون لمذابح وأذىً كثيراً ، وهدمت معظم مساجدهم ومدارسهم ، وألغيت المحاكم الشرعية ، وكانت خطة «تيتو» أن يقضي على جيل كامل من المسلمين القدامى ، فقد أباد الشيوعيون عند تسلمهم الحكم ٢٤ ألف مسلم ، وأغلقوا في مدينة سيراجيفو الأكاديمية الإسلامية العليا للشريعة وجميع المدارس الدينية إلا واحدة أبقوا عليها للدعاية .

ولم تسلم المساجد من حقدهم ، فقد كان في ولاية البوسنة والهرسك قبل الحرب العالمية الثانية ١٧ ألف مسجد ، وفي العاصمة سراجيفو وحدها (٨٧٠) مسجداً ، وفي بلغراد العاصمة الاتحادية (٢٧٠) مسجداً خربت جميعها ما عدا مسجداً واحداً بقي منها ولكن هدمت مئذنته . . كما أن الحكومة الشيوعية كانت تحول دون وصول المسلمين إلى المناصب الإدارية ، أو الاقتصادية أو الجيش ، وإلى رفع نسبة البطالة بينهم ، وممارسة التمييز العنصري ، وبث الدعاية ضدهم بأنهم متطرفين ومتعصبين ، وعنيفين ، دون أن يملك المسلمون وسائل للرد على تلك الافتراءات .

وبعد انهيار الشيوعية في الاتحاد السوفيتي ، انهار كذلك الحكم الشيوعي في يوغسلافيا ، وانقسمت إلى عدة جمهوريات ، وحاول المسلمون بقيادة على عزت بيكوفتش إقامة دولتهم الخاصة بهم ، فكانت مأساة البوسنة والهرسك التي مارس فيها الصرب بقيادة رئيسهم المتطرف «ميلوسيفتش» أبشع جرائم القتل ، والتصفية العرقية ، والتدمير والاغتصاب ضد المسلمين ، وهي جرائم لم يشهدها التاريخ الحديث ، وقد وقفت أوروبا والولايات المتحدة ، وهيئة الأمم المتحدة متفرجة على جرائم

الصرب في البوسنة والهرسك ، ولم تتحرك إلا عندما بدأت كفة الصراع تميل إلى صالح المسلمين ، وساعتها فقط تدخلت لتفرض على المسلمين سلماً يخدم أعداءهم أكثر مما يخدمهم ، ويتوهم الكل أنه سيعيد السلام والهدوء إلى تلك المنطقة ، وهو سلم هش قد ينهار في أي لحظة ، ولعل ما تشهده جمهورية مقدونيا هذه الأيام هو بداية ذلك الانهيار ، ومالم توضع الأمور في نصابها الصحيح ، ومالم تتم تسوية عادلة للمسلمين ، فلن تستطيع قوات حلف شمال الأطلنطي ، ولا محكمة العدل في لاهاي التي تحاكم الآن مجرمي الحرب الصرب ، أن تعيد للمنطقة هدوءها وسلامها(٢٧) .

٣ ـ بلغاريا :

دولة صغيرة تشرف على البحر الأسود من الناحية الشرقية تبلغ مساحتها ٩٢٨ , ١٠٠ كيلو متر مربع ، وعدد سكانها حوالي تسعة ملايين نسمة ، سميت باسم قبائل البلغار التي أسلم كثير منها قبل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، ثم دخل معظم أراضيها في حكم المسلمين حين فتحها السلطان العثماني مراد الأول ، وابنه بايزيد بالتدريج ، واستغرق فتحها الفترة من ٧٤٤ ـ ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م ، فأصبحت جزءاً من ديار الإسلام ، وقاعدة لانطلاق الجيوش العثمانية إلى أواسط أوروبا ، وبقيت ولاية عثمانية لمدة خمسة قرون ، حتى عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٨م ، حيث انتشر الإسلام فيها أثناء ذلك انتشاراً كبيراً .

وقد انفصلت بلغاريا عن الدولة العثمانية ، بدسائس الدول الأوروبية وإثارة النعرات القومية ، وكونت بها مملكة قائمة بذاتها سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م ، بعد أن هجرها كثير من المسلمين ، وهاجر إليها كثير

من النصارىٰ ، وانضمت لألمانيا في الحرب العالمية الأولىٰ والثانية ، فغزاها الروس ، وسيطر عليها الشيوعيون منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، فأصبحت ضمن منظومة الدول الشيوعية .

وكان المسلون أغلبية سكانية في بلغاريا قبل استقلالها ، ولكن تعرض المسلمون لكثير من الظلم والاضطهاد بعد الاستقلال ، فهاجر كثير منهم إلىٰ خارج بلغاريا ، وحل محلهم البلغار الذين استقدموا من البلدان المجاورة ، كما تقلصت أعداء المسلمين بسب تعرضهم للتنصير الإجباري ، والتشريد ، ومحاولات تذويبهم في المجتمع النصراني ، فصودرت مدارسهم ومساجدهم .

وقد تابع الشيوعيون هذه السياسات بعد استيلائهم علىٰ بلغاريا في عام ١٩٤٥م ، فواصلوا سياسة التنصير بشكل أكثر عنفاً وقسوة ، فمنعوا التعليم الديني الإسلامي ، وجاربوا الإسلام ذاته ، فشوهوا صورته بشتىٰ أساليب الدعاية ، وأهملوا المناطق الإسلامية ، وأفقروها ، وعزلوا المسلمين في بلغاريا عن عالمهم الإسلامي تماماً ، فمنعوا السفر والهجرة إلىٰ خارج البلاد ، بل إنهم منعوا حتىٰ دخول المصاحف والكتب الدينية ، وحرموا المسلمين من التعليم المدني ، ناهيك عن التعليم الإسلامي ، مما اضطر بعض المسلمين الملتزمين بتعليم أولادهم سراً في البيوت ، أو إرسالهم إلىٰ العلماء في بعض القرىٰ البعيدة عن سلطة الدولة ، وأهملوا مساجد المسلمين فهدموا بعضها ، وأغلقوا البعض الآخر ، فقد كان في صوفيا مثلاً ثلاثة مساجد ، أغلق أحدها وأزيلت منارته ، وحول الثاني إلىٰ متحف ، والثالث إلىٰ كنيسة ، وباختصار حاول الشيوعيون تذويب المسلمين في المجتمع الشيوعي الملحد ، والقضاء علىٰ هويتهم الإسلامية ، فأجبروا المسلمين مثلاً علىٰ تغيير أسمائهم الإسلامية إلىٰ أسماء بلغارية نصرانية أو يهودية ،

ومنعوهم من تسجيل المواليد الجدد بأسماء إسلامية ، أو أن تتم إجراءات الزواج وتسجيله بأسماء إسلامية ، كما حرموا على المسلمين لبس الزي الإسلامي ، وخاصة النساء ، ومنعوا المسلمين من الاحتفال بأعيادهم ، وصوم رمضان ، وأداء فريضة الحج ، ومن اقتناء المصاحف أو الهجرة إلى خارج مناطقهم ، ومن دفن موتاهم في مدافن خاصة بهم ، كما منعوهم من وظائف المؤسسات ودوائر الدولة على الرغم من نسبتهم السكانية الكبيرة ، فالمسلمون اليوم حوالي المليونين ، أي أنهم أصبحوا خمس سكان بلغاريا الذين يبلغون تعدادهم تسعة ملايين نسمة ، غير أن بعض التقارير تقول إن عدد المسلمين يقارب نصف السكان في بلغاريا ، فالحكومة شديدة التكتم على أعداهم ، وتحاول بكل السبل تذويبهم والقضاء عليهم في الداخل ، وجعلهم جميعاً شيوعيين ملحدين ، وقد قاوم المسلمون هذا الظلم ، ولكن مقاومتهم قمعت ببربرية ، وسيق الآلاف منهم إلى السجون ، وهُجر بعضهم بالقوة ، ولعل أبرز أمثلة تلك المقاومة انتفاضة المسلمين في عام ١٩٨٩م التي تبعتها حركة تهجير تعسفي للمسلمين ، حيث طرد الآلاف منهم إلى تركيا المجاورة .

وبعد انهيار الشيوعية سمح للمسلمين البلغار بالعودة إلى مدنهم وقراهم في شمال وجنوب بلغاريا ، فعاد منهم حوالي مائة ألف مسلم ، ولكنهم وجدوا منازلهم ومتاجرهم قد هدمت ، أو احتلها البلغار الآخرون ، وشهد المسلمون انفراجاً نسبياً فأخذوا في إعادة بناء وتأهيل مساجدهم ومدارسهم الإسلامية ، وبدأت بعض الهيئات الإسلامية تظهر للوجود ، وتحاول مزاولة نشاطها في أوساط المسلمين ، كالهيئة المؤقتة للإفتاء ، وكجمعية الإرشاد الخيرية الإسلامية ، وغيرها ، ولكن السلطات البلغارية النصرانية تقف للمسلمين بالمرصاد ، وما لم يتحرك العالم الإسلامي ومنظماته للدفاع والذود عنهم ، وما لم تضغط الدول الإسلامية على الحكومة البلغارية ،

لتصلح من أساليبها ضد المسلمين ، فإن معاناة المسلمين ستستمر ، ومحنتهم لن تتوقف(٢٨) .

٤ ـ رومانيا :

تقع في شمال شرق البلقان ، وهي أحد جمهوريات أوروبا الشرقية الاشتراكية ، مساحتها ٢٣٧,٥٠٠ كيلو متر مربع ، وسكانها حوالي ٢٢,٥ مليون نسمة ، وعاصمتها «بخارست» .

دخلها الإسلام عن طريق الدعاة الأتراك في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ، وقد بدأت الدعوة الإسلامية في رومانيا حوالي عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م على يد داعية تركماني يدعى (سامي سالتيك) على وجه التحديد ، ثم جاءتها هجرات تركية زادت من انتشار الإسلام فيها ، ثم اتسعت دائرة الإسلام وعم مدنها وقراها يوم أن فتحها العثمانيون في الفترة ٨١٤ ـ ٨١٩هـ/ ١٤١٦م .

تعرض المسلمون بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحروب العالمية الأولى إلى ألوان عديدة من الاضطهاد ، فهاجر الآلاف منهم إلى تركيا ، فقل عدد المسلمين في رومانيا ، حيث أصبح عددهم في عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م ٢,٢٢٠,٠٠٠ (مليونان ومائتان وعشرون ألفاً) نسمة ، ثم وصل قبل الحرب العالمية الثانية إلى مائتين وستين ألف نسمة ، وتزايدت هجرة المسلمين بعد استيلاء روسيا وبلغاريا على أجزاء من رومانيا ، حيث تقلص عددهم عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م إلي ٩٠ ألف فقط ، ويوجد معظم المسلمين في شرقي رومانيا في منطقة دوبروجة على ساحل البحر الأسود ، وكالعادة فإن المسلمين يعانون كثيراً من المضايقات والاضطهاد تحت الحكم الشيوعي : من إهمال لهم ، وللتعليم الإسلامي ، وتضييق عليهم ـ وبالرغم من ذلك

فقد حافظت بعض المناطق على أسمائها وأوضاعها الإسلامية مثل مدينة المجيدية في جنوب رومانيا على البحر الأسود .

يرعى شئون المسلمين في رومانيا مفتي أكبر يقيم في مدينة «كونستانزا» على ساحل البحر الأسود ، ويوجد في بوخارست العاصمة مسجد يدعى مسجد «كارول»(٢٩) .

٥ ـ بولنده :

تعتبر من دول وسط أوروبا ، مساحتها ٣١٢,٦٨٣ كيلو متر مربع ، وسكانها حوالي ٣٦ مليون نسمة ، وعاصمتها وارسو .

يرجع دخول الإسلام إلى بولنده إلى التتار الذين انطلقوا في القرن السابع الهجري/ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي نحو الغرب إلى بولنده، واستقرت جماعات منهم هناك ، وكان ملوك بولنده يسمحون لتلك الجماعات المسلمة باستقدام علماء الإسلام ، وإرسال أبنائهم إلى مصر لطلب العلم والتفقه في الدين ، فضلاً عن السماح لهم بأداء فريضة الحج ، وكانت هذه الجالية تتمتع باحترام ملوك بولنده .

وقد ازداد اتصال بولنده بالشرق الإسلامي بعد امتداد نفوذ العثمانيين إلى شمال البلقان خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، وأصبحت بولنده سوقاً للسلع والتحف التركية والإيرانية ـ كما كان الحج كان وسيلة اتصال أخرى لمسلمي بولنده بإخوانهم في البلاد الإسلامية .

عادت بولنده للوجود بعد الحرب العالمية الأولى بعد أن كانت مقسمة بين ألمانيا ، والنمسا ، وروسيا ، وكان عدد المسلمين عند ظهور بولنده في عام ١٩١٨م حوالي ١٥٠ ألف مسلم ، وقد خرجت بولنده بعد الحرب العالمية الثانية ، وقد تقلصت مساحتها ، وقل عدد سكانها ، فقل عدد

المسلمين فيها حيث كان عددهم في عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م حوالي عشرة آلاف مسلم، وفي عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧١ م زاد عددهم إلى خمسة عشر ألف مسلم .

ويتراوح عدد المسلمين حالياً بين ١٥ ـ ٢٠ آلفا ، مهددون بالإنقراض لعدم وجود المدراس الإسلامية ، وبسبب عزلهم من العالم الإسلامي، وبسبب عدم وجود علماء يعلمون الناس أمور دينهم ، ثم بسبب كثرة الزواج المختلط نتيجة لضعف الوعي الديني(٣٠) .

٦ ـ المجر :

وصل الإسلام إلى المجر عن طريق البلغار الذين انطلقوا من حوض نهر الفولجا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي نحو الجنوب الغربي، وتوزعوا في شبه جزيرة البلقان فاستقرت جماعة منهم في بلاد المجر ، وكان بينهم مسلمون عملوا على نشر الإسلام في تلك البلاد .

وعندما دخل العثمانيون المجر عام ٩٩٤هـ/ ١٥٨٦م أقبل قليل من السكان على اعتناق الإسلام ، واستقرت جماعة من المسلمين الأتراك في البلاد بقيت حتى خروج العثمانيين من العاصمة بودابست عام ١٠٩٨هـ/ ١٦٨٧م وكان في البلاد عدد من المساجد والمدارس الإسلامية والمكتبات ، لم يبق منها اليوم إلا مسجداً واحداً .

ويقدر عدد المسلمين في المجر بحوالي ٤٥٠٠ مسلم يقيم منهم ٦٥٠ في العاصمة بودابست .

وفي النهاية ، تجدر الإشارة إلى وجود عدة آلاف من المسلمين الذين جلبهم الأتراك والتتار في مناطق أخرى في شرق أوربا مثل تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية(٣١) .

هوامش الفصل السابع

(١) محمد عوض الهزايمة ، حاضر العالم الإسلامي ، ص٣٢٢ ـ ٣٢٤ .

أيضاً داود علي الفاضل الفاعوري ، مرجع سابق ، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

(٢) لدخول الإسلام إلى الفلبين : راجع :

محمد عبد القادر أحمد ، المسلمون في الفلبين ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٤٢ وما بعدها .

أيضاً : حسين مؤنس ، الإسلام الفاتح ، ط١ ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م ، ص٥٩ـ٦٣ .

(٣) د. جميل عبد الله المصري ، حاضر العالم الإسلامي ، ج٢ ، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٢ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٧ .

أيضاً : محيي الدين حسن القضماني ، مرجع سابق ، ص ١٦٤ ـ ١٦٦ .

(٥) سعيد محمود البتاكوشي ، كشمير ومحاولة للفهم ، الرياض ١٤١٨هـ ، ص٧ـ٩ .

(٦) الإمام أبو الأعلى المودودي ، طائفة من قضايا الأمة الإسلامية في القرن الحاضر ، الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص ١٤٨ ـ ١٦٠ .

أيضاً سعيد البتاكوشي ، مرجع سابق ، ص ١٠ ـ ١٢ .

(٧) أبو الأعلى المودودي ، مرجع سابق ، ص ١٧٣ ـ ١٧٥ .

(٨) سعيد البتاكوشي ، مرجع سابق ، ص ١٤ ـ ١٦ ، و ص ٢٣ ـ ٢٥ .

أبو الأعلى المودودي ، مرجع سابق ، ص ١٨٦ وما بعدها .

(٩) سعيد البتاكوشي ، مرجع سابق ، ص ١٦ ـ ٢٥ .

(١٠) نفسه ، ص ٤٢ ـ ٥٥ .

(١١) أبو الأعلى المودودي ، مرجع سابق ، ص ١٩٣ ـ ١٩٩ .

(١٢) محيي الدين حسن القضماني ، مرجع سابق ، ص ١٠٢ ـ ١٠٤ .

(١٣) نفسه ، أيضاً : جميل عبد الله محمد المصري ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٥٠٦ـ٥٢٦ .

انظر أيضاً : داود علي الفاعوري ، مرجع سابق ، ص ٣٣٦ ـ ٣٤٦ .

(١٤) إحسان حقي : المسلمون أمام التحدي العالمي ، ط٥ ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٣م ، ص ٨٥ ـ ٨٦ .

(١٥) محمد إسماعيل ، المسلمون في الاتحاد السوفيتي ، رابطة العالم الإسلامي ، ص١٣٩ .

(١٦) إحسان حقي ، مرجع سابق ، ص ٩٤ .

(١٧) نفسه ، ص ٩٥ .

(١٨) محمد إسماعيل ، مرجع سابق ، ص ٢٥٩ ، انظر أيضاً : جميل عبد الله المصري ، مرجع سابق ، ص ٥٢٤ ـ ٥٤٣ .

(١٩) جميل عبد الله المصري ، مرجع سابق ، ص ٥٤٤ ـ ٥٥٥ .

(٢٠) المركز العالمي للكتاب الإسلامي ، حاضر العالم الإسلامي عام ١٩٩١م ، الكويت ١٩٩٢م ، ص ١٠٧ ـ ١١٠ .

(٢١) محمد عوض الهزايمة ، مرجع سابق ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

(٢٢) محمد عوض الهزايمة ، مرجع سابق ، ص ١٧٢ ، أيضاً : المركز العالمي للكتاب الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ١١١ ـ ١١٣ .

(٢٣) محمد عوض الهزايمة ، مرجع سابق ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

(٢٤) نفس المرجع ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

(٢٥) نفس المرجع، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

(٢٦) محيي الدين القضماني ، مرجع سابق ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ . انظر أيضاً : جميل عبد الله المصري ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٦٣٩ ـ ٦٤١ .

(٢٧) ليوغسلافيا ، انظر : جميل عبد الله المصري ، مرجع سابق ، ص ٦٣١ ـ ٦٣٥ . أيضاً : محيي الدين القضماني ، مرجع سابق ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٢٨) لبلغاريا ، انظر : جميل عبد الله المصري ، مرجع سابق ، ص ٦٢٣ ـ ٦٣٠ .

(٢٩) نفس المرجع ، ص ٦٣٦ . . أيضاً : داود الفاعوري ، مرجع سابق ، ص٣٣٣ .

(٣٠) جميل عبد الله المصري ، مرجع سابق ، ص ٦٣٧ ـ ٦٣٩ ، أيضاً : داود الفاعوري ، مرجع سابق ، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

(٣١) داود الفاعوري ، مرجع سابق ، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ ، و ص ٣٣٦ .

الفصل الثامن
وجهة العالم الإسلامي

لقد تعرضنا بإسهاب فيما سبق إلى المشكلات والتحديات الجسيمة التي تواجه عالمنا الإسلامي اليوم ، ونود أن نشير فيما تبقى من صفحات هذا المؤلَّف إلى بعض الحلول المقترحة لتلك المشكلات والتحديات .

ولعل تلك التحديات قد أيقظت الأمة الإسلامية من سباتها ، فاستيقظ الكثير من أبنائها المخلصين ، ليعملوا على حل مشاكلها ، وعلي بناء مستقبل أفضل لأمتهم ، فكانت الصحوة الإسلامية المباركة التي لو أُريد لها النجاح والسداد فلابد من ترشيدها لتسير في طريق البناء الإسلامي الصحيح .

مواجهة المشاكل والتحديات :

إن البناء الجديد للمجتمع المسلم لا يكون إلا بتربية الشخصية المسلمة حتى نعرف وجهتها الصحيحة ، وذلك بإقامة المؤسسات الإسلامية التي تسهم في هذا البناء ، فتعود للمسجد رسالته ، وتُبني المدارس الإسلامية من جديد ، وتُوضَع لها المناهج التعليمية والتربوية الصحيحة ، ويُقوي الإعلام الإسلامي الذي يسهم في توعية جماهير الأمة الإسلامية ، ويوجهها الوجهة الإسلامية السليمة .

وإن لم يكن في مقدور الأمة إصلاح كل أمورها ، فعليها أن تبدأ بما تستطيع إصلاحه وبناءه من جديد ، فعليها أولاً : تصحيح مسارها ورفض مناهج أوروبا ومفاهيمها التي لا تتسق والمفاهيم الإسلامية ، والعودة إلى الإسلام ، وتفعيله في حياتها من جديد ، وحمل رسالته ليكون هاديها وقائدها في مسيرتها كلها ، فما دامت الأمة تسير في ركاب الغرب الأوروبي دون وعي أو إدراك ، فستبقى أوروبا صاحبة السيادة والقيادة والتصرف في

أمر المسلمين ، ولن تتخلص الأمة من قيود الذل والضعف إلا بالتخلص من قيود التبعية بكل ألوانها الفكرية ، والسياسية ، والاقتصادية .

ولابد أن تتجه الأمة إلى التمسك بعقيدتها الإسلامية الصحيحة ، وبترابطها ووحدتها الإسلامية ، فذلك هو الطريق الوحيد إلى استرداد قوتها ومجدها ، وهذا هو السلاح المعنوي الذي يجب أن تتسلح به الأمة قبل أن تلجأ إلى التسلح بقوة السلاح ، والأساليب المادية الأخرى ، وعلى قادة الأمة وعلمائها ودعاتها والحريصين على مستقبلها وهويتها أن يغرسوا الإسلام والإيمان من جديد في قلوب أبنائها ، وعليهم إيقاد عاطفتهم الدينية ، وربطهم بتراثهم الإسلامي وسيرة سلفهم الصالح ، وتسليحهم بالفهم الصحيح لمبادئ الإسلام ، وقيمه وأحكامه ، وثقتهم بأنه الطريق الوحيد لعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وأنهم لن يسودوا ويقودوا البشرية إلا بالإسلام ، كما ساد به سلفهم الأول ، وعليهم أن يعوا جيداً أن ذلك لن يكون بالأمر السهل ، لأن قوى الباطل لن تسمح للمسلمين بالنهوض من كبوتهم ، وبالانسلاخ من تبعيتهم واستعادة كيانهم ، وستحول بينهم وبين الإسلام لأنها تعرف قوة الإسلام ، وقدرته على الصمود والنصر ، وأنه هو الذي أبقى في الماضي للأمة قوتها وسيادتها ، وحرسها من كل أعدائها .

فالنصر الذي أحرزه المسلمون في حروبهم الماضية التي خاضوها لا يرجع إلى كثرة عددهم ، وقوة أسلحتهم ، وإنما يرجع إلى قوة وطبيعة العقيدة الإيمانية التي انطلقوا بها ، والتي ملأت نفوسهم ، وجعلتهم يضحون بكل غال ونفيس من أجل عقيدتهم ، فاستهانوا بالموت فكتب لهم النصر وأرادوا الحياة الآخرة فدانت لهم الدنيا ، وهم عنها زاهدون ، فلم يكن جهادهم في سبيل الله مجرد اندفاع إلى القتال ، ولا حماسة في موقف شدة ، ولكنه كان الجهاد الدائم المستمر الذي يستغرق العمر كله ، والصبر

المتواصل الذي يستنفذ النفس والمال ، وذلك أمر لا يستطيعه إلا من راض نفسه على الصبر والمثابرة ، والتوكل على الله ، واليقين بأن النصر والجزاء من عند الله وحده ، فالجيوش لا تنتصر بقوة السلاح فحسب ، ولكنها تنتصر بقوة روحها المعنوية المنبعثة من عقيدتها وروحها الإيمانية .

وكل المؤامرات والأوضاع المحزنة التي يعاني منها المسلمون إنما ترجع أساساً إلى عدم تمسكهم بعقيدتهم الإسلامية الصحيحة ، وإلى غياب الإسلام منهجاً وسياسة وتطبيقاً عن حياتهم ، وإلى تبعيتهم للقوانين والمبادئ ، والنظم العلمانية المستوردة ، ثم فوق هذا وذاك إلى فقدان الوحدة الإسلامية ، وانعدام التعاون بين الأقطار الإسلامية ، الأمر الذي جعلها فريسة سهلة لأعدائها المتكالبين على تفريق كلمتها ، وابتزاز مواردها وطاقاتها ، وإبعادها عن دينها الإسلامي .

فالعقيدة الإسلامية توحد كيان الفرد المسلم ، كما توحد الأمة الإسلامية ، وتجمع شملها ، فالمؤمنون إخوة في كل زمان ومكان ، والأمة ـ كما تقرر المبادئ الإسلامية ـ كالجسد الواحد بتضامنها ، وتكافلها في كل ما يأتيها من خير ، أو يلحقها من ضرر ، فالرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه يقول : «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**» ، وقوله : «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**» ، فقوة الفرد المسلم تنبع من التحامه في جماعة المؤمنين ، كما أن الإسلام وحد بين المسلمين على اختلاف عناصرهم ، وأجناسهم ، وبيئاتهم ، ولغاتهم ، وألوانهم ، وأوطانهم ، وأقام هذه الوحدة على أسس بينة وقواعد راسخة ، لا يتسرب إليها الضعف والوهن ، فقامت الرابطة بين أبناء الأمة الإسلامية على أساس العقيدة الإسلامية أساس الدين الإسلامي الذي هو فطرة الإنسان ، فهناك وحدة

العبادة ، ووحدة اللغة ، ووحدة التاريخ والتراث المشترك ، ووحدة الرسالة ، وعليها جميعاً قامت الوحدة الإسلامية ، والتي بدونها لن تقوم للأمة الإسلامية قائمة .

والواقع أنه سيبقى التخلف ، والضعف ، والهوان ، والتبعية ، مالم تلجأ الأمة إلى الله ، وتتمسك بدينها ، وتدرك ذاتها ومسئوليتها ، فهي تملك كل مقومات التقدم والنمو ، والأمل معقود على الصحوة الإسلامية المعاصرة عليها تعود الأمة إلى الإسلام ، فالقرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة يبشران بأن المستقبل لهذا الدين الإسلامي ، وبحتمية رجوعه إلى موضع الريادة والسيادة .

الاقتصاد الإسلامي في خدمة العالم الإسلامي :

يمكن للإسلام أن يقدم حلولاً تخدم حاضر العالم الإسلامي من الناحية الاقتصادية ، ذلك أنه إذا ما التزم البشر بالفكرة الاقتصادية الإسلامية ، فإنهم سيجدون فيها الحل الشافي لكل عللهم الاقتصادية ، فالإسلام يعتبر أن صلاح المجتمع أساسه صلاح النفس ، وفساد المجتمع أيضاً أساسه فساد النفس ، ذلك أن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ومع ذلك فإن الإسلام لم يهمل الإصلاح العملي ، وعليه فقد اهتم بالنواحي الاقتصادية ، وقرر لها مبادئ إسلامية عامة ، فهو ينظر إلى الثروة كعرض من أعراض الحياة الدنيا ، ووسيلة من وسائل تيسير الحياة على الناس ، فهو لم يذم المال ، وإنما جعله مجرد وسيلة إن استخدمت في الخير فهي الخير ، وإن استخدمت في الشر فهي الشر ، فالمال ليس وسيلة إلى المتعة واللذة ، ولا هو غاية الناس في الحياة ، فيقتتلون من أجلها ، ويأكل بعضهم بعضاً .

والإسلام يحث على الكسب والعمل ، ولا يريد أن يكون المسلم عاطلاً ، ولكن يريده عاملاً مكافحاً يستغل المال لخيره وخير أمته ، وخير أهله ، ويعتبر هذا عبادة من العبادات ، والإسلام لا يقر التجرد والانقطاع عن الدنيا ، كما تقول بعض الشرائع الأخرى ، بل اعتبر الساعين وراء الكسب من الساعين إلى الخير ، واعتبره قربة إلى الله سبحانه وتعالى .

كما حدد الإسلام منابع الثروة وأنواعها ، فجعلها التجارة ، والزراعة ، والصناعة ، وآيات القرآن الكريم تشير إلى ذلك ، كما تتحدث عن ثروة المعادن ، والثروة المائية والحيوانية .

وكذلك حدد الإسلام مفهوم الملكية ، ومقوماتها وأنواعها ، وبين أحكام المعاملات من بيع ، وشراء ، وتجارة ودين ، والملكية في الإسلام تقوم على مبدأ أن المال مال الله ، وأن الإنسان «مستخلف» فيه ، فقرر مبدأ الملكية الفردية ، فللأفراد أن يملكوا ، ولهم أن يحوزوا ، والإسلام يقرر أيضاً مبدأ التفاوت بين الناس في الثروات ـ يقول تعالى : ﴿**نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات**﴾ ، وساوى الإسلام بين طبقات المجتمع ، فلا غني بطر ، ولا فقير معدم ، وحرم البخل ، وشجع وأوصى بالإنفاق في سبيل الله ، من صدقة وزكاة ، فيتم التكافل الاجتماعي بين المسلمين[1] .

والإسلام يحرم الكسب الحرام ، ويوصي بالتعامل بالأمانة ، والوفاء ، وعدم الغش ، ويحرم الإسلام الربا ، ولا يقر أخذ مال الغير بغير حق شرعي كالغصب ، والسرقة والغلول ، وهو سرقة الأموال العامة ، وما يؤخذ بطريقة القمار ، وأخذ المال في مقابل عمل محرم كالبغاء والرشوة وارتكاب الجرائم لقاء أجر ، والعقود المحرمة وفي مقدمتها الربا ، وكل ملكية تكسب بطريق عقد باطل .

وإلى جانب تحريم الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، فقد حرم الإسلام أيضاً الاحتكار ، والجشع والاستغلال ، ونهى أن يكون المال دولة بين الأغنياء ، كما قرر الإرث والوصية لتوزيع الثروة وعدم تجميعها في أيد معدودة .

ولم يفصل الإسلام الحياة الاقتصادية عن الحياة الدينية والخلقية ، فإن الإنسان خلق لعبادة الله ، وما في الأرض من ثمرات خلق ليعين الإنسان في تلك العبادة ، كما أن الإسلام حث على السعي في طلب الرزق وأباح الملكية الفردية ، وبين الحلال والحرام في الكسب ، ولقد ترك الإسلام للدولة أن تضع خططها الاقتصادية في هذه الأطر الإسلامية بما يناسب ظروفها وزمانها(٢) .

فأهداف الاقتصاد الإسلامي أهداف أخلاقية ، وليس هدفه الإنتاج والربح المادي البحت الذي يجعل الحياة تكالباً وصراعاً وشقاءً ، وهو مبني على قواعد أساسها العدل ، وتكافؤ الفرص ، والتعاون والتكافل ، وكذلك التوازن بين حرية الفرد ومصلحة المجتمع ، فجمع بين حرية الفرد وتدخل الدولة إقراراً للعدالة والتكامل ومنعاً للظلم والاستغلال ، مما يجعله متميزاً ومستقلاً عن سائر الأنظمة الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية ، ومبرأً من نقائصها وعيوبها ، وهو يقرر الكليات ويترك التفاصيل لاجتهاد المجتهدين القائم على معرفة ظروف الأمة وحاجاتها ، والملتزم بكليات الشرع الإسلامي .

هذا هو ما نص عليه نظام الاقتصاد الإسلامي ، فقد نص على نظريات بالغة الوضوح ، وسهلة التطبيق ، فالملكية معروفة مقررة ومحددة المعالم ، واحترام الثروة والحث على استغلالها ـ زراعية كانت ، أم تجارية أم صناعية ـ أمر منصوص عليه إجمالاً وتفصيلاً ، ومكافحة البطالة ، ومحاربة الكسب

الحرام ، وتحريم الربا ، والحث على تداول الثروات مقرر في وضوح تام ، والعلاقة المادية بين الأفراد ، وبينهم وبين المجتمع مبوبة مفصلة ، كل ذلك مما ذكرنا وما لم نذكر جاء به الإسلام لينظم أمور المسلمين المادية ، وإن كان الإسلام قد أجمل الأحكام في بعض الحالات فما ذلك إلا ليفسح المجال للاجتهاد وللتطور الفكري الذي يلائم بين كليات الشرع الإسلامي وأحوال الناس على مر العصور .

وبهذا النظام الرباني ساد السلف الصالح ، وحققوا العدالة والمساواة والرفاهية لمجتمعهم بطريقة عجزت عنها النظم الوضعية السائدة اليوم ، والتي ما فتئت تبرهن كل يوم على فشلها ، ولو عاد المسلمون إلى دينهم وطبقوا أحكامه في الاقتصاد وغير الاقتصاد لوجدوا في ذلك ضالتهم التي ستقودهم إلى القوة والعزة والرفعة ، ولأصبحوا سادةً في بلادهم ، بدلاً من أن يكونوا أتباعاً لغيرهم .

الأخذ الواعي بأسباب الحضارة :

الحديث عن أسباب تدهور المسلمين ، وتقدم الغربيين ، أمر مطروق لا نود الخوض في تفصيلاته ، وتكفي الإشارة إلى ما قاله ورده الكثيرون من أن تأخر المسلمين عن ركب النهضة الحديثة ناتج عن تخليهم عن إحدى المميزات الأساسية للإسلام وهي التوافق التام بين العقيدة وبين ضرورات الحياة ، ما لم يحدث ذلك التوافق ، وما لم يتمسك المسلمون ويعودن إلى جوهر دينهم ، فلن تقوم لهم قائمة ، وسيظلون يتخبطون في دياجير الجهل والتخلف .

الإسلام دين يحض على العلم والتعلم ، وهو دين لا يتعارض والعلم الحديث ، بل يحث أتباعه على طلبه «ولو في الصين» ، وعليه لا مناص للمسلمين من العمل على الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة ، ولكن في كثير

من الوعي والتدبر ، فهم في غنىٰ عن جوانبها الروحية والمعنوية ، ولكنهم بحاجة إلي تقدمها التقني ، ومنجزاتها المفيدة ، وحتىٰ في محاولة الاستفادة من التطور التكنولوجي ، فلابد من الاهتمام بالقيم الإسلامية حتىٰ تكون استفادتنا من التطور العلمي والتقني إيجابيةً ومفيدةً .

وعلينا تيسير نشر العلم بمثل ما يجري في العالم المتقدم وفي نفس الوقت خلق الجو المناسب ، والتربية المناسبة حتىٰ ينمو العلم فيصبح طابع حياتنا ، والموجه لتفكيرنا وتصرفنا ، فإنه لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها وهو كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ ، ولقد صلح أمر أولها بالدعوة والدعوة إلىٰ العلم والذي يفضي إلىٰ التعرف علىٰ قدرة الله ، والتعرف علىٰ القوانين التي تحكم هذا الكون ، وغاية المسلم المتعلم أن يعمل علىٰ تطوير الحياة والمفاهيم بحيث تجاري معارف العصر ، وأحوال الحياة الجارية ، والتقيد بهذه الأطر الإسلامية ومراعاتها تضمن خلق الجو والتربة اللذين ينمو فيهما العلم ويثمر ، ويضمن لنا أن نعود كما كنا خير أمة أخرجت للناس .

والقرآن الكريم ينص علىٰ امتلاك كل أنواع القوة ، في صراع الحق مع الباطل ، فالحق سبحانه وتعالىٰ يقول : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [**الأنفال** : ٦٠] ، وإرهاب أعداء الله يعني الردع الذي أصبح أمراً هاماً في صراع الأمم في عالم اليوم ، والردع يقتضي امتلاك تكنولوجيا قادرة علىٰ حسم الصراع قبل أن يبدأ ، ولابد للأمة الإسلامية التي لا تمتلك سلاح الردع من استجلابه من عدو قد لا يمكنها من ذلك وهي تخوض أخطر معاركها وفي أسوأ أحوالها وهكذا تصبح التكنولوجيا ضرورة واجبة لكل دول العالم الإسلامي وذلك لأن العالم الإسلامي مستهدف من قبل أعدائه ، وسيادته مهددة بشكل دائم ،

وكل ما يحفظ هذه السيادة يصبح واجباً شرعياً على الأمة الأخذ به ، وتركه أثم لأنه يهدد مستقبل الأمة .

أضف إلى ذلك أن العالم الإسلامي لن يتجاوز أزمة الجوع والفقر ، والتخلف إلا بالاستعانة بالتكنولوجيا في عصر تتطور فيه المعارف ، وتنمو بسرعة مذهلة ـ والتكنولوجيا تحتاج إلى تهيئة اجتماعية ، وتعليمية ـ قد تأخذ الكثير من وقت دول العالم الإسلامي التي يرزح معظم سكانها تحت ظلام الأمية والجهل ، ولكن لا مهرب من مواجهة التحديات الجسام والتغلب عليها ، والأخذ بأسباب النهضة الحديثة بما يتوافق مع مبادئ الشرع الإسلامي ، والطريق إلى ذلك صعب وطويل ، ولكن لابد من أن نبدأ أولاً بترجمة المراجع العلمية الكبرى في شتى مجالات التخصص والميادين التي نحتاج إليها ـ إلى اللغة العربية ، ولابد من إنشاء هيئات أو مؤسسات لتحقيق هذا الغرض ، وهو نقل الحضارة العالمية إلى اللغة العربية ، وعن طريق ترجمة تراث العالم القديم ـ الإغريقي وغيره ـ اكتسب علماء الإسلام الأوائل المهارات العلمية ، وأنجزوا وأضافوا إلى المعرفة البشرية ، والحضارة الإنسانية ـ وإسهاماتهم تلك حقيقة لا تحتاج إلي بيان ، وإسهامهم في الحضارة الأوروبية الحديثة التي قامت على ترجمة علومهم ومعارفهم ـ أمر لا يختلف عليه إثنان .

نعم لنا أن نستفيد من الغرب في حدود البحوث العلمية والتقدم التقني ، أما علوم الإنسانيات فنحن نحتل في بابها مركز المعلم للغرب لا المتتلمذ عليه(٣) .

ولابد أيضاً من أن نرسل طلابنا في بعثات تعليمية وتطبيقية وتدريبية إلى الدول التي تفوقت في أي فرع من فروع المعرفة التي تحتاج إليها نستطيع أن نفعل ذلك في ميادين الطب والهندسة والزراعة والتجارة ، وفي الميادين

الحربية ، كما يمكن أن نستعين بخبرات أولئك الرواد الأجانب باستدعائهم إلى بلادنا للإفادة منهم في جامعاتنا أو في مجالات العمل الأخرى ، ولابد من التفاعل والتواصل مع المؤسسات العلمية العالمية المتقدمة ، وربط المؤسسات العلمية والبحثية والجامعات في بلادنا الإسلامية بمثيلاتها في الخارج ، وذلك عن طريق الزيارات العلمية المتبادلة ، والمؤتمرات والندوات إلخ .

وإذا ما فعلنا كل ذلك في وعي ، وإدراك ، وصبر ، وتخطيط سنتمكن من اللحاق بركاب الحضارة المادية الحديثة ، وليس ذلك بالأمر المستحيل أن صحت النيات وأيدها العمل .

هوامش الفصل الثامن

(١) أبو الأعلى المودودي ، واقع المسلمين وسبل النهوض بهم ، بيروت ، ١٣٨١هـ ، ص ٤٠ ـ ٤٥ .

(٢) جميل عبد الله المصري ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٤ .

(٣) أبو الأعلى المودودي ، طائفة من قضايا الأمة الإسلامية ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

قائمة المصادر والمراجع

الكتب :

(١) أبو الحسن علي الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م .

(٢) أبو الأعلى المودودي : ما هي القاديانية ـ الكويت ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

(٣) أبو الأعلى المودودي : طائفة من قضايا الأمة الإسلامية في القرن الحاضر ـ الرياض ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

(٤) أبو المكرم عبد الجليل السلفي : دعوة الشيخ محمد بن الوهاب في شبه القارة الهندية بين مؤيديها ومعاونيها ـ الرياض ، عام١٤١٢هـ .

(٥) أبو هلال الأندونيسي : غارة تبشيرية على أندونيسيا ـ ط٤ ، جدة ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

(٦) إحسان حقي : المسلمون أمام التحدي العالمي ـ بيروت ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

(٧) إحسان حقي : مأساة كشمير المسلمة ـ الدار السعودية ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

(٨) أحمد طربين : فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ عام ١٩٧٣م .

(٩) إدوارد سعيد : الاستشراق ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت عام ١٩٨١ .

(١٠) اللجنة الملكية لشئون فلسطين : تطورات النشاط الاستعماري الاستيطان في الضفة الغربية ، والقدس ، وقطاع غزة ـ نشرة خاصة عام ١٩٨٥م .

(١١) الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي : وثائق الشئون الثقافية والاجتماعية لمؤتمر وزارة خارجية الدول الإسلامية ـ بغداد عام ١٩٨١م .

(١٢) المركز العالمي للكتاب الإسلامي : حاضر العالم الإسلامي عام ١٩٩١م ـ الكويت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

(١٣) أمين القضاه ، ومحمد الخطيب ، ومحمد الهزايمة : أديان وفرق ـ عمان ، (الأمارات) عام ١٩٩٠م .

(١٤) أنور الجندي : العالم الإسلامي والاستعمار السياسي ، والاجتماعي ، والثقافي ـ الكتاب اللبناني ، ط١ ، عام ١٩٧٩م .

(١٥) ابن تيمية (شيخ الإسلام) : اقتضاء الصراط المستقيم ومخالفة أهل الجحيم ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ مكتبة السنة المحمدية (د.ت) .

(١٦) ترمنجهان (سبنسر) : الإسلام في شرق أفريقيا ـ ترجمة : عاطف النواوي ، ط١ ، القاهرة عام ١٩٧٣م .

(١٧) جمال حمدان : العالم الإسلامي المعاصر ـ القاهرة ، ط٧ ، عام ١٩٧١م .

(١٨) جمال الدين محمد محمود : الأقليات الإسلامية ـ المشكلات الثقافية والاجتماعية (لامكان) (د.ت) .

(١٩) جميل عبد الله جميل المصري : حاضر العالم الإسلامي ، وقضاياه المعاصرة ـ جزءان (١ ، ٢) الطبعة الثالثة ، المدينة المنورة ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

(٢٠) حسين أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ـ القاهرة ، ط٣ ، عام١٩٨٦م .

(٢١) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ـ القاهرة ، ط٣ ، عام١٩٨٤م .

(٢٢) حسين مؤنس : الإسلام الفاتح ـ القاهرة ـ ط١ ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م .

(٢٣) داود علي الفاضل الفاعوري : محاضرات في حاضر العالم الإسلامي ـ عمان (الأردن) ، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م .

(٢٤) رابطة العالم الإسلامي : عشرون عاماً على طريق الدعوة والجهاد ـ مكة المكرمة ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

(٢٥) رابطة العالم الإسلامي : المسلمون في أفريقيا ـ تقرير غير منشور ـ مكة المكرمة ، ١٩٩٥م .

(٢٦) سعيد محمود البتاكوشي : كشمير ـ محاولة للفهم ـ الرياض ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧ .

(٢٧) سفر بن عبدالرحمن الحوالي : وباء العلمانية ـ القاهرة ، ١٤٠٩هـ .

(٢٨) سيد عبد المجيد بكر : الأقليات المسلمة في آسي وأستراليا ـ إصدارات هيئة الإغاثة الإسلامية ، ١٤١٢هـ .

(٢٩) سيد عبد المجيد بكر : الأقليات المسلمة في أفريقيا ـ سلسلة دعوة الحق ـ السنة الرابعة ـ عدد ٤٢ ـ رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة ، رمضان ١٤٠٥هـ/ يونيو ١٩٨٥م .

(٣٠) سيد عبد المجيد بكر : الأقليات المسلمة في أوروبا ـ دعوة الحق ـ السنة الرابعة ـ عدد ٤٣ ـ رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة ـ شوال ١٤٠٥هـ/ أغسطس ١٩٨٥م .

(٣١) سيد عبد المجيد بكر : الأقليات المسلمة في الأمريكتين ، والبحر الكاريبي ـ دعوة الحق ـ السنة الرابعة ـ عدد ٤٤ ـ رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة ، ذي القعدة ١٤٠٥هـ/ أغسطس ١٩٨٥م .

(٣٢) طه عبد العليم رضوان : جغرافية العالم الإسلامي ـ ج١ ـ القاهرة ـ ط١ ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

(٣٣) عبد الله صالح العثيمين : تاريخ المملكة العربية السعودية ـ ج١ ـ ط٣ ـ الرياض ، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م .

(٣٤) عبد الله صالح العثيمين : الشيخ محمد عبد الوهاب ـ حياته وفكره ـ الرياض ـ ط٢ ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

(٣٥) عبد الرحمن حسن سوار الذهب : أوضاع الأقليات المسلمة في القارة الأفريقية ـ من بحوث المؤتمر الحادي عشر لمجمع البحوث الإسلامية ـ الأزهر ـ القاهرة ، ١٤٠٨هـ .

(٣٦) عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني : أجنحة المكر الثلاثة ـ بيروت ، ١٩٨٢م .

(٣٧) عبد العظيم عبد العزيز سبيع : حاضر العالم الإسلامي ـ القاهرة ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م .

(٣٨) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ـ الطبعة التاسعة ـ بيروت ، ١٩٨٥م .

(٣٩) علي جريشة : حاضر العالم الإسلامي ـ القاهرة ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

(٤٠) علي جريشة ومحمود محمد سالم : حاضر العالم الإسلامي ـ القاهرة ، (د . ت) .

(٤١) علي المنتصر الكتاني : المسلمون في المعسكر الشيوعي ـ مكة المكرمة ، (د . ت) .

(٤٢) علي المنتصر الكتاني : المسلمون في أوروبا وأمريكا ـ دار باريس ـ المغرب ، ١٣٧٦هـ .

(٤٣) عمر فروخ ومصطفى خالدي : التبشير والاستعمار ـ ط٥ ـ بيروت ، ١٩٧٣م .

(٤٤) لوثرب ستودارد (ترجمة عجاج نويهض ، وتعليق الأمير شكيب أرسلان) : حاضر العالم الإسلامي ـ مجلدان ـ الطبعة الثالثة ، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م .

(٤٥) محسن عبد الحميد : حقيقة البابية والبهائية ـ بغداد ، ١٩٧٧م .

(٤٦) محمد إسماعيل : الإسلام في الاتحاد السوفيتي ـ رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة ، (د . ت) .

(٤٧) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ ط٢ ـ القاهرة ، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م .

(٤٨) محمد زين الهادي العرماني : نشأة العلمانية ودخولها إلى المجتمع الإسلامي - الرياض ، ١٤٠٨هـ .

(٤٩) محمد عبده : الإسلام والنصرانية - القاهرة ، ١٩٤٧م .

(٥٠) محمد السيد غلاب ، وحسن عبد القادر صالح ، ومحمود شاكر : البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر - الرياض ، ١٣٩٦هـ .

(٥١) محمد عبد القادر أحمد : المسلمون في الفلبين - القاهرة ، ١٩٨٠م .

(٥٢) محمد عوض الهزايمة : حاضر العالم الإسلامي وقضاياه السياسية المعاصرة - عمان (الأردن) ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .

(٥٣) مركز البحوث - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية : أسبوع الشيخ محمد ابن عبد الوهاب - ج٢ - الرياض ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

(٥٤) محمود شاكر : العالم الإسلامي اليوم - القاهرة ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

(٥٥) محمود شاكر : : سكان العالم الإسلامي - ط٢ - بيروت ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

(٥٦) محمود شاكر : المسلمون تحت السيطرة الرأسمالية - بيروت ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

(٥٧) محمود شاكر : المسلمون تحت السيطرة الشيوعية - ط٢ - دمشق ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

(٥٨) محيي الدين حسن القضماني : قضايا هامة في حاضر العالم الإسلامي - ط٢ - بيروت ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

(٥٩) مشور حسن حمودة وآخرون : موسوعة العالم الإسلامي - عمان ، ١٩٩٣م .

(٦٠) منذر معاليقي : الاستشراق في الميزان - بيروت ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م .

(٦١) يوسف القرضاوي : الحل الإسلامي - مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

بعض المقالات العربية :

(١) سيد زين العابدين : ـ «الأمة الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم» ـ في : النفس المطمئنة ـ مجلة الطب النفسي الإسلامي ـ عدد ٣٢ ـ أكتوبر ١٩٩٢م .

(٢) جريدة «اليوم» ـ عدد ٨٢٦٠ ـ ٦ رمضان ١٤١٦هـ/ ٢٦ يناير ١٩٩٦م (إحصائية) .

(٣) عون الشريف قاسم : «الدعوة الإسلامية في أفريقيا» ـ دراسات أفريقية ـ عدد ٦ ـ رجب ١٤١٠هـ/ فبراير ١٩٩٠م .

(٤) محمد مرسي حمزة ـ «الأقليات المسلمة في القارة الأفريقية» ـ مجلة منار الإسلام ـ عدد ٦ ـ جمادىٰ الآخرة ١٤١٢هـ/ ديسمبر ١٩٩٢م .

بعض المراجع الأجنبية :

(1) Journal, Institute of Muslim Minority Affairs, King Abd-AlAziz University, Jeddah 1979-1992 .

(2) The Encyclopedia of Islam (New edition) .

(3) Kritzeck and W.H. Lewis (eds.) - Islam in Africa - N. York 1969.

(4) Trimingham - S. - The Influence of Islam upon Africa - London 1980 .

(5) Trimingham - S. - History of Islam in West Africa - O.U.P. 1972 .

(6) Trimingham - S. - East in East Africa - London 1964 .

ملحق رقم (١)*

أولاً : البلدان الإسلامية في أفريقية :

م	اسم البلد	المساحة بالكم٢	عدد السكان	نسبة المسلمين
١	مصـر	١٠٠١٤٤٩	٤٨٠٠٠٠٠٠(١)	٪٩٤
٢	السودان	٢٥٠٥٨١٣	٢١٠٠٠٠٠٠	٪٧٩
٣	ليبيـا	١٧٥٩٥٤٠	٢٦٢٠٠٠٠	٪١٠٠
٤	تـونس	١٦٤١٥٠	٦٥٠٠٠٠٠	٪٩٦
٥	الجـزائر	٢٣٨١٧٤١	١٨٥٠٠٠٠٠	٪٩٩
٦	المغـرب	٤٤٦٥٥٠	١٩٠٠٠٠٠٠	٪٩٩
٧	موريتانيا	١٠٣٠٧٠٠	١٧٥٠٠٠٠	٪١٠٠
٨	الصومال	٦٤٠٠٠٠	٣٥٠٠٠٠٠	٪١٠٠
٩	جيبوتي	٢٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	٪١٠٠
١٠	السنغال	٢٠١٠٠٠	٥٠٨٥٠٠٠	٪٩٥
١١	جامبيا	١١٢٩٥	٦٠٠٠٠٠	٪٨٥
١٢	غينيـا	٢٤٥٨٥٧	٤٧٠٠٠٠٠	٪٩٥
١٣	غينيا بياو	٣٦١٢٥	٥٠٠٠٠٠	٪٧٠
١٤	مـالي	١٢٤٠٧١٠	٦٣٠٨٠٠٠	٪٩٠
١٥	بوركينافاسو	٢٧٤٢٠٠	٦٩٠٨٠٠٠	٪٦٤
١٦	ساحل العاج	٣٢٢٤٦٣	٧٠٠٠٠٠٠	٪٦٠
١٧	توجـو	٥٦٠٠٠	٢٤٧٢٠٠٠	٪٦٠

* اعتمدنا في كل مايتصل بهذا الملحق على د. جميل عبدالله محمد المصري : حاضر العالم الإسلامي - وقضاياه المعاصرة - المدينة المنورة ، ١٤٠٧هـ ، ونوجه نظر القارئ الكريم إلى أن بعض البيانات الواردة به قد لا تتطابق مع الواقع الراهن لمرور أكثر من عقد على رصد هذه البيانات .

م	اسم البلد	المساحة بالكم٢	عدد السكان	نسبة المسلمين
١٨	داهومي (بنين)	١١٢٦١٢	٢٨٠٠٠٠٠	٦٠٪
١٩	نيجيريا	٩٢٣٧٦٨	٦٦٦٠٠٠٠٠	٦٥٪
٢٠	الكاميرون المتحدة	٤٧٥٤٤٢	٨٥٠٣٠٠٠	٦٠٪
٢١	النيجر	١٢٦٧٠٠٠	٤٩٠٠٠٠٠	٩٤٪
٢٢	تشـاد	١٢٨٤	٤٢٠٠٠٠٠	٨٥٪
٢٣	الصحراء المغربية	٢٧١٣٦٠	١٠٠٠٠٠	١٠٠٪
٢٤	أثيوبيا واريتريا	١٢٢١٩٠٠	٣١١٠٠٠٠٠(٢)	٦٥٪
٢٥	تنزانيا(٣)	١٠٠٠٠٠٠	١٦٠٠٠٠٠٠	٦٣٪
٢٦	جزر القمر	٢٢٣٧	٣٥٠٠٠٠	٨٠٪
٢٧	غانـــا	٢٣٨٥٣٧	١١٤٥٠٠٠٠	٥٠٪
٢٨	سيراليون	٧١٧٤٠	٣٤٧٤٠٠٠	٦٥٪
٢٩	موزنبيق	٨٠١٥٩٠	١٢١٣٥٠٠٠	٥٠٪

ثانياً : البلدان الإسلامية في آسيا :

م	اسم البلد	المساحة بالكم٢	عدد السكان	نسبة المسلمين
١	المملكة العربية السعودية	٢١٤٩٦٩٠	٩٥٢٠٠٠٠	١٠٠٪
٢	الجمهورية اليمنية	٤٨٢٦٨٣	١٠٠٠٠٠٠٠	١٠٠٪
٣	عمـان	٢٧٢٠٠٠	١١٠٠٠٠٠	١٠٠٪
٤	الإمارات العربية	٨٣٦٠٠	٦٥٠٠٠٠	١٠٠٪
٥	قطـر	١١٣٠٠	٢٠٠٠٠٠	١٠٠٪
٦	البحرين	٥٩٨٠٠	٣٠٠٠٠٠	١٠٠٪
٧	الكويت	١٧٨١٨	١١٠٠٠٠٠	١٠٠٪
٨	العراق	٤٣٤٧٢٤	١١٥١٠٠٠٠	٩٥٪
٩	الأردن	٩٧٧٤٠	٣١٢٠٠٠٠	٩٤٪
١٠	فلسطين المحتلة			
	(الضفة الغربية)	٢٧٠٩٠	٤٣٠٠٠٠٠(٤)	١١٪
	(قطاع غزة)		١٥٠٠٠٠٠	٨٥٪
١١	لبنـان	١٠٤٠٠	٣٥٠٠٠٠٠	٦٠٪(٥)
١٢	سوريـا	١٨٥١٨٠	٨٠٠٠٠٠٠	٨٨٪
١٣	تركيـا	٧٧٩٤٥٢	٥٠٠٠٠٠٠٠	٩٨٪
١٤	إيـران	١٦٤٨٠٠٠	٣٤٠٠٠٠٠٠	٩٦٪
١٥	أفغانستان	٦٤٧٥٠٠	١٩٢٨٠٠٠٠	٩٩٪
١٦	باكستان	٨٠٣٩٤٣	٧٠٤٠٠٠٠٠	٩٥٪

م	اسم البلد	المساحة بالكم٢	عدد السكان	نسبة المسلمين
١٧	كشمير	٢١٧٩٣٥	٩٠٠٠٠٠٠	٩٥٪
١٨	بنغلاديش	١٤٢٧٧٦	٩٠٢٦٠٠٠٠	٩٥٪
١٩	جزر المالديف	٥١٧٨٠	١٤٠٠٠٠	١٠٠٪
٢٠	ماليزيا	٣٢٤٧٤٧	١١٩٢٠٠٠٠	٥٧٪
٢١	بروناي	٥٧٧٠	٢٠٠٠٠٠	٧٦٪
٢٢	أندونيسيا	٢٠٢٧٠٩٧	١٤٠٠٠٠٠٠٠	٩٤٪
٢٣	أوزبكستان	٤٤٧٠٠٠	١٣٦٩٥٠٠٠	٨٨٪
٢٤	أذربيجان	٨٦٠٠٠	٥٧٠٠٠٠٠	٩٠٪
٢٥	طاجيكستان	٦٣٧٠٠	٣٣٨٥٠٠٠	٨٥٪
٢٦	بركمانستان	٤٨٨١٠٠	٢٤٩٥٠٠٠	٦٦٪
٢٧	قازاخستان	٢٧١٧٣٠٠	١٤١٧٠٠٠٠	٦٦٪
٢٨	قيرغيزيا	١٩٨٥٠٠	٣٢٩٥٠٠٠	٦٠٪
٢٩	داغستان	٥٠٣٠٠	١٥٠٠٠٠٠	٨٠٪
٣٠	قفقاسيا	٣١٤٣٠٠	١٥٠٠٠٠٠٠	٧٥٪
٣١	تركستان الشرقية (سينكيانغ)	١٧١٠٧٤٥	١٢٠٠٠٠٠٠	٧٠٪
٣٢	كانو	٣٦٧٠٠٠	١٣٠٠٠٠٠٠(٦)	
٣٣	نينج هسيا	٦٦٥٠٠	٢٠٠٠٠٠٠(٦)	
٣٤	يونان	٤٣٧٠٠٠	٧٠٠٠٠٠٠(٦)	

ثالثاً : المسلمون في أوربا :

م	اسم البلد	المساحة بالكم٢	عدد السكان	نسبة المسلمين
١	ألبانيا	٢٨٧٤٨	٢٥٠٠٠٠٠	٧٩٪
٢	تركيا أوربا	٢٣٧٦٤	٢٥٠٠٠٠٠	٩٥٪
٣	تترستان	٦٨٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	٦٥٪
٤	بشكيريا	١٤٣٦٠٠	٤٠٠٠٠٠٠(٧)	٦٠٪
٥	الجوفاش (تشوفاشيا)	١٨٣٠٠	١٥٠٠٠٠٠	٦٠٪
٦	موردوف	٢٥٠٠٠	١٢٥٠٠٠٠	٥٥٪
٧	إدمورت	٤٢٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٥٩٪
٨	ماري	٢٣٨٠٠	٧٥٠٠٠٠	٧٩٪
٩	القرم	٢٦١٥٠	٥٠٠٠٠٠٠(٨)	
١٠	أورنبرج		٢٠٠٠٠٠٠	٥٠٪
١١	شمال القوقاز		٣٤٣٧٠٠٠(٩)	٦٩,٨٪

ومن هذا يتضح أن مساحة العالم الإسلامي حوالي ٤٠ مليون كيلو متر مربع ، ويعيش فيه أكثر من ٨٥٠مليون نسمة ، باستثناء الأقاليم التي انحسر عنها المدُّ الإسلامي ، في الأندلس، وصقلية، والبلقان ، والهند . ورغم جميع المعوقات فمازال الإسلام في توسع دائم ، وخصوصاً في منطقتين هامتين من مناطق العالم : هما : قلب أفريقيا وجنوبها ، وجنوب شرق آسيا(١٠) ، بالإضافة إلى أنه يشق طريقه إلى العالم الجديد ـ أمريكا الشمالية والجنوبية ، وأستراليا ـ والإسلام هو دين المستقبل ، وقارة أفريقية بشكل خاص هي قارة المستقبل بالنسبة للإسلام ، ولا يخلو قطر من أقطار العالم من مسلمين ، وهناك أقطار تضم أقليات إسلامية كبيرة .

وهذه الأقطار التي تضم أقليات إسلامية :

أولاً : في آسيا :

م	اسم البلد	عدد السكان	عدد المسلمين	نسبة المسلمين
١	الهند	٦٨٧٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠٠	١٥٪
٢	قبرص	٧٥٠٠٠٠	١٧٥٠٠٠	٢٧٪
٣	أرمينيا	٣٠٠٠٠٠٠	٣٧٦٠٠٠	١١٪
٤	جورجيا (بلاد الكرج)	٥٠٠٠٠٠٠	٨٥٥٠٠٠	١٥٪
٥	(سيريلانكا) سيلان	١٤٨٥٠٠٠٠	١٤٨٥٠٠٠	١٠٪
٦	بورما	٣٢٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠	١٠٪ (١١)
٧	تايلاند	٤٧١٧٣٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠	٢٥٪ (١٢)
٨	الفلبين	٤٨٤٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠٠	٢٢٪ (١٣)
٩	الصين الشعبية	٩٥٠٠٠٠٠٠٠	٧٥٠٠٠٠٠٠	٨٪ (١٤)
١٠	سنغافورة	٢٣٦٢٧٠٠	٣٥٠٠٠٠	١٥٪
١١	كمبوديا (كمبوتشيا)	٥٧٤٦١٤١	٧٠٠٠٠٠	١٣٪ (١٥)
١٢	التبت	٢٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	١٠٪

ثانياً : في أفريقية :

م	القطـــر	عدد السكان	عدد المسلمين	نسبة المسلمين
١	كينيـــا	١٥٣٢٧٠٠٠	٥٣٦٤٤٠٠	٣٥٪
٢	ليبيريـــا	١٧٨٠٠٠٠	٥٩٦٣٠٠	٣٣٪
٣	أوغنـــدا	١٣٣٨٩٢٠٠	٤١٠٦٧٦٠	٣٠٪
٤	ملاجـــاش	٨٧٤٢٠٠٠	٢١٨٥٥٠٠	٢٥٪
٥	موريشيـــوس	٩٢٦٥٠٠	١٨٥٣٠٠	٢٠٪
٦	مـــالاوي	٦١٢٣٠٠٠	١٨٣٦٩٠٠	٣٠٪
٧	زامبيـــا	٥٦٧٩٨٠٠	١٠٠٠٠٠٠	١٥٪
٨	زمبابوي	٧٦٠٠٠٠٠	١٦٥٠٠٠٠	٢٠٪
٩	جمهورية أفريقية الوسطى	٢٢٢١٠٠٠	٦٦٦٣٨٠	٣٠٪
١٠	الكنغو (برازفيل)	١٥٥٠٨٠٠	٣٢٢٥٠٠	٢٠,٨٪
١١	زائيـــر	٢٧٨٦٩٠٠٠	٢٥٠٠٠٠٠	١٠٪
١٢	بوروونـــدي	٤١١١٣٠٠	١٠٢٧٨٠٠	٢٥٪
١٣	الجابـــون	١٠٢٧٥٠٠	٤٦٢٣٠٠	٤٥٪
١٤	غينيـــا الاستوائية	٣٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠	١٣,٣٪
١٥	أنجـــولا	٦٣٠٠٠٠٠	١٦٠٠٠٠٠	٢٥٪

ثالثاً: في أوربا[١٦]:

م	القطـر	عدد المسلمين	نسبة المسلمين
١	فرنسـا[١٧]	١١٠٠٠٠٠	٢٪
٢	بريطانيـا[١٨]	١١٢٠٠٠٠	٢٪
٣	يوغسلافيا (السابقة)	٤٥٠٠٠٠٠	٢٠,١٪
٤	بلغاريا	١٥٠٠٠٠٠	١٦,٨٪
٥	بلجيكا	١٠٠٠٠٠	١٪
٦	ألمانيا الغربية	١٢٢٠٠٠٠	٢٪
٧	إيطاليا	٥٩٠٠٠٠	١٪
٨	بولندة	٤٠٠٠٠٠	١٪
٩	شمال غرب أوربا[١٩]	٦٥٥٠٠	٠,٢٩٪
١٠	اليونان	٢٢٠٠٠٠	٢,٥٪
١١	رومانيا	٢٥٠٠٠٠	١٪
١٢	مالطة	٤٥٠٠٠	١١٪

رابعاً : في العالم الجديد :

م	القطـر	عدد السكان	عدد المسلمين	نسبة المسلمين
١	أمريكا الشمالية(٢٠)	٣٤٥٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠	١,٥٪
٢	أمريكا الجنوبية(٢١)	٢٣٠٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	٠,٥٪
٣	أوقيانوسيا (أستراليا)(٢٢)	١٤٠٧٢٠٠٠٠٠	٢٨٠٠٠٠	٠,٥٪

وبذلك يزيد عدد الأقليات الإسلامية على ٢٥٠ مليون نسمة ، فيصل عدد المسلمين إلى أكثر من مليار نسمة في العالم بأجمعه(٢٣) .

هوامش ملحق رقم (١)

(١) هذا حسب إحصاء عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

(٢) فيها أرتيريا وعدد سكانها ثلاثة ملايين ٨٠٪ مسلمون ، وأوجادين وسكانها ٦٢٥٠مليون نسمة ٨٠٪ مسلمون ، وأما أثيوبيا ففيها ٢١٠٧٢٨٣٠٠ منهم مسلمون ٣٨٪ .

(٣) جاء في كتاب (Development and Religion in Tanzania) الصادر عن اتحاد الكنائس العالمي أن نسبة المسلمين في تنازنيا ٣٠٪ ، والنصارىٰ ٣٢٪ ، وديانات أخرىٰ محلية ٣٧ ٪ ، و١٪ ديانات دخيلة أخرىٰ ، وذلك في محاولات لتقليل نسبة المسلمين ، وهذا شأن المبشرين (المخربين) في جميع بلاد الإسلام .

(٤) منهم ٢,٩ مليون يهودي استطونها كغزاة ، في حين يعيش حوالي ٤ ملايين مسلم من أهلها مشردين خارج فلسطين . انظر كتاب : إسرائيل دولة المهجرين لناصر موسىٰ زيد الكيلاني .

(٥) The Gospel and Islam, P.268 .

(٦) هذا عدد المسلمين فقط ، ويزيد العدد كثيراً عن هذا التقدير إذ يخفي المسلمون هناك أنفسهم نتيجة الضغط الشيوعي في الصين علىٰ المسلمين .

(٧) والمعلومات عنهم قليلة جداً في ظل الحكم الشيوعي الروسي .

(٨) هذا عدد المسلمين وتعرض معظم للإبادة والتهجير في ظل الحكم الروسي الشيوعي .

(٩) وتشمل : تشاشان أنجوشيا ، وكباردبا بلكاريا ، وكرتشاي الشركسية والأديجا وأوستينا الشمالية .

(١٠) فقد فشلت جهود المبشرين رغم إمكانياتهم الهائلة وتكثيف جهودهم في آسيا

وأفريقيا ، انظر : المسلمون ص١ ، ص٤ (العدد ٣٥/ السبت ٢١ محرم ١٤٠٦هـ/ ٥ أكتوبر ١٩٨٥م).

(١١) وفيها إقليم أراكان الإسلامي .

(١٢) وفيها إقليم فطاني الإسلامي الذي يبلغ عدد سكانه أكثر من ثلاثة ملايين يجاهدون ضد الهجمة الصليبية البوذية .

(١٣) وفيها إقليم مورو الإسلامي الذي يجاهد لنيل حريته أمام الهجمة الصليبية الفلبينية .

(١٤) باستثناء الأقاليم الإسلامية كانسو ويونان وتركستان ونينغ هسيا الخاضعة للصين .

(١٥) انخفض هذا العدد في ظل الحكم الشيوعي إلى ٢٠٠ ألفاً فقط .

(١٦) انظر المسلمون العدد ١٨٦/ ١٤ محرم ١٤٠٩هـ/ ٢٦ أغسطس ١٩٨٨م .

(١٧) فقد نشرت جريدة لوموند الباريسية في عددها الصادر ٢/ ٤/ ١٩٨٥م مقالاً بعنوان في فرنسا ألوف المساجد ، وألف العمال المسلمون الأتراك في بوردو وضواحيها في أوائل مارس عام ١٩٨٥م جمعية إسلامية ، واستأجروا مكاناً اتخذوه مسجداً لصلاتهم ، ويعلمون فيه أبناءهم القرآن الكريم ، والدين الإسلامي (أخبار العالم الإسلامي ، الإثنين ٦ المحرم ١٤٠٦هـ) .

(١٨) وأما في بريطانيا فيوجد عدد كبير من المدارس الإسلامية ويطالب المسلمون باستقلال مدارسهم الإسلامية هناك (المسلمون العدد ٣٧ ، ص ٥) .

وفي إسبانيا انطلق صوت (الله أكبر) مرة أخرى بعد ٥٠٠ عام من خروج المسلمين من الأندلس ، فتقرر بناء مسجد في مدريد بعد زيارة الملك فهد بن عبدالعزيز لمدريد في فبراير عام ١٩٨٥م ، ويكون تحت إشراف رابطة العالم الإسلامي . (المسلمون ، العدد ٤٣ ص١) .

(١٩) الدانمرك والنرويج والسويد وفنلندا .

(٢٠) ويبلغ عدد المسلمين على أقل تقدير في الولايات المتحدة وحدها أربعة ملايين مسلم ، وتبلغ عدد مدارسهم الإسلامية عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م أربعين مدرسة تعمل بنظام الدوام الكامل . (الشرق الأوسط العدد ٢٤٦٥ ، الأربعاء ١٢ ذو الحجة ١٤٠٥هـ/ ٢٨/ ٧/ ١٩٨٥م .

في حين ذكر لويس فرخان زعيم المسلمين هناك أن عددهم تجاوز ٣٠ مليون نسمة ، وطالب بتكوين أمة خاصة بالمسلمين السود في أمريكا لحمايتهم من الاضطهاد . (المسلمون العدد ٥ ، السبت ١٨ جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ/ ٥ مارس آذار ١٩٨٥م) ، وقد أخذت تظهر للمسلمين آثار هامة اقتصادية وسياسية ، وأخذ اليهود يخشون هذا التأثير فوصف عمدة نيويورك اليهودي (إدوارد كوتش) زعيم المسلمين لويس فرخان بالنازية أعداء اليهود (المسلمون العدد ٤١ ، ص ٢) .

وفي كندا بلغ عدد المسلمن ١٥٠ ألفاً معظمهم من الجاليات من البلدان الإسلامية (المسلمون ، العدد ١٧٥ ، ص ١١) .

(٢١) عقد المؤتمر الأول لمستقبل الدعوة الإسلامية في أمريكا الجنوبية ـ برازيليا ـ عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م برعاية رابطة العالم الإسلامي ، حيث بحث المشكلات التي تعترض جهود الدعوة والدعاة في المنطقة ، ودرس مستقبلها لوضع الأسس الثابتة لنشاطها وانتشارها وإيجاد سبل التنسيق والتعاون بين الجمعيات والمراكز والمؤسسات الإسلامية العاملة في حقل الدعوة ، وبناء قنوات الاتصال بين مسلمي أمريكا الجنوبية ومسلمي العالم . (أخبار العالم الإسلامي ، الإثنين ١٦ محرم ١٤٠٦هـ/ ٣٠ سبتمبر ١٩٨٥م) ، المسلمون العدد ٣٨ ، ص ٧ ـ ٧ ، المسلمون ، العدد ٣٧) .

(٢٢) دخلها الإسلام عام ١٨٥٠م على يد الأفغان الذين استقدموا مع الإبل المستخدمة في النقل والكشوف الجغرافية ، فأسسوا العديد من المصليات عبر طرق القوافل

التي سلكوها ، كما بلغ عدد المساجد عشرة ، ثم دخلها الإسلام من رافد آخر عن طريق هجرة المسلمين من أقطار عديدة مثل (غينيا الجديدة ، أندونيسيا ، باكستان ، الهند ، تركيا ، لبنان ، قبرص ، ألبانيا ، يوغسلافيا) إلى أستراليا ، وقد بدأت هذه الهجرة عام ١٣٣٤هـ ، فازداد عدد المسلمي .

ويبذل جهد كبير للعناية بالمسلمين هناك منذ أن قدم الملك خالد بن عبد العزيز مليون دولار مساعدة منه للمسلمين بأستراليا لبناء المدارس ، كما قدمت دول الخليج مساعدات مادية وثقافية جيدة ، (جريدة المدينة ـ الأحد ـ ١٤٠١هـ) ، كما أسهمت المملكة العربية السعودية في إنشاء ٤٥ مركزاً إسلامياً عام ١٤٠٦هـ ، والحكومة الأسترالية لا تعوق الدعوة الإسلامية ، ولكن اليهود وهم يسيطرون كلياً على دور الصحف وجميع وسائل الإعلام ورأس المال ، يقفون في وجده الدعوة . (المسلمون ، العدد ١٤٢ــ ١ ربيع الأول ١٤٠٦هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٩٨٥م) .

(٢٣) وتواجه الأقليات الإسلامية أربع دوائر للخطر هي : الصليبية : التي تمارس لونين من الغزو العسكري والفكري ، كما يحدث في الفلبين وأوغندا ، ودول الهند الصينية والأفريقية .

والصهيونية : وهي سرطان الأمة الإسلامية ، وتحاول جاهدة تحجيم الوضع الإسلامي أياً كان حجمه في مختلف أجزاء العالم .

والشيوعية : التي تحارب الإسلام بعنف وتعمل على إبادته كما في الاتحاد السوفيتي ، والصين الشعبية ، ودول شرق أوربا ، والدول الأخرى التي اتخذت الماركسية واللينينية منهجاً لها .

وأخيراً الهندوكية والبوذية : التي تمارس أعمالها بتشجيع من الدوائر الثلاث السابقة على مسلمي الهند وبورما ودول جنوب شرق آسيا .

وقد بدأ الاهتمام الرسمي بالأقليات الإسلامية عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م حين رفع المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس صوته احتجاجاً على اضطهاد المسلمين في الاتحاد السوفيتي ، ثم نداء التضامن الذي وجهه الملك فيصل بن عبد العزيز عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م ، وبدأت تأخذ مكانتها في المؤتمرات الإسلامية الدولية ـ مؤتمر العالم الإسلامي ـ ومؤتمرات وزراء خارجية الدول الإسلامية ، وجهود رابطة العالم الإسلامي ، ومعهد شئون الأقليات المسلمة في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة وإذاعة نداء الإسلام في مكة . (الأقليات الإسلامية في آسيا وأستراليا ـ سيد عبد المجيد ، ص٩) .

فهرس الموضوعات

الموضـــوع رقم الصفحة

مقدمة ٥

الفصل الأول : أهمية العالم الإسلامي ومقوماته الأساسية ٧

مدلول العالم الإسلامي ٩

حاضر العالم الإسلامي ١١

السكان وعوامل اللقاء بين المسلمين ١٣

الانتماء العرقي والعقائدي ١٥

عوامل الوحدة الإسلامية ١٦

أهمية العالم الإسلامي ١٨

هوامش الفصل الأول ٢٨

الفصل الثاني : ضعف العالم الإسلامي ٢٩

عوامل ضعف العالم الإسلامي ٣١

نتائج ضعف العالم الإسلامي ٣٩

أولاً ـ الابتعاد عن تطبيق الشريعة الإسلامية ٣٩

ثانياً ـ إلغاء الخلافة العثمانية وانحلال الوحدة الإسلامية ٤١

أثر غيبة الخلافة ٤٧

هوامش الفصل الثاني ٥١

الفصل الثالث : وسائل الاستعمار في إضعاف المسلمين ٥٣

المخطط السياسي والاقتصادي ٥٥

المخطط الفكري ـ الغزو الثقافي ٥٧

١ ـ العلمانية ٥٩

أ ـ التشبث بالحضارة الغربية ٦١

ب ـ بث الدعوات والنزاعات القومية والأقليمية والقبلية ٦١

الموضوع	رقم الصفحة

جـ ـ قطع صلة المسلمين بالقرآن الكريم ـ محاربة اللغة العربية ٦٣
د ـ توجيه التعليم وجهة لا إسلامية ٦٤
هـ ـ طمس هوية الأمة الفكرية ٦٦
و ـ بث الدعوات الدينية الهدامة وتشجيعها : ٦٨٨
أولاً ـ السيد أحمد خان ٦٩
ثانياً ـ القاديانية ٧٠
ثالثاً ـ الأحمدية ٧٥
رابعاً ـ البابية ٧٦
خامساً ـ البهائية ٧٧
٢ ـ الاستشراق ٨٠
٣ ـ حركة التنصير والبعثات التنصيرية ٨٥
٤ ـ الميراث الاستعماري ٩٢
أ ـ مشكلة جنوب السودان ٩٤
ب ـ المشكلة الكردية ٩٥
جـ ـ المشكلات الحدودية ٩٦
د ـ سيطرة ثقافة المستعمر ٩٧
هـ ـ اسقاط الخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية ٩٨
هوامش الفصل الثالث ٩٩

الفصل الرابع : اتجاه مقاومة الاستعمار الغربي في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) ١٠٣
الصحوات الإسلامية : ١٠٥
١ ـ الحركة السلفية في نجد ١٠٦
٢ ـ الحركة السنوسية في ليبيا ١١٠

الموضوع	رقم الصفحة
٣ ـ الحركة المهدية في السودان	١١٢
الاتجاه الفكري المقاوم الاستعمار الغربي :	١١٥
١ ـ الأفغاني	١١٧
٢ ـ محمد عبده	١٢٠
دور الأزهر والقرويين والزيتونة :	١٢٢
١ ـ الجامع الأزهر	١٢٢
٢ ـ جامع القرويين	١٢٣
٣ ـ جامع الزيتونة	١٢٥
هوامش الفصل الرابع	١٢٧
الفصل الخامس : الصحوة الإسلامية في العصر الحديث	١٢٩
١ ـ منظمة المؤتمر الإسلامي	١٣٧
ـ أهداف المنظمة	١٣٩
٢ ـ رابطة العالم الإسلامي	١٤٣
ـ أهداف الرابطة	١٤٤
ـ أنشطة الرابطة	١٤٥
٣ ـ المؤسسات الثقافية والتعليمية الإسلامية	١٤٧
أ ـ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)	١٤٨
ب ـ المركز العالمي للتعليم الإسلامي	١٤٨
جـ ـ الاتحاد العالمي للمدارس العربية الإسلامية الدولية	١٥٠
الحاجة إلى التعاون الاقتصادي	١٥١
هوامش الفصل الخامس	١٥٤

الموضـــوع	رقم الصفحة
الفصل السادس : قضايا إسلامية معاصرة	١٥٧
الأقليات المسلمة :	١٥٨
(١) الأقليات المسلمة في أوربا	١٦٤
(٢) الأقليات المسلمة في أفريقيا	١٧٠
قضية فلسطين :	١٧٦
١ ـ الصهيونية وفلسطين :	١٧٦
أ ـ التخطيط الصهيوني والصبر على المخطط	١٨١
ب ـ غياب التخطيط لدى الأمة الإسلامية	١٨١
جـ ـ إبعاد الإسلام عن المعركة	١٨٢
د ـ إقصاء الشعب الفلسطيني عن المعركة	١٨٣
٢ ـ مرحلة العمل الصهيوني ـ البريطاني لتهويد فلسطين :	١٨٤
أ ـ تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين	١٨٥
ب ـ انتقال ملكية الأراضي إلى المهاجرين اليهود	١٨٥
جـ ـ اعتراف بريطانيا بالوكالة اليهودية	١٨٥
٣ ـ موقف أهل فلسطين :	١٨٧
أ ـ الثورة الفلسطينية الكبرى	١٩١
ب ـ الجهود الصهيونية لإقامة الدولة	١٩٣
٤ ـ قيام إسرائيل :	١٩٦
مرحلة التوسع اليهودي	١٩٧
هوامش الفصل السادس	١٩٩
الفصل السابع : المسلمون في آسيا وشرق أوربا	٢٠١
الإسلام في الفلبين :	٢٠٣
ـ الغزو الصليبي وجهاد المسلمين	٢٠٥
ـ حركة النضال	٢٠٧

الموضـــوع	رقم الصفحة
قضية كشمير :	٢١٢
ـ الأرض والسكان	٢١٢
ـ كشمير والإسلام	٢١٤
ـ السياق التاريخي والسياسي لقضية كشمير	٢١٤
ـ قصة الانضمام	٢١٦
ـ السياسة الهندية في كشمير	٢١٨
ـ الموقف الدولي من القضية	٢١٩
ـ اندلاع الحرب في عام ١٩٦٥	٢٢٠
ـ الجهاد الكشميري	٢٢١
المسلمون في الدول الشيوعية :	٢٢٤
المسلمون في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) :	٢٢٤
١ ـ تركستان الغربية	٢٢٤
٢ ـ منطقة حوض الفولجا	٢٢٥
٣ ـ سيبيريا	٢٢٥
٤ ـ بلاد القفقاس ـ قفقاسية	٢٢٥
٥ ـ شبه جزيرة القرم	٢٢٧
الروس وموقفهم من المسلمين :	٢٢٨
١ ـ سياسة التنصير الإجباري	٢٢٨
٢ ـ التهجير والإبادة	٢٢٩
روسيا الشيوعية وموقفها من الإسلام :	٢٢٩
الجمهوريات الإسلامية في «كومونولث» الدول المستقلة:	٢٣٣
١ ـ جمهورية أذربيجان	٢٣٦
٢ ـ جمهورية طاجكستان	٢٣٧
٣ ـ جمهورية أوزبكستان	٢٣٨

الموضـوع	رقم الصفحة

٤ ـ جمهورية تركمانستان ٢٣٩
٥ ـ جمهورية كازاخستان ٢٤٠
٦ ـ جمهورية قرغيزستان ٢٤١
المسلمون في شرق أوروبا : ٢٤٢
دخول الإسلام إلى شرق أوروبا : ٢٤٢
١ ـ ألبانيا ٢٤٤
٢ ـ يوغسلافيا ٢٤٦
٣ ـ بلغاريا ٢٤٨
٤ ـ رومانيا ٢٥١
٥ ـ بولنده ٢٥٢
٦ ـ المجر ٢٥٣
هوامش الفصل السابع ٢٥٤
الفصل الثامن : وجهة العالم الإسلامي ٢٥٧
ـ مواجهة المشكلات والتحديات ٢٥٩
ـ الاقتصاد الإسلامي في خدمة العالم الإسلامي ٢٦٢
ـ الأخذ الواعي بأسباب الحضارة ٢٦٥
هوامش الفصل الثامن ٢٦٩
قائمة المصادر والمراجع ٢٧١
ملحق رقم (١) ٢٧٧
هوامش ملحق رقم (١) ٢٨٦
الفهرس ٢٩١